توجيهات
ومواقف سلوكية

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م

رقم الإيداع القانونى: ٢٠٠٥/١٠٩٥١
الترقيم الدولى: I. S. B. N. 977-253-372-3

دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع
٢ شارع منشا - محرم بك - الإسكندرية
تليفون: ٣٩٠١٩١٤ - فاكس: ٥٩٠١٦٩٥

توجيهات ومواقف سلوكية

إعداد
الدكتور عبد العزيز بن عبد الله الحميدي
الأستاذ بكلية الدعوة وأصول الدين
جامعة أم القرى

دار الدعوة

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبد الله ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد: فهذه توجيهات ومواقف سلوكية، في مجالات الورع والعفة والزهد والعبادة، والعمل الصالح عمومًا، وقد تم تَتَبُّع هذه التوجيهات وجمعها من سيرة الصحابة رضي الله عنهم ومن تبعهم بإحسان، ولم يكن المقصود من ذلك استقصاء هذه الأخبار، وإنما رصدتُ ما تم جمعه أثناء قراءتي في أمهات كتب التاريخ والتراجم وغيرها، وها أنذا أقدمها لإخواني القراء لأخذ العبرة منها في مجال تعديل السلوك وتقويمه في هذه الحياة، حيث إن فيها نماذج من حياة الاعتدال في النظر إلى الدنيا ودقة الموازنة بينها وبين الآخرة، كما أنها تمثِّل صورًا من حياة السلف الصالح الذين استطاعوا كبح جماح أنفسهم وسياستها نحو الاستقامة والاعتدال، وذلك يبعث على تتبع آثارهم وحسن الاقتداء بهم.

***

توجيهات ومواقف
في
الورع والعفة والزهد

نماذج من ورع النبي ﷺ وزهده وخشيته:

لقد كان رسول الله ﷺ إمام المسلمين في الورع والزهد وخشية الله تعالى وفي غير ذلك من أمور الدين، وقد ضرب من نفسه مثلا أعلى في تطبيق ما دعا المسلمين إليه، فمن ذلك ما أخرجه الإمام البخاري من حديث عقبة بن الحارث النوفلي قال: صليت مع النبى ﷺ العصر، فلما سلم قام سريعًا، دخل على بعض نسائه، ثم خرج ورأى ما في وجوه القوم من تعجبهم لسرعته، فقال: «**ذكرت وأنا في الصلاة -تِبْرًا عندنا فكرهت أن يمسى- أو يبيت- عندنا، فأمرت بقسمته**»(١).

وإن هذا التصرف من رسول الله ﷺ يُعدُّ مثالاً عاليًا للشعور بالمسئولية، والتحري الدقيق في القضايا المالية، والمبادرة إلى تنفيذ التكاليف الشرعية وإن لم يكن وقت تنفيذها محددًا خشية النسيان أو حضور الأجل.

وهذا لون من ألوان التربية النبوية المؤثرة حيث إن خروج النبي ﷺ من المسجد بهذه الصورة أثار عجب الصحابة وتساؤلهم فتهيأت نفوسهم لاستقبال هذا التوجيه العملي نحو الاهتمام بحقوق المسلمين والإسراع في إيصالها إلى مستحقيها.

ومن ذلك ما أخرجه الإمام أحمد بإسناده عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ وجد تحت جنبه تمرة من الليل فأكلها فلم يَنَمْ تلك الليلة، فقال بعض نسائه: يا رسول الله أَرِقْتَ الليلة؟ قال: «**إني وجدت تحت جنبي تمرة فأكلتها وكان عندنا تمر من تمر الصدقة فخشيت أن تكون منه**»(٢).

فهذا مثال على شدة ورع النبي ﷺ وعِظَم خشيته من الله تعالى، فقد أرق ليلة كاملة من أكل تلك التمرة على قلتها خشية أن تكون من الصدقة، وقد حرَّم الله تعالى الصدقة على بني هاشم، وبهذا الورع الشديد والخشية البالغة كان ﷺ قدوة عليا لأمته في ذلك.

---

(١) صحيح البخاري، رقم ١٢٢١، العمل في الصلاة (٣/ ٨٩)، والتبر هو الذهب.

(٢) شمائل الرسول لابن كثير /١١٣- ١١٤.

وأخرج الإمام أحمد بإسناده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «ومات رسول الله ﷺ وما ترك دينارًا ولا درهمًا ولا عبدا ولا وليدة، وترك درعه رهنًا عند يهودي بثلاثين صاعًا من طعام»(١).

وهذا مثل أعلى في الزهد في الدنيا والتقلل من متاعها، فلقد كان بإمكان رسول الله ﷺ أن يكون أغنى رجل في العرب وربما في العالم، فلقد أفاء الله تعالى عليه في الغزوات أموالاً عظيمة، ويكفي مثالا على ذلك غزوة حنين حيث كان يعطي الرجل الواحد ما بين جبلين من الغنم والإبل، وأعطى عددًا من زعماء العرب وأكابرهم كل واحد مائة من الإبل ولم يدخر لنفسه من ذلك شيئًا، والْتَحق ﷺ بالرفيق الأعلى وهو على تلك الصفة المذكورة من التقشُّف والزهد البالغ.

وأخرج الإمام أحمد بإسناده عن عائشة رضي الله عنها قالت: دخلَتْ عليَّ امرأة من الأنصار فرأَتْ فراش رسول الله ﷺ عباءة مثنية، فرجعَتْ إلى منزلها، فبعثت إليَّ بفراش حَشوُه الصوف، فدخل عليَّ رسول الله ﷺ فقال: **ما هذا؟** فقلت: فلانة الأنصارية دخلت عليَّ فرأتْ فراشك فبعثَتْ إليَّ بهذا، فقال: رُدِّيه، فلم أردَّه وأعجبني أن يكون في بيتي، حتى قال لي ذلك ثلاث مرات، فقال: «**يا عائشة رُدِّيه فوالله لو شئت لأجرى الله معي جبال الذهب والفضة، فرددته**»(٢).

وهذا أعظم ما يتصور من الزهد أن يكون بالإمكان أن تتحول الجبال ذهبًا وفضة لرسول الله ﷺ -بإذن الله تعالى- ثم يزهد في ذلك كله وينام على عباءة، ويُلحُّ على عائشة رضي الله عنها في ردِّ ذلك الفراش!

وأخرج الإمام أحمد بإسناده من حديث أبي عبد الرحمن سفينة رضي الله عنه مولى رسول الله ﷺ: أن رجلا ضَافَ عليّا رضي الله عنه، فصنع طعاما، فقالت فاطمة رضي الله عنها: لو دعونا رسول الله ﷺ فأكل معنا، فدعوه، فجاء فوضع يديه على عُضَادَتَى الباب فرأى قِرامًا في ناحية البيت عليه صورة فرجع، فقالت فاطمة: الحْقه فاسألْه، فقال رسول الله ﷺ: «**إنه ليس لي -أو لنبي- أن يدخل بيتًا مُزَوَّقا**»(٣).

(١) الزهد للإمام أحمد / ٤ والوليدة هي الجارية وهي المملوكة. (٢) الزهد / ١٤.
(٣) الزهد / ٧ والقرام هو الكساء.

وهكذا فزع النبي ﷺ من رؤية ذلك القماش الذي عُلِّق في ناحية من البيت ورجع ولم يدخل حتى أزيل ذلك القماش لكونه من مظاهر الدنيا.

وأخرج ابن سعد بإسناده عن جندب بن سفيان قال: أصابت النبيَّ ﷺ أَشاءَةُ نخلة فأدمت إصبعه، فقال: ما هي إلا إصبع دُمِيَتْ وفي سبيل الله ما لَقِيَتْ، قال: فحُمِل فوُضِع على سرير مرمول بِشُرُط[1]، ووُضِع تحت رأسه مِرفَقة من أدَم[2] محشوة بليف، فدخل عليه عمر وقد أثَّر الشريط بجنبه فبكى عمر فقال: **ما يبكيك؟** قال: يا رسول الله ذكرت كسرى وقيصر يجلسون على سُرُر الذهب ويلبسون السندس والإستبرق -أو قال الحرير والإستبرق- فقال: **أما ترضون أن تكون لكم الآخرة ولهم الدنيا؟**[3].

وهكذا كان سرير النبي ﷺ بهذه الصلابة والخشونة حتى أثر على جنبه، وقد أثار هذا المنظر شفقة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وتذكر ما عليه ملوك فارس والروم، من الترف والنعيم، فقارن بين المشهدين فبكى، وقد بين له النبي ﷺ أن هدف أولئك الدنيا، وقد نهلوا منها بأوفر نصيب، ولكن لاحظَّ لهم في الآخرة، وأن هدف المسلمين الحصول على السعادة الأخروية، فلذلك أضْعَفوا من نصيبهم في الدنيا.

ومن أمثلة ورع النبي ﷺ ما أخرجه الإمام أبو داود من حديث عاصم بن كليب عن أبيه عن رجل من الأنصار قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة فرأيته ﷺ وهو على القبر يوصي الحافر يقول: **أوسعْ من قِبَل رجليه، أوسع من قبل رأسه**، فلما رجع استقبله داعي امرأة فأجاب ونحن معه فجيء بالطعام فوضع يده، ثم وضع القوم فأكلوا، ففطن آباؤنا والنبي ﷺ يلوك لقمة في فيه -يعني فطنوا لتغير وجه النبي ﷺ-، ثم قال: **أجد لحم شاة أُخِذَتْ بغير إذن أهلها** فأرسلت المرأة تقول: يا رسول الله إني أرسلت إلى البقيع -وهو موضع تباع فيه الغنم- لتُشتَرى لي شاة فلم توجد، فأرسلت إلى جار لي قد اشترى شاة أن يرسل بها إليَّ بثمنها، فلم يوجد، فأرسلت إلى امرأته فأرسلت بها إليَّ فقال ﷺ: **أطعميه الأسارى**»[4].

---

(١) أي منسوج بحبال من ليف.

(٢) أي وسادة من جلد.

(٣) طبقات ابن سعد ١/ ٤٦٦.

(٤) سنن أبي داود رقم ٣٢٣٢، البيوع ٣/ ٦٢٧.

وفي هذا الحديث نجد حماية الله تعالى نبيه ﷺ من الشبهات حيث أعلمه بأن تلك الشاة أُخذت بغير إذن مالكها، كما نجد مثالا لورعه العظيم حيث رفع يده ولم يستمر في الأكل من تلك الشاة.

كما نجد مثالا للحزم في تطبيق الشريعة وأن النبي ﷺ لم يكن يداري أحدًا في ذلك.

ونجد في هذا الخبر لونًا من ألوان التربية النبوية حيث أمسك عن الأكل حالاً، وأمر المرأة بأن تطعم ذلك الطعام أسرى المشركين وفي ذلك أمر للصحابة بعدم الأكل منه، وهذه الحادثة وأمثالها تبقَى ماثلة في أذهانهم فيحميهم تذكُّرُها من مقارفة الشبهات.

ونجد مع ذلك عظمة التشريع الإسلامي في حماية حقوق الناس، فإنه بعد هذا لن يتجرأ أحد على الأخذ من أموال الناس بغير إذنهم وسيتوقف الطرف الآخر عن الاستفادة حتى يتأكد له أن المال مأذون به من مالكه.

وأخرج البلاذري من خبر محمد بن شهاب الزهري أن النبي ﷺ بعث عليّاً إلى بني جذيمة الذين قتل خالد بن الوليد منهم من قتل، بِدُرج فيه ذهب فأعطاهم ديات من قتل منهم وما أصيب من أموالهم، وفضُل في الدرج شيء من الذهب فقال لهم علي: هل لكم في أن أعطيكم هذا الفضل على أن تبرئوا رسول الله ﷺ مما أصيب لكم مما لا تعلمونه ولا يعلمه رسول الله ﷺ؟ قالوا: نعم، فأعطاهم ذلك الفضل، فلما بلغ النبي ﷺ ما فعل قال: «**لهذا أحب إلي من حمْر النعم**»[1].

وهكذا كانت فرحة رسول الله ﷺ عظيمة حينما أبرأ علي رضي الله عنه ذمته بذلك المال، حيث ذكر بأن محبته لذلك أعظم من محبته لحمْر النعم، وحمر النعم هي الإبل وهي أنفس الأموال عند العرب، وهذا مثال على ورع النبي ﷺ واهتمامه ببراءة الذمة من مسؤولية الناس.

كما أن هذا الخبر يدل على علم علي رضي الله عنه العميق واهتمامه بالورع.

(١) أنساب الأشراف ٢/ ٣٥٤.

من مواقف أبي بكر الصديق رضي الله عنه:

اشتهر الصحابة رضي الله عنهم بالورع والزهد، ولقد سبقت لنا أمثلة من ورع وزهد أبي بكر وعمر وغيرهما من الصحابة رضي الله عنهم في «السيرة النبوية» و«تاريخ الخلفاء الراشدين».

ومن أخبار أبي بكر الصدِّيق في ذلك ما رواه الإمام أحمد بإسناده عن قيس بن أبي حازم قال: كان لأبي بكر غلام فكان إذا جاء بغلَّته لم يأكل من غلته حتى يسأله، فإن كان شيئًا مما يحب أكل، وإن كان شيئًا يكره لم يأكل، قال: فنسي ليلةً فأكل ولم يسأله، ثم سأله فأخبره أنه من شيء كرهه، فأدخل يده فتقيأ حتى لم يترك شيئًا[1].

وفي رواية أنه رضي الله عنه لم يستطع إخراج تلك اللقمة، فقال له من حوله: إنها لا تخرج إلا بالماء، فشرب فاستخرجها، فقيل له: رحمك الله كلُّ هذا من أجل هذه اللقمة، فقال: لو لم تخرج إلا مع نفسي لأخرجتها، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كل جسم نبت من حرام فالنار أولى به**».

فهذا مثال على ورع أبي بكر رضي الله عنه حيث كان يتحرى الحلال في مطعمه ومشربه، ويجتنب الشبهات، وهذه الخصلة تدل على بلوغه درجات عُليا في التقوى، ولا يَخْفَى أهمية طيب المطعم والمشرب والملبس في الدين، وعلاقة ذلك بإجابة الدعاء، كما في حديث الأشعث الأغبر وفيه «**يمدُّ يديه إلى السماء: يا رب يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغُذِيَ بالحرام، فَأَنَّى يُستجاب لذلك**»[2].

ومن ذلك ما أخرجه الإمام أحمد من حديث عبد الله بن أبي مليكة قال قالت عائشة رضي الله عنها: لما حُضِر أبي رحمه الله دعاني فقال: يا بُنَيَّة إني كنت أعطيتك تمر خيبر ولم تكوني أخذتيها وإني أحب أن ترديها علي، قالت: فبكيت، ثم قلت: غفر الله لك يا أَبَةِ والله لو كانت خيبر ذهبا جميعا لرددتها عليك،

---

(١) الزهد/ ١١٠.

(٢) صحيح مسلم، الزكاة، رقم ١٠١٥ (٢/٧٠٣).

فقال: هي على كتاب الله عز وجل، يا بُنَيَّة إني كنت أتْجَر قريش[1] وأكثرهم مالا، فلما شَغَلَتْني الإمارة رأيت أن أصيب من المال بقدر ما شغلني، يا بُنَيَّة هذه العباءة القطوانية وحِلابٌ[2] وعبدٌ، فإذا مت فأسرعي به إلى ابن الخطاب، يا بُنَيَّة ثيابي هذه فكفنوني بها، قالت: فبكيت وقلت: يا أبة نحن [في غِنًى] من ذلك، فقال: غفر الله لك وهل ذلك إلا للمَهَل؟[3] وفي رواية أنه قال: الحيُّ أولى بالجديد من الميت.

قالت: فلما مات بعثت بذلك إلى ابن الخطاب فقال: يرحم الله أباك لقد أحبَّ ألا يترك لقائل مقالاً[4].

فهذا مثل آخر من ورع أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فقد أراد أن يخرج من الدنيا وهو نَقِيٌّ خالص من الكدر أو ما يشبهه، وقد كان يأخذ من بيت مال المسلمين ما يكفيه للحد الضروري من المعيشة مقابل تفرغه لأمور المسلمين وترك التجارة، فلما حضرتْه الوفاة رأى أن ذمته لا تبرأ إلا بردِّ ما كان عنده من ذلك وإن كان يسيرا لتوقف عمله لصالح المسلمين بالوفاة، وذلك مبالغة منه رضي الله عنه في براءة الذمة.

ومن ذلك ما أخرجه الإمام أحمد من حديث ربيعة بن كعب الأسلمي قال: كنت أخدم النبي ﷺ... وذكر حديثًا ثم قال: إن رسول الله ﷺ، أعطاني بعد ذلك أرضا وأعطى أبا بكر أرضًا وجاءت الدنيا فاختلفنا في عذق نخلة، فقلت أنا: هي في حدِّي، وقال أبو بكر، هي في حدي، فكان بيني وبين أبي بكر كلام، فقال أبو بكر كلمة كرهها وندم فقال لي: يا ربيعة رد عليها مثلها حتى تكون قصاصًا، قال: قلت: لا أفعل، فقال أبو بكر: لتقولن أو لأستعدين عليك رسول الله ﷺ، فقلت: ما أنا بفاعل، قال: ورفض الأرض[5] وانطلق أبو بكر رضي الله عنه إلى النبي ﷺ، وانطلقت أتلوه، فجاء ناس من أسلم فقالوا لي: رحم الله أبا بكر، في أي شيء يستعدي عليك رسول الله ﷺ وهو قال لك ما قال، فقلت:

---

(١) لعلها: من أتجر قريش.
(٢) أي ناقة حلوب.
(٣) أي لمدة قصيرة ثم يبلى.
(٤) الزهد / ١١١.
(٥) أي فارق أبو بكر الأرض.

أتدرون من هذا؟ هذا أبو بكر الصديق، هذا ثاني اثنين، وهذا ذو شيبة المسلمين، إياكم لا يلتفت فيراكم تنصروني عليه فيغضب، فيأتي رسول الله ﷺ فيغضب لغضبه فيغضب الله عز وجل لغضبهما فيهلك ربيعة، قالوا: ما تأمرنا؟ قال: ارجعوا، قال: فانطلق أبو بكر رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ فتبعته وحدي حتى أتى النبي ﷺ فحدثه الحديث كما كان، فرفع إلي رأسه فقال: **يا ربيعة مالك وللصديق؟!** قلت: يا رسول الله كان كذا كان كذا، قال لي كلمة كرهها فقال: قل لي كما قلت حتى يكون قصاصا فأبيت، فقال رسول الله ﷺ: **أجل فلا ترد عليه، ولكن قل: غفر الله لك يا أبا بكر**، فقلت: غفر الله لك يا أبا بكر.

قال: قال الحسن [البصري]: فولَّى أبو بكر رضي الله عنه وهو يبكي[1].

فهذا الخبر يدل على ورع أبى بكر الصديق رضي الله عنه وخشيته من الله تعالى، فحينما قال -في ساعة غضب- تلك الكلمة لربيعة بن كعب رضي الله عنه ندم على ذلك، وخشى أن يحاسب عليها يوم القيامة، فأهمه ذلك الأمر وطلب من ربيعة أن يرد عليه بمثلها ليطهر صحيفته منها، فلما أبى اشتكاه إلى النبي ﷺ ليضمن النجاة من مغبة تلك الكلمة، وهذا أمر عجيب فإن أبا بكر قد نسى أرضه ونسي قضية الخلاف، وشغل باله أمر تلك الكلمة لأن حقوق العباد لابد فيها من عفو صاحب الحق.

وقد استنكر قوم ربيعة أن يذهب أبو بكر يشتكي إلى رسول الله ﷺ وهو الذي قال ما قال، ولم يعلموا ما علمه أبو بكر من لزوم إنهاء قضايا الخصومات، وإزالة ما قد يعلق في القلوب من الموجدة في الدنيا قبل أن يكتب ذلك في الصحف ويترتب عليه الحساب يوم القيامة.

وبالرغم مما ظهر من رضى ربيعة وتوجيه النبي ﷺ إلى عدم الرد على أبي بكر فإن أبا بكر قد بكى من خشية الله تعالى، وهذا دليل على قوة إيمانه ورسوخ يقينه.

وأخيراً موقف يذكر لربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه، حيث قام بإجلال أبي بكر رضي الله عنه، وأبى أن يرد عليه بالمثل، وهذا من تقدير أهل الفضل والتقدم والمعرفة بحقهم، وهو دليل على قوة الدين ورجاحة العقل.

(١) مسند أحمد ٤/ ٥٨ -٥٩.

ومن ذلك ما أخرجه محمد بن سعد من حديث عائشة وعبد الله بن عمر رضي الله عنهم وغيرهم أنهم قالوا: بويع أبو بكر الصديق رضي الله عنه يوم قبض رسول الله ﷺ يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول سنة إحدى عشرة من مهاجر رسول الله ﷺ، وكان منزله بالسُّنح عند زوجته حبيبة بنت خارجة بن زيد بن أبي زهير من بني الحارث بن الخزرج، وكان قد حجَّر عليه حجرة من شعر فما زاد على ذلك حتى تحول إلى منزله بالمدينة، فأقام هناك بالسنح بعدما بويع له ستة أشهر يغدو على رجليه إلى المدينة، وربما ركب على فرس له، وعليه إزار ورداء ممشق، فيوافي المدينة فيصلي الصلوات بالناس، فإذا صلى العشاء رجع إلى أهله بالسنح، فكان إذا حضر صلى بالناس، وإذا لم يحضر صلى عمر ابن الخطاب رضي الله عنه.

قالوا: وكان يقيم يوم الجمعة في صدر النهار بالسنح يصبغ رأسه ولحيته، ثم يروح لقدر الجمعة فيجمع بالناس، وكان رجلا تاجرًا، فكان يغدو كل يوم إلى السوق فيبيع ويبتاع، وكانت له قطعة غنم تروح عليه، وربما خرج هو نفسه فيها، وربما كُفِيها فرُعيت له، وكان يحلب للحي أغنامهم، فلما بويع له بالخلافة قالت جارية من الحي: الآن لا تُحلب لنا منائح دارنا، فسمعها أبو بكر فقال: بلى لعمري لأحلبنها لكم، وإني لأرجو أن لا يغيرني ما دخلت فيه عن خلق كنت عليه، فكان يحلب لهم فربما قال للجارية من الحي: يا جارية أتحبين أن أرغي لك أو أصرح[1]؟ فربما قالت: أرغ، وربما قالت: صرح، فأي ذلك قالت فعل.

قالوا: فمكث كذلك بالسنح ستة أشهر، ثم نزل إلى المدينة فأقام بها، ونظر في أمره فقال: لا والله ما يُصلح أمر الناس التجارة، وما يصلح لهم إلا التفرغ والنظر في شأنهم، وما بُدٌّ لعيالي مما يصلحهم، فترك التجارة واستنفق من مال المسلمين ما يصلحه ويصلح عياله يومًا بيوم، ويحج ويعتمر، وكان الذي فرضوا له كل سنة ستة آلاف درهم[2]، فلما حضرته الوفاة قال: ردوا ما عندنا من مال المسلمين، فإني لا أصيب من هذا المال شيئًا، وإنَّ أرْضي التي بمكان كذا وكذا للمسلمين بما

(١) أي أجعل للحليب رغوة أو أجعله خالصًا منها.

(٢) لكن الظاهر أنه لم يقبل ذلك لأنه المشهور أنه كان ينفق درهمين كل يوم.

أصبت من أموالهم، فدُفِع ذلك إلى عمر رضي الله عنه ولَقُوح[1] وعبد صَيْقل[2] وقطيفة ما تساوي خمسة دراهم، فقال عمر: لقد أتعب من بعده[3].

ففي هذا الخبر بيان شيء من أخلاق أبي بكر الصديق رضي الله عنه وزهده وورعه، فمن ذلك أنه كان يحلب لأهل حيِّه أغنامهم، وهذا تواضع كبير من رجل كبير.. كبير في سنه، وكبير في منزلته وجاهه، حيث كان خليفة المسلمين، وكان حريصًا على أن لا تغير الخلافة شيئًا من معاملته للناس وإن كان ذلك سيأخذ عليه وقتًا هو بحاجة إليه، كما أن هذا العمل يدلنا على مقدار تقدير الصحابة رضي الله عنهم لأعمال البر والإحسان وإن كلَّفتهم الجهد والوقت.

ومن ذلك أنه اكتفى بذلك المبلغ البسيط الذي كان يأخذه من بيت المال مقابل تفرغه للولاية، وهذا مثل على زهده في الحياة الدنيا واكتفائه منها بما يبلغه للحياة الآخرة.

ومن ذلك تورعه عما بقي عنده من المال العام حينما حضرته الوفاة، وهو مبلغ زهيد لا يلفت النظر، ولكن لدقة إحساسه تنبَّه له، وكذلك ما قام به من الوصية بتعويض بيت مال المسلمين بأرضه المذكورة مقابل ما أنفق على نفسه وعياله منه، وهكذا رغب في أن يكون عمله في الولاية تطوعًا؛ تعففًا منه وورعًا رضي الله عنه، ولقد أثنى عليه عمر رضي الله عنه ببيان أن العمل الذي قام به لا يستطيع أحد أن يقوم به إلا بصعوبة بالغة.

من أخبار عمر رضي الله عنه:

لقد كانت لأمير المؤمنين عمر رضي الله عنه جهود في حماية المسلمين من الدخول في حياة الترف والنعيم وما يترتب على ذلك من نتائج سيئة في الدنيا والآخرة، ومن ذلك ما أخرجه الإمام الطبري من طريق سيف بن عمر عن شيوخه قالوا: ولما نزل أهل الكوفة الكوفة واستقرت بأهل البصرة الدار عرف القوم أنفسهم وثاب إليهم ما كانوا فقدوا، ثم إن أهل الكوفة استأذنوا فى بنيان القصب واستأذنه

(١) أي ناقة.
(٢) أي يصقل السيوف ويحدُّها.
(٣) طبقات ابن سعد ٣/ ١٨٥- ١٨٧.

فيـه أهل البصـرة، فقال عـمر: العـسكر أجَدُّ لحربكم وأذكـى لكم وما أحب أن أخالفكم، ومـا القصب؟ قـالوا: العِكْرش إذا رَوِي قصَّب فـصار قصـبًا[1] قال: فشأنكم فابْتَنَى أهل المصرين بالقصب.

ثم إن الحريق وقع بالـكوفة والبصـرة وكان أشدهمـا حريقًـا الكوفة، فاحـترق ثمانون عريشًا، ولم يبق فيها قصبة في شوال، فمازال الناس يذكرون ذلك، فبعث سعد منهم نفرًا إلى عـمر يستأذنون في البناء باللَّبِن فقدموا عليـه بالخبر عن الحريق وما بلغ منهم -وكانوا لا يدعـون شيئًا ولا يأتونه إلا وآمَروه فـيه [يعني شاوروه]- فقـال: افعلوا ولا يزيدن أحـدكم على ثلاثة أبيات [يعني غـرف] ولا تطاولوا في البنيان، والزموا السنة تلزمكم الدولة، فرجع القوم إلى الكوفة بذلك، وكتب عمر إلى عتبة وأهل البصرة بمثل ذلك.

قال: وعهـد عمر إلى الوفد وتقـدم إلى الناس أن لا يرفعوا بنيانًـا فوق القدر، قالوا: وما القدر؟ قال: ما لا يقربكم من السَّرف، ولا يخرجكم من القصد[2].

هذا ومن استعراض هذا الخبر يتبين لنا أن أولئك القوم كانوا زاهدين فى مظاهر الدنيا، فـهم يريدون من المساكن مـا يكنِّهم من الشمس والمطر والبـرد والحر، ولا يهمهم التمـتع بالقصور والبيوت العالية، ولذلك اختـاروا التعريش بالقصب الذي كان أيسر الأشياء لديهم حتى اضطروا إلى البناء بالطين، ومع ذلك نجد عمر رضي الله عنه يضع لهم الاحتياطات اللازمة لمنع التنافس والتطاول في البنيان.

وهذا إدراك بعيد المدى لما يُتوقع أن تكون عليه الأمة من الغنى بعد الفتوح، فهو يحاول في هذا التـوجيه وأمثاله أن يـحدَّ من اندفاع الأمة نحـو الإسراف والترف، وأن يحملها على حياة القصد والاعتدال.

وإن هذا التوجيه له أصل من سنة رسول الله ﷺ، وذلك في قوله: «**النفقة كلها في سـبيل الله إلا البناء فـلا خيـر فيـه**». أخرجـه الإمام الترمـذي من طريقين وقال: حديث صحيح[3].

---

(١) العكرش نبات شوكي ينبت من نزوز الأرض. (٢) تاريخ الطبري ٤/٤٣.

(٢) سنن الترمذي، أبواب صفة القيامة، باب ٤٠ رقم ٢٤٨٢ و٢٤٨٣.

ومن كلام عمر رضي الله عنه السابق يتبين لنا أن المقصود بالبناء الذي لا خير فيه ما قرب من الإسراف وأخرج من القصد والاعتدال.

وإن من أعظم مظاهر الإسراف التطاول في البنيان، وذلك لأن البنيان يستهلك من الإنسان – مالاً كثيرًا ووقتًا طويلاً، فإذا انصرف له الإنسان بالاهتمام استحوذ على تفكيره حتى يبقى هو الهم الأكبر عند بعض الناس.

ومن أجل إقامة قصر يتفوق فيه الإنسان على من دونه ويحاذي فيه من يرى أنهم في طبقته في الغنى أو يطاول من هم أعلى منه في ذلك. من أجل ذلك يضع ثروته في تشييد القصر الذي سيسكنه، وقد يستدين من أجل أن يحقق في نفسه هذه الرغبة، فيبقى عُمْرًا من عمره ولا مال له إلا هذا القصر الذي يكمل فيه ويجمِّل، غير ملتفت إلى ما يكون قد قصَّر فيه من النفقة الواجبة ولا إلى ما أهمله من عبادة الزكاة التي هي الركن الثالث من أركان الإسلام والتي لا يستطيع أن يجمع نصابها لإنفاقه ماله في التطاول في البنيان.

ولئن كان ما يخشاه عمر رضي الله عنه من الانفتاح الدنيوي في عهده ويحاول أن يحجز الأمة عن التوغل فيه في ناحية البنيان لا يعدو أن يكون بناءً محدودًا ينتهي إعداده في أمد قصير فإن إعداد البناء في عصرنا هذا قد يستغرق سنوات من العمر، ثم قد يعقبه في أحوال كثيرة ديون متراكمة يظل صاحبها يجمع فضول أمواله لسدادها، وقد يمر عليه سنون من عمره وهو لا يعرف عن الزكاة شيئًا مع أنه يُعدُّ من المتوسطين في الغنى الذين هم غالبية الناس، لأن القصور التي تعارف أكثر الناس عليها تتطلب أنواعًا عالية من الأثاث والكماليات التي ترهق طالبها وتجعله يظل يلاحق أنفاسه سنوات عَلَّه يصل إلى ما تصبو إليه نفسه من مشاكلة الناس في مظاهر الحياة الدنيا.

وفي خِضَمِّ هذا التنافس تضيع أحيانًا بعض مطالب الإسلام الحيوية من العبادات المالية التي على رأسها الزكاة والإنفاق على المجاهدين في سبيل الله تعالى، كما أنه قد ينشغل فكر الإنسان أحيانًا عن الأمور المهمة كالصلاة وطلب العلم.

وقول عمر: «ما لايقربكم من السرف ولا يخرجكم من القصد» يعني أن حدود البناء المشروع ما لا يقرب صاحبه من الإسراف وهو مجاوزة الحد المشروع ولا يخرجه من حدود الاعتدال، وقد ترك عمر رضي الله عنه تحديد ذلك لهم، لأن لكل بلد عرفًا خاصًا به، يتحدد به الإسراف والاعتدال والتقتير، فالقصد إذًا يحدده العرف السائد في البلد لدى أوساط الناس من أهل الاستقامة والالتزام بالاعتدال في الأمور الدنيوية.

فإذا شرع المسلم في بناء بيت فلْيلاحظ هذا العرف العام، ولا ينبغي له أن يتعرض لنقد أهل الصلاح والتقوى، خاصة إذا كان من أهل العلم الديني، حيث يُفترض في هؤلاء أن يكونوا قدوة صالحة لمجتمعهم، وأن يكونوا هم الذين يحددون العرف الصالح الذي يسير عليه أفراد المجتمع الإسلامي.

وقوله «والزموا السنة تلزمكم الدولة» يعني أن الالتزام بالطريق المستقيم الذي سار عليه رسول الله ﷺ سبب في الإدالة على الناس والتمكين في الأرض، كما جاء في قول الله تعالى ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾ [النور: ٥٥].

ولقد كان هذا التزهيد من عمر رضي الله عنه في مظاهر الدنيا، مع أن المسلمين آنذاك كانوا يتنافسون في هذا الزهد، فكيف بمن جاؤوا بعدهم على مرِّ العصور ممن يتنافسون على مظاهر الدنيا؟

هذا ولقد كان أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه حريصًا على علاج أمر الانفتاح المادي الذي كان في عصره حيث فتحت بلاد الفرس وأجزاء من بلاد الروم، فأفاء الله تعالى على المسلمين من غنائم الفتوح وفيء البلاد وخراجها أموالا عظيمة، ولقد خطب أمير المؤمنين غمر خطبة بليغة شخص فيها ذلك الواقع وأرشد المسلمين إلى السلوك الأمثل.

وإن واقع المسلمين اليوم في بعض بلادهم يشبه ما كان في عهد الصحابة رضي الله عنهم إبَّان الفتوح، من ناحية انفتاح خزائن الأرض وتوافر الأموال بشكل لم تتوقعه الأمة ولم تترقب حصوله بذلك المستوى الكبير، وإن خطبة أمير المؤمنين عمر التي سَيَتمُّ عرضها تظل جديدة نابضة بالحياة والعطاء، حيث تعالج واقعًا نعاصره، وإذا كان الصحابة رضي الله عنهم ومن عاصرهم من التابعين بحاجة إلى هذه الوصايا النافعة فإننا في هذا العصر أحوج إلى ذلك بكثير، لأن مستوى الإيمان أقل، ومستوى البصيرة أخف.

ولقد كان عمر رضي الله عنه يخشى على الأمة آنذاك من الغفلة عن شكر المنعم جل وعلا، فقام مذكِّرا بالله تعالى وما يجب له من الشكر والتوحيد الخالص، حيث قال: «إن الله سبحانه وبحمده قد استوجب عليكم الشكر، واتخذ عليكم الحُجَج فيما آتاكم من كرامة الآخرة والدنيا، عن غير مسألة منكم له ولا رغبة منكم فيه إليه».

فذكَّرهم بأن تلك النعم العظيمة التي أفاءها الله تعالى عليهم من الفتوح لم يكونوا يتوقعونها على ذلك النحو العظيم، ثم ذكَّرهم بالهدف العالي الذي خلقهم الله جل وعلا من أجله، وما سخرَ لهم من النعم حيث قال: «فخلقكم تبارك وتعالى ولم تكونوا شيئًا لنفسه وعبادته، وكان قادرا على أن يجعلكم لأهون خلقه عليه، فجعل لكم عامة خلقه، ولم يجعلكم لشيء غيره، وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض، وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة، وحملكم في البر والبحر، ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون، ثم جعل لكم سمعًا وبصرا».

فقد ذكر الميزة العظمى للإنسان حيث شرفه الله تعالى على سائر المخلوقات في هذه الأرض، فسخر كل ما فيها له، ولم يسخرة لشيء من المخلوقات الأخرى، وبيَّن الهدف الأعلى من خلق الإنسان وهو القيام بعبادة الله تعالى وحده، مع تذكُّر شمول العبادة لكل عمل مشروع أراد به فاعله وجه الله تعالى، ومن ذلك عمارة الأرض بطاعته سبحانه.

ثم ذكر النعم التي خص الله بها هذه الأمة حيث قال: «ومن نعم الله تعالى عليكم نعَمٌ عمَّ بها بني آدم -يعني كالتي مر ذكرها- ومنها نعم اختص بها أهل

دينكم، ثم صارت تلك النعم خواصها وعوامها في دولتكم وزمانكم وطبقتكم، وليس من تلك النعم نعمة وصلت إلى امرئ خاصة إلا لو قُسم ما وصل إليه منها بين الناس كلهم أتعبهم شكرها وَفَدحَهم حقها، إلا بعون الله مع الإيمان بالله ورسوله».

ومن النعم التي اختص الله بها أهل هذا الدين كون السيادة في العالم لهذه الأمة ولم تكن قبل ذلك لأهل دين من الأديان، وأصبح ما يوجد في بلاد العالم من النعم الخاصة والعامة يجتمع في دولة الإسلام لأنها قد هيمنت على دول العالم.

وفي قوله «إلا بعون من الله مع الإيمان بالله ورسوله» بيان للدوافع القوية التي تدفع إلى شكر المنعم جل وعلا، من الإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ، وما يتفرع عن ذلك من العمل الصالح، ثم بالاستعانة بالله جل وعلا مع تعظيمه وإجلاله وصدق النية.

ثم يبين مهمة هذه الأمة في الأرض بعدما أفاء الله عليها من الفتح والتمكين حيث يقول: «فأنتم مستخلَفون في الأرض قاهرون لأهلها قد نصر الله دينكم، فلم تصبح أمة مخالفةَ لدينكم إلا أمتان: أمة مستعبَدة للإسلام وأهله يجزُون لكم[1] يُستصفَون معايشهم وكدائحهم ورشح جباههم، عليهم المؤونة ولكم المنفعة، وأمة تنتظر وقائع الله وسطواته في كل يوم وليلة، قد ملأ الله قلوبهم رعبا، فليس لهم معقل يلجئون إليه، ولا مهرب يتقون به، قد دهمتهم جنود الله عز وجل ونزلت بساحتهم».

فهذه الأمة الإسلامية قد اختارها الله تعالى لتكون فيها الرسالة الخاتمة، ولتتولَّى قيادة البشرية، فمكَّن لها واستخلفها في الأرض وأذل لها أمة الفرس التي كانت تسيطر على المشرق وأزال دولتهم من الوجود، وأصبحت بلادهم جزءًا من دولة الإسلام، كما أذل الله تعالى لها أمة الروم التي تسيطر على المغرب، حيث اكتسحت جنود الإسلام بلاد الشام ومصر التي كانت تحت سيطرتهم، ثم غزوهم في عُقر دارهم.

(١) يعني يدفعون لكم الجزية.

ثم يُعَدِّد نعم الله تعالى على هذه الأمة حيث يقول: «مع رَفَاغَة العيش -يعني سعته- واستفاضة المال وتتابع البعوث، وسد الثغور بإذن الله تعالى، مع العافية الجليلة العامة التي لم تكن هذه الأمة على أحسن منها مذ كان الإسلام، والله المحمود، مع الفتوح العظام في كل بلد، فما عسى أن يبلغ مع هذا شكرُ الشاكرين وذكر الذاكرين واجتهاد المجتهدين، مع هذه النعم التي لا يُحصَى عددها ولا يُقْدَر قدرها، ولا يُستطاع أداء حقها إلا بعون الله ورحمته ولطفه، فنسأل الله الذي لا إله إلا هو الذي أبلانا هذا أن يرزقنا العمل بطاعته والمسارعة إلى مرضاته».

وعمر رضي الله عنه في هذا الكلام يحث على شكر هذه النعم ويبين أنه مع شكر الشاكرين وذكر الذاكرين واجتهاد المجتهدين بالعبادة فلن يستطيع المسلمون بلوغ شكرها ولا أداء حقها إلا إذا شملهم الله تعالى بعونه ورحمته ولطفه.

وهذا يعدُّ فهمًا وتطبيقًا للآية الكريمة التي شرع الله تعالى لنا تكرارها في كل صلاة ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ [الفاتحة: ٥] فإذا لم يكن هناك عون من الله تعالى للعبد فإنه لا يصل إلى مقام الشكر وإن اجتهد في العبادة، وما أحسن قول الشاعر:

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأول ما يجني عليه اجتهاده

وإذا لم يشمل الله تعالى عباده برحمته ولطفه فإنهم هالكون كما قال رسول الله ﷺ: «**لا يدخل أحدكم الجنة بعمله**، قالوا: ولا أنت يا رسول الله! قال: **ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل**، ووضع يده على رأسه»[1].

ثم ختم خطبته بتذكير المؤمنين بنعمة الله تعالى عليهم حيث جمع لهم بين خيري الدنيا والآخرة، والحال أن الظفر بخير الآخرة وحده يكفي لشعور المؤمن بنعمة ربه العظمى عليه، فكيف إذا جمع معه خير الدنيا؟

إلى أن قال: فأذكِّركم الله الحائل بين قلوبكم إلا ما عرفتم حق الله فعملتم به، وقسرتم أنفسكم على طاعته، وجمعتم مع السرور بالنعم خوفًا لها ولانتقَالها ووجلاً منها ومن تحويلها، فإنه لا شيء أسلب للنعمة من كُفرانها، وإن الشكر أَمْنٌ

(١) مسند أحمد ٢/ ٢٥٦.

للغـيَـر ونماء للنعـمة، واسـتـجـلاب للزيادة، هذا لله عليَّ من أمـركم ونهـيكم واجب[1].

ولقد كان لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه مواقف كثيرة في الزهد والورع نذكر نماذج منها، فمن ذلك ما أخرجـه الإمام أحمد من حديث المسور بن مخرمة رضي الله عنه قال: أُتِيَ عمر بمال فوُضع في المسـجد، فخرج إليه يتصفَّحه وينظر إليه فـهملت عيناه، فـقال عبـد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: يا أمـير المؤمنين ما يبكـيك فوالله إن هذا لمن مواطن الشكر، فـقال عمـر: إن هذا والله ما أُعْطِيَهُ قوم قط إلا أُلقِيَ بينهم العداوة والبغضاء[2].

فهذا يعدُّ من فـقه عمر رضي الله عنه، فقد أشـفق على المسلمين من أن يفتتنوا بالدنيا، فتكون سـببًا في تباعد قلوبهم وإثارة النزاع بينـهم، ولقد بلغ به التأثر من ذلك إلى حد البكاء، وقد اختلفتْ نظرة الصـحابيين الجليلين رضي الله عنهما إلى ذلك المال، فنظر إليه عمر على أنه سبب من أسباب الفتنة، ونظر إليه عبد الرحمن ابن عوف على أنه نعـمة من الله تعالى، وكلا النظرتين تَصْـدقان على ذلك المال، وكل واحد من هذين الصـحابيين يدرك النظرتين كلتـيهمـا، لكن في تلك اللحظة غَلَب على فكر عمر الإشـفاق على الأمة من الخطر الذي هي مُقْدمـة عليه فبكى، وغلب على عبد الرحمن بن عوف ملاحظة شكر النعمة فأظهر الفرح.

ومن ذلك ما أخرجه الإمام أحمد رحـمه الله تعالى من حديث يحيى بن جَعْدة قال: قـال عمـر رضي الله عنه: لولا ثلاث لأحـببت أن أكـون قد لقيـت الله عز وجل: لولا أن أضع جبهـتي لله عز وجل، وأجلسَ في مجالس يُنتقَى فـيها طيب الكلام كما يُنتقى فيها طيب التمر، وأن أسير في سبيل الله عز وجل[3].

ففي هذا الخبر حدد أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه أنواعًا من الأعمال الصالحة يحب البقـاء في الحياة من أجلهـا، فالمؤمن الحق يحب لقـاء الله تعالى، لأن هذه الحياة الدنيا ليست دار قـراره وإنما دار قراره الحياة الآخرة، فهو يشتـاق إلى نعيمها المقيم، ولا يحب الـبقاء في الدنيـا إلا للعمل الصالح الذي يـرفع من درجاته في

(١) تاريخ الطبري ٤/٢١٧ (٢) الزهد / ١١٥.
(٣) الزهد / ١١٧.

حياته الباقية، وقد أشار عمر إلى ثلاثة من أجلِّ الأعمال الصالحة، وهي الصلاة، ومجالس العلم والذكر، والجهاد في سبيل الله تعالى، وقد كان رضي الله عنه من المكثرين من صلاة النفل، وممن تَعمر بهم مجالس العلم والذكر، أما الجهاد فكان هو القائد الأعلى للجيوش الإسلامية في بلاد العالم، وكان الجهاد شُغْلَه الشاغل الذي أهمه وغلب على تفكيره، أما في داخل المجتمع الإسلامي فكان إمام المصلحين الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر.

وهكذا تكون الأهداف السامية، فكيف بمن يرغبون في البقاء في الحياة الدنيا من أجل أموال يُثَمِّرونها، أو قصور يعمرونها، أو شهوات يغذُّونها؟! أولئك هم الخاسرون الذين قَصُرت أنظارهم، وتدنَّت أهدافهم، ففضلوا الأدنى على الأعلى والفاني على الباقي.

ومن ذلك ما أخرجه الإمام أحمد من حديث إسماعيل بن محمد بن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قدم على عمر رضي الله عنه مسك وعنبر من البحرين فقال عمر: والله لوددت أني وجدت امرأة حسنة الوزن تَزِنُ لي هذا الطيب حتى أقسمه بين المسلمين، فقالت له امرأته عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل: أنا جيدة الوزن فهلمَّ أزِنْ لك، قال: لا، قالت: لِمَ؟ قال: إني أخشى أن تأخذيه فتجعليه هكذا -وأدخل أصابعه في صدغيه- وتمسحي به عنقك، فأصيب فضلا على المسلمين[1].

فهذا مثل من ورع أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه واحتياطه البالغ لأمر دينه، فقد أبى على امرأته أن تتولى قسمة ذلك الطيب حتى لا تمسح عنقها منه فيكون قد أصاب شيئًا من مال المسلمين، وهذه الدِّقة المتناهية في ملاحظة الاحتمالات التي قد توقع في المحرمات أو الشبهات نورٌ يهبه الله تعالى لأوليائه السابقين إلى الخيرات، وفرقان يفرقون به بين الحلال والحرام والحق والباطل، بينما تفوت هذه الملاحظات على الذين لم يشغلوا تفكيرهم بحماية أنفسهم من المخالفات.

ومن ذلك ما أخرجه الإمام أحمد من حديث أبي عثمان النهدي قال: لما قدم عتبة[2] أذربيجان أُتِيَ بالخبيص فأمر بسفطين عظيمين[3] فصُنِعا له من الخبيص، ثم

(١) الزهد / ١١٩.
(٢) هو عتبة بن فرقد.
(٣) السَّفَط وعاء كالقفَّة والخبيص نوع من الحلوى.

حمل على بعير فسرَّح بهما إلى عمر رضي الله عنه، فلما قدم على عمر ذاقه فوجده شيئًا حلوا، فقال: كل المسلمين يشبع من هذا في رحله؟ قال: لا، قال: فلا حاجة لنا فيه فأطبَقهما وردهما عليه، ثم كتب إليه: أما بعد فليس من كدِّ أبيك ولا من كد أمك فأشبع المسلمين مما تشبع منه في رحلك[1].

فهذه نظرة جليلة من أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه في تأكيد مبدأ المساواة بين المسلمين، فالمطلوب في حياة المسلمين هو الزهد والتخشن في المعيشة الذي أوصى به عمر عتبة بن فرقد، ولكن لو فُرِض أن الخير عمَّ المسلمين فأصبحوا كلُّهم يحصلون على الأطعمة الشهية فإن تناولها في بعض الأحيان لا ينافي حياة الزهد، ولكن حينما تكون هذه الأطعمة مقصورة على الخاصة فإن ذلك لا يجيز للوالى أن يصرف مال المسلمين لإطعام الخاصة منها، ولذلك قال عمر لعتبة حينما كتب إليه: «فليس من كدِّ أبيك ولا من كد أمك».

وكذلك ما أخرجه الإمام أحمد من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: أقبلْتُ فإذا الناس بين أيديهم القِصَاع، فدعاني عمر فأتيته، فدعا بخبز غليظ وزيت، قال: قلت له: أمَنَعْتني أن آكل من الخبز واللحم ودعوتني على هذا؟ قال: أنا دعوتك على طعامي فأما هذا فطعام المسلمين[2].

فهذا مثل من زهد أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، فإنه لم يُسَوِّ نفسه بعامة المسلمين في الطعام فضلا عن أن يزيد عليهم، وقد كان مقبولا منه أن يأكل من طعام عامة المسلمين، ولكنه لتقشفه وزهده يختار لنفسه طعامًا أقل ثمنًا من ذلك.

وأخرج الإمام أحمد أيضًا من حديث مصعب بن سعد قال: قالت حفصة بنت عمر: يا أمير المؤمنين لو لبسْتَ ثوبا هو ألين من ثوبك وأكلت طعاما هو أطيب من طعامك فقد وسع الله عز وجل من الرزق وأكثر من الخير، قال: إني سأخصمك إلى نفسك، أما تذكرين ما كان رسول الله ﷺ يَلْقَى من شدة العيش؟ فمازال يذكِّرها حتى أبكاها، فقال لها: إنْ قلتُ لك ذاك إني والله لَئِنْ استطعت لأشاركنهما بمثل عيشهما الشديد لعلِّي أدرك معهما عيشهما الرَّخِيّ[3].

---

(١) الزهد / ١٢١. وأخرج نحوه الإمام مسلم - صحيح مسلم، رقم ١٢/٢٠٦٩ كتاب اللباس.
(٢) الزهد / ١٢١.
(٣) الزهد / ١٢٥.

فهذا بُعْـدُ نظر من أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، فـهو يرى أنه كلما زاد في الزهد في الدنيا والتقـشف في المعيشة فإنه حـرِيٌّ بأن ينال مزيدا من العيش الرَّخِيِّ في الجنة، فلهذا قال: «لئن استطعت لأشاركنهمـا بمثل عيشهما الشديد لعلِّي أدرك معهما عيشهما الرخي».

وهو يريد بذلك رسـول الله ﷺ وأبا بكر الصـديق رضي الله عنه. ولقد كـان شديد الالتزام بسنة رسول الله ﷺ، وذلك حينما ذكَّر ابنته أم المؤمنين حفصة رضي الله عنها بمعـيشة رسـول الله ﷺ، وكان ذلك من أسباب عـصمتـه من الدنيا التي انفتحت في عهده بشكل لم يسبق له مثيل في حياة العرب.

ومن أمثلة ما كان يتصف به عمر رضي الله عنه من خشية الله تعالى ما أخرجه الإمام البـخاري من حديث المسـور بن مخرمـة رضي الله عنه قال: لما طُعن عـمر جعل يألم، فقال له ابن عباس -وكأنه يجزِّعه-: يا أمير المؤمنين ولئن كان ذاك لقد صحبتَ رسول الله ﷺ فأحسنت صحبته، ثم فارقته وهو عنك راض، ثم صحبت أبا بكر فأحسنت صحبته، ثم فارقـته وهو عنك راض، ثم صحبت صَحَبَتَهم ولئن فارقتـهم لتفارقنهم وهم عنك راضون، قـال: أمَّا ما ذكرت من صحـبة رسول الله ﷺ ورضاه فإن ذلك مَنٌّ منَ الله تعالى مَنَّ به علي، وأما ما ذكرت من صحبة أبي بكر ورضاه فـإن ذلك مَنٌّ من الله جل ذكره منَّ به علي، وأما مـا ترى من جزعي فهو من أجلك وأجل أصحابك، والله لو أن لي طِلاعَ الأرض ذهبا لافتديت به من عذاب الله عز وجل قبل أن أراه[1].

لقد كان عـمر رضي الله عنه يخاف هذا الخوف العظيـم من عذاب الله تعالى، مع أن النبي ﷺ شهد له بالجنة، ومع مـا كان يبذل من جهد كبـير في إقامة حكم الله والعدل والزهد والجهـاد وغير ذلك من الأعمال الصـالحة، وإن في هذا لدرسًا بليغًا للمسلمين عامة في تذكر عذاب الله الشديد وأهوال يوم القيامة.

ومن ذلك ما أخـرجه الإمام ابن جرير الطبـري من خبر سالم بن عـبد الله بن عمر رحمـه الله ورضي عن أبيه وجده قال: لما ولي عمـر قعد على رزق أبي بكر

(١) صحيح البخاري، فضائل الصحابة، رقم ٣٦٩٢ (٧/ ٤٣).

الذي كانوا فرضوا له، فكان بذلك فاشتدت حاجته، فاجتمع نفر من المهاجرين، منهم عثمان وعلي وطلحة والزبير، رضي الله عنهم، فقال الزبير: لو قلنا لعمر في زيادة نزيدها إياه في رزقه، فقال علي: وددنا قبل ذلك فانطلقوا بنا، فقال عثمان: إنه عمر، فهلموا فلنستبرئ ما عنده من وراء، نأتي حفصة فنسألها ونستكتمها، فدخلوا عليها وأمروها أن تخبر بالخبر عن نفر، ولا تسمى له أحدًا إلا أن يقبل، وخرجوا من عندها فلقيتْ عمر في ذلك فعرفت الغضب في وجهه، وقال: من هؤلاء؟ قالت: لا سبيل إلى علمهم حتى أعلم رأيك، قال: لو علمتُ من هم لَسُؤْتُ وجوههم، أنت بيني وبينهم، أنشُدك الله ما أفضلُ ما اقتنى رسول الله ﷺ في بيتك من الملبس؟ قالت: ثوبين ممشَّقين كان يلبسهما للوفد ويخطب فيهما للجُمَع، قال: فأي الطعام ناله عندك أرفع؟ قالت: خَبْزنا خبزة شعير فصببنا عليها وهي حارة أسفل عكَّة لنا فجعلناها هشَّة دسمة، فأكل منها وتطعَّم منها استطابةً لها، قال: فأي مُبْسَط كان يبسطه عندك كان أوطأ؟ قالت: كساء لنا ثخين كنا نربِّعه في الصيف فنجعله تحتنا، فإذا كان الشتاء بسطنا نصفه وتدثرنا بنصفه، قال: يا حفصة فأبلغيهم عني أن رسول الله ﷺ قدَّر فوضع الفضول مواضعها وتبلَّغ بالتزجية [أي الاكتفاء بالقليل]، وأني قدَّرت، فوالله لأضعنَّ الفضول مواضعها ولأتبلَّغنّ بالتَّزجية، وإنما مثلي ومثلُ صاحَبيَّ كثلاثة سلكوا طريقا، فمضى الأول وقد تزود زادا فبلغ، ثم اتبعه الآخر فسلك طريقه فأفضى إليه، ثم اتبعه الثالث، فإن لزم طريقهما ورضي بزادهما لحق بهما وكان معهما، وإن سلك غير طريقهما لم يجامعهما[1].

فهذا دليل على زهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعفته حيث اكتفى بالقليل من بيت المال مقابل تفرغه لأمور الأمة، وقد كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يوم أن تولى الخلافة وافق على ترك التجارة ولم يقبل بأكثر من درهمين خصصهما له أهل الحل والعقد في اليوم، فاستمر ذلك في عهد عمر، ثم أدرك من جاء ذكرهم في الخبر من أهل الحل والعقد بأن هذا المبلغ لا يكفي بعد أن

(١) تاريخ الطبري ٣/٦١٦ - ٦١٧.

توسعت دولة الإسلام فأرادوا أن يزيدوا في ذلك المخصص، فكان هذا الموقف الأخلاقي الرفيع الذي صدر من عمر رضي الله عنه.

وهذا الموقف يدل على ضخامة الحياة الآخرة في عين عمر وأنه كان يرتب سلوكه في الحياة الدنيا على اعتبار النظر إلى الرفعة في الآخرة، فلذلك اكتفى بالقليل من المعيشة وفرض على نفسه وأسرته نظاما شديدًا في التقشف والزهد، وجعل مَثَله الأعلى في ذلك رسول الله ﷺ وأبا بكر رضي الله عنه، فلزم السير على منهاجهما في حياة الزهد وإن كانت أنماط الحياة قد تغيرت بعض الشيء في عصره، وهذا يدل على غزارة علمه وقوة إيمانه.

ولقد كانت قناعته بهذا المنهج الزهدي كبيرة، حيث ثار غضبه من ذلك العرض الذي عرضته عليه ابنته أم المؤمنين حفصة رضي الله عنها.

ومن أمثلة ورعه ما أخرجه المؤرخ أبو زيد عمر بن شبَّة من خبر الربيع بن زياد الحارثي قال: كنت عند عمر رضي الله عنه فوضع يده على بطنه، فقلت: مالك يا أمير المؤمنين؟ فقال: طعام غليظ أكلته أُذِيْتُ منه، قلت: يا أمير المؤمنين إن أولى الناس بالمطعم اللين والملبس اللين لأنت، قال: فتناول عُصَيَّة فقرع بها رأسي وقال: كنت أحسب فيك خيرا يا ربيع بن زياد، قلت: مالك يا أمير المؤمنين؟ قال: والله ما أردت بها إلا مقاربتي، أتدري ما مثلي ومثلهم؟ قال: ما مثلك ومثلهم؟ قال: مثل قوم أرادوا سفرا فدفعوا نفقاتهم إلى رجل وقالوا: أنفق عليك وعلينا أفَلَه أن يستأثر عليهم؟ قلت: لا، قال: فكذلك[1].

ففي هذا الخبر مثل من عفة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وورعه، حيث ساوى نفسه بأوساط الناس ولم يؤْثر نفسه بشيء من أموال الأمة، والمثل الذي ضربه عمر للوالي والرعية يدل على شدة تحرِّيه في الأمور المالية، فإن الأموال العامة مشاعة بين الأمة، ومهمة الحاكم أن يتولى سياسة إنفاقها وتوزيعها بالعدالة، كما يفعل ذلك من اختاره المسافرون لصرف نفقاتهم في السفر.

ومن ذلك ما أخرجه المؤرخ أبو زيد عمر بن شبة من خبر معدان بن أبي طلحة اليعمري أنه قدم على عمر رضي الله عنه بقطائف وطعام، فأمر به فقسم، ثم

(١) تاريخ المدينة المنورة / ٦٩٧ - ٦٩٨.

قـال: اللهم إنك تعلم أني لم أرزقـهم ولن أسـتـأثر عليـهم إلا أن أضع يدي مع أيديهم في طعامهم، وقد خفت أن تجعله نارًا في بطن عمر.

قال معدان: ثم لم أبرح حـتى رأيته اتخذ صحفة من خالص مـاله فجعلها بينه وبين جفان العامة[1].

فأميـر المؤمنين عمر رضي الله عنه يرغب في أن يأكل مع عـامة المسلمين لما في ذلك من المصالح الاجتـماعية، ولكنه يتحـرج من أن يأكل من طعام صنع من مال المسلمين العام، فيأمـر بإحضار طعام خاص له من خالص مـاله، وهذا مثال رفيع في العفـة، إذ أن الأكل من مال المسلمين العام مـعهم ليس فيـه شبهـة تحريم لأنه منهم ولكنه قد أعف نفسه من ذلك ابتغاء ما عند الله تعالى، ولشدة خوفه من الله تعالى خشي أن يكون ذلك من الشبهات فحمى نفسه منه.

ومن ذلك ما أخرجه المؤرخ أبو زيد عمر بن شبة من خبر عبد الرحمن بن نجيح قال: نزلت على عمر رضي الله عنه، فكانت له ناقة يحلـبها، فانطلق غلامه ذات يوم فسقـاه لبنا أنكره، فقال: ويحك من أين هذا اللبن لك؟ قـال: يا أمير المؤمنين إن الناقة انفلت عليها ولدها فشربها، فحلبت لك ناقة من مال الله، فقال: ويحك تسقـيني نارًا، واستحل ذلك اللبن من بعض الناس، فـقيل هو لك حلال يا أمـير المؤمنين ولحمها[2].

فهذا مثل من ورع أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، حيث خشي من عذاب الله جل وعلا لما شرب ذلك اللبن مع أنه لم يتعمد ذلك، ولم تطمئن نفسه إلا بعد أن استـحل ذلك من بعض كبـار الصحابة رضـي الله عنهم الذين يمثلون المسلمين في ذلك الأمر، وهذا الخبر وأمثاله يدل على أن ذكر الآخـرة بما فيها من حساب ونعيم أو شقاء قـد أخذ بمجامع قلب عمر ومـلأ عليه تفكيره، حتى أصبح ذلك مـوجهًا لسلوكه في هذه الحياة.

ومن ذلك ما أخـرجه المؤرخ أبو زيد عـمر بن شبـة من خبـر قتادة بن دعـامة السدوسي قال: خرج عـمر رضي الله عنه من المسجد ومعه الجـارود العبدي، فإذا

(١) تاريخ المدينة المنورة / ٧٠٤.

(٢) تاريخ المدينة المنورة / ٧٠٢.

امرأة برزة[1] على ظهر الطريق، فسلم عليها عمر رضي الله عنه فردت عليه السلام -أو سلمت عليه فرد عليها السلام- فقالت: هيها يا عمر[2] عهدتك يا عمر وأنت تسمى عميرا في سوق عكاظ تصارع الصبيان، فلم تذهب الأيام حتى سُميِّت عمر، ثم لم تذهب الأيام حتى سُمِّيت أمير المؤمنين، فاتق الله في الرعية، واعلم أنه من خاف الوعيد قرب عليه البعيد، ومن خاف الموت خشي الفوت، فبكى عمر رضي الله عنه، فقال الجارود: هيه[3] فقد اجترأت على أمير المؤمنين وأبكيته!! فقال عمر رضي الله عنه: أما تعرف هذه؟ هذه خولة بنت حكيم امرأة عبادة بن الصامت التي سمع الله عز وجل قولها من فوق سماواته، فعمر أحرى أن يسمع لها[4].

ففي هذا الخبر موقفان:

أولا: أنه مثل من الجرأة التي اتصف بها الصحابة رضي الله عنهم رجالا ونساء في مخاطبة الولاة والتعبير عما في نفوسهم من إرادة الإصلاح، وقد تربوا على هذه الجرأة في ظل الإسلام، حيث جاءت الأوامر فيه بلزوم التناصح بين الراعي والرعية كما جاء في قول رسول الله ﷺ «**الدين النصيحة**، قلنا لمن؟ قال: لله **ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم**» أخرجه الإمام مسلم من حديث تميم الداري رضي الله عنه[5].

ثانيًا: موقف لأمير المؤمنين عمر رضي الله عنه الذي تمثل في الخشية من الله تعالى والتواضع لأفراد رعيته، وهذا دليل على قوة إيمانه وتعظيمه لله عز وجل وشدة استحضاره لمشاهد الحياة الآخرة، ومن كان كذلك فإنه ينسى نفسه ودنياه ويتوجه سلوكه إلى محاولة بلوغ الهدف الإسلامي الأعلى، وهو الظفر برضوان الله سبحانه ونعيم الجنة.

---

(١) هي المرأة الكهلة التي تبرز للقوم يتحدثون معها.

(٢) أي تنبَّه وتفطَّن. (٣) أي تنبَّهي.

(٤) تاريخ المدينة المنورة / ٧٧٣- ٧٧٤، وقد نزل في خولة بنت حكيم رضي الله عنها قول الله تعالى ﴿**قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا**﴾ [المجادلة: ١] وقوله: «امرأة عبادة بن الصامت» وهم من الراوي عن قتادة وهو خليد بن دعيج، والصواب أنها امرأة أوس بن الصامت أخي عبادة، أفاد ذلك الحافظ أبو عمر ابن عبد البر- الاستيعاب ٤/ ٢٨٤.

(٥) صحيح مسلم، رقم ٥٥، الإيمان (ص٧٤).

ومن ذلك ما أخرجه أيضا المؤرخ أبو زيد عمر بن شبة من حديث معيقب قال: أرسل إليَّ عمر رضي الله عنه مع الظهيرة فإذا هو في بيت يطالب ابنه عاصما، فقلت: على رسلك يا أمير المؤمنين فإنك تأخذ أمرك بالهوينَى، وإذا بعاصم في زاوية، فقال -يعني أمير المؤمنين- : أتدري ما صنع هذا؟ إنه انطلق إلى العراق فأخبرهم أنه ابن أمير المؤمنين فانتفقهم فأعطوه آنية وفضة ومتاعا وسيفا محلَّى، فقال: ما فعلت، إنما قدمت على أناس من قومي فأعطوني هذا، فقال: خذه يا معيقب فاجعله في بيت المال، فجعلته، فلما كان العشي حُدِّث القوم شأنه، وانطلق عاصم فطلب إلى أناس في السيف، فقالوا: يا أمير المؤمنين، السيف آماله؟ فإنه ليس له سيف؟ قال: يا معيقب انزع حليته وأعطه النصل، قال: فما أصنع به؟ قال: ما شئت، فأخذ النصل[1].

فهذا مثل من التحري في المال الذي يكتسبه الإنسان عن طريق جاهه ومنصبه، فحيث شعر أمير المؤمنين عمر بأن ابنه عاصما قد اكتسب هذا المال لكونه ابن أمير المؤمنين تحرج من إبقاء ذلك المال عنده لكونه اكتسبه بغير جهده الخاص فدخل ذلك في مجال الشبهات.

ومن ذلك ما أخرجه الإمام أحمد من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ: «**إذا استأذنت أحدكم امرأته أن تأتي المسجد فلا يمنعها**، قال: وكانت امرأة عمر بن الخطاب رضي الله عنه تصلي في المسجد فقال لها: **إنك لتعلمين ما أحب**، فقالت: والله لا أنتهي حتى تنهاني، قال: فطُعِن عمر وإنها لفي المسجد»[2].

وأخرجه عبد الرزاق الصنعاني وذكر أن المرأة هي عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل[3].

ففي هذا الخبر مثل من تعظيم أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه لأمور الشريعة، ووقوفه عند كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، حيث قدَّم تنفيذ ذلك على ما تحبه نفسه.

---

(١) تاريخ المدينة المنورة/ ٧٠٠ - ٧٠١، وقوله «آماله» يعني: أليس له الحق في أن يملك سيفًا؟

(٢) مسند أحمد ٢/ ٧.

(٣) مصنف عبد الرزاق ٣/ ١٤٨، رقم ٥١١١.

وفي هذا المعنى ما أخرجه محمد بن سعد من خبر زيد بن أسلم عن أبيه قال: جاء بلال يريد أن يستأذن على عمر فقلت: إنه نائم، فقال: يا أسلم كيف تجدون عمر؟ قال: خير الناس إلا أنه إذا غضب فهو أمر عظيم، فقال بلال: لو كنت عنده إذا غضب قرأت عليه القرآن حتى يذهب غضبه.

وأخرج أيضًا من خبر عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: ما رأيت عمر غضب قط فذُكِر الله عنده أو خُوِّف أو قرأ عنده إنسان آية من القرآن إلا وقف عما يريد[1].

ذلك لأن غضبه لله تعالى، وأمره كله له سبحانه، فإذا ذكر به وخوف منه أو تليت عليه آياته غلبت عليه خشيته جل وعلا، فأمسك عما كان يريد الإقدام عليه من تأديب ونحوه.

ومن ذلك ما أخرجه الحافظ ابن عساكر من خبر أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت عمر بن الخطاب يوما -وخرجت معه حتى دخل حائطا[2] فسمعته - يقول- وبيني وبينه جدار وهو في جوف الحائط: عمر بن الخطاب أمير المؤمنين بَخٍ، والله لتتقين الله بُنَيَّ الخطاب أو ليعذبنك[3].

فهذا نوع من محاسبة النفس وتذكيرها بيوم الحساب حتى لا تغتر بالجاه الدنيوي، فإن الناس يوم القيامة يبعثون مجردين من أموالهم وجاههم، ولا يرافقهم إلا أعمالهم الصالحة.

وأخرج ابن عساكر أيضا من خبر أبي مسلم الأزدي: أنه صلى مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه أو حدثه من صلى مع عمر بن الخطاب المغرب، فمسَّى بها - أو شغله بعض الأمر- حتى طلع نجمان، فلما فرغ من صلاته تلك أعتق رقبتين[4].

فهذا الخبر يبين لنا شدة تعظيم أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه للصلاة وعظم خشيته من الله تعالى، حيث كفَّر عن تأخير صلاة المغرب عن أول وقتها بعتق مملوكَين.

---

(١) طبقات ابن سعد ٣/ ٣٠٩.
(٢) أي بستانا.
(٣) تاريخ دمشق ٤٤/ ٣١٠.
(٤) تاريخ دمشق ٤٤/ ٣١١.

ومن ذلك ما أخرجه الإمام أحمد من حديث مسروق بن الأجدع قال: دخل عبد الرحمن -يعني ابن عوف رضي الله عنه- على أم سلمة رضي الله عنها فقالت: سمعت النبي ﷺ يقول: **إن من أصحابي لمن لا يراني بعد أن أموت أبدا**، قال: فخرج عبد الرحمن من عندها مذعوراً حتى دخل على عمر رضي الله عنه فقال: اسمع ما تقول أمك، فقام عمر حتى أتاها فدخل عليها فسألها، ثم قال: أنشدك بالله أمنهم أنا؟ فقالت: لا ولن أبرئ بعدك أحدا[1].

فهذا مثال على ما كان يتحلى به الصحابة رضي الله عنهم من الخشية لله تعالى، فهذان الصحابيان الجليلان كلاهما ممن بشرهم النبي ﷺ بالجنة، ومع ذلك فزعا لما سمعا هذا الحديث، ولم يكتف أمير المؤمنين عمر بذلك، بل ناشد أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها بأن تخبره إذا كان ممن ينطبق عليه هذا الوعيد، وهذا يدل على قوة الدين وعظمة الله تعالى في قلوب الصحابة رضي الله عنهم.

وأخرج الحافظ ابن عساكر من خبر مزيدة بن قعنب الرهاوي قال: كنا عند عمر ابن الخطاب -رضي الله عنه- إذ جاءه قوم فقالوا: إن لنا إماما يصلي بنا العصر فإذا صلى صلاته تغنى بأبيات، فقال عمر: قوموا بنا إليه، فاستخرجه عمر من منزله فقال: إنه بلغني أنك تقول أبياتا إذا قضيت صلاتك فأنشدنيها، فإن كانت حسنة قلتها معك، وإن كانت قبيحة نهيتك عنها، فقال الرجل:

وفؤادي كلما نبهته ... عاد في اللذات يبغي تعبي
لا أراه الدهر إلا لاهيا ... في تماديه فقد بَرَّح بي
يا قرين السوء ما هذا الصِّبا ... فني العمر كذا باللعب
وشباب بان مني فمضى ... قبل أن أقضي منه أربي
ما أُرَجِّي بعده إلا الفنا ... ضيَّق الشيب عليَّ مطلبي
نفسُ لا كنتِ ولا كان الهوى ... اتقي المولى وخافي وارهبي

فقال عمر: نعم، نفس لا كنت ولا كان الهوى، وهو يبكي ويقول: اتقي المولى وخافي وارهبي، ثم قال عمر: من كان منكم مغنيا فليغنِّ هكذا[2].

---

(١) مسند أحمد ٦/ ٣١٢.

(٢) تاريخ دمشق ٤٤/ ٣١٢.

فهذا مثل من رقة قلب أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه وشدة خشيته من الله جل وعلا، حيث بكى لما سمع هذه الأبيات الوعظية.

وفي قوله: «فإن كانت حسنة قلتها معك» دلالة على تواضعه وحسن أسلوبه في دراسة القضايا، واحترامه آراء الآخرين.

وفي هذا الخبر دلالة على إقرار الصحابة رضي الله عنهم للأناشيد الإسلامية واستحسانهم لما كان منها يشتمل على الوعظ والتذكير بالآخرة، مع أن ذلك الإمام كان يتغنى بتلك الأبيات الشعرية في المسجد وبعد صلاة العصر، فجواز ذلك خارج المسجد من باب أولى.

ومن ذلك ما أخرجه المؤرخ أبو زيد عمر بن شبة النميري من خبر عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: أنا آخركم عهدًا بعمر رضي الله عنه، دخلت عليه ورأسه في حجر ابنه عبدالله بن عمر، فقال له: ضع خدي بالأرض، فقال: هل حجري والأرض إلا سواء؟ قال: ضع خدي بالأرض لا أم لك -في الثانية أو الثالثة- ثم شبك رجليه فسمعته يقول: ويل لي وويل لأمي إن لم يغفر الله لي، حتى فاضت نفسه[1].

فهذا مثل مما كان يتصف به أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه من خشية الله تعالى، حتى كان آخر كلامه الدعاء على نفسه بالويل إن لم يغفر الله جل وعلا له، مع أنه أحد العشرة المبشرين بالجنة، ولكن من كان بالله أعرف كان من الله أخوف، وإصراره على أن يضع ابنه خده على الأرض من باب إذلال النفس في سبيل تعظيم الله عز وجل، ليكون ذلك أقرب لاستجابة دعائه، وهذه صورة تبين لنا قوة حضور قلبه مع الله جل وعلا.

ومن ذلك ما أخرجه الحافظ ابن عساكر من خبر الأحنف بن قيس التميمي قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: لا يحل لعمر من مال الله إلا حلتين: حلة للشتاء وحلة للصيف وما حج به واعتمر عليه من الظهر[2]، وقوت أهلي كرجل من قريش ليس بأغناهم ولا بأفقرهم، ثم أنا رجل من المسلمين[3].

---

(١) تاريخ المدينة المنورة ص٩١٩.

(٢) أي الإبل.

(٣) تاريخ دمشق/ ٢٧٠.

وهكذا كانت مخصصات أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه من بيت مال المسلمين ما يكفي للقوت الضروري والكسوة الضرورية كأحد أوساط الناس، وما زاد عن ذلك فإن عمر يتورع عنه، ولو أن رجلا استأجر رجلا على أن يعمل له بطعامه وكسوته لم يقبل بذلك إلا عند الضرورة القصوى، ولكن عمر فرض على نفسه ذلك تورعًا منه.

وذكر الحافظ ابن حجر أن الكرابيسى أخرجه بسند صحيح(١).

ومن أمثلة خشيته من الله تعالى ما أخرجه الخطيب البغدادي من خبر قسامة بن زهير قال: وقف أعرابي على عمر بن الخطاب فقال:

يا عمر الخير جُزيتَ الجنة جَهِّز بُنَيَّاتي وأمُهنَّه
أقسم بالله لتفعلنه

قال: فإن لم أفعل ماذا يكون يا أعرابي؟ قال:

أقسم أني سوف أمضينه

قال: فإن مضيت ماذا يكون يا أعرابي؟ قال:

والله عن حالي لتسألنَّه ثَمَّ تكون المسألات ثمَّه
والواقف المسؤول بينهنه إما إلى نار وإما جنه

قال: فبكى عمر حتى اخضلت لحيته بدموعه، ثم قال: يا غلام أعطه قميصي هذا لذلك اليوم لا لشعره، والله ما أملك قميصًا غيره(٢).

وهكذا بكى أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه بكاء شديدًا تأثرا بشعر ذلك الأعرابي الذي ذكَّره بموقف الحساب يوم القيامة، مع أنه لا يذكر أنه ظلم أحدا من الناس، ولكنه لعظم خشيته وشدة خوفه من الله تعالى تنهمر دموعه أمام كل من يذكِّره بيوم القيامة.

ومن أمثلة ورعه رضي الله عنه ما أخرجه أبو جعفر محمد بن جرير الطبري من خبر إياس بن سلمة عن أبيه(٣) قال: مر عمر بن الخطاب رضي الله عنه في السوق

---

(١) فتح الباري ١٣/ ١٦١. (٢) تاريخ بغداد ٤/ ٣١٢.

(٣) أبوه هو سلمة بن عمرو بن الأكوع السلمي رضي الله عنه.

ومعه الدِّرة فخفقني بها خفقة فأصاب طرف ثوبي فقال أمط عن الطريق، فلما كان في العام المقبل لقيني فقال: يا سلمة تريد الحج؟ فقلت: نعم، فأخذ بيدي فانطلق بي إلى منزله فأعطاني ستمائة درهم وقال: استعن بها على حجك واعلم أنها بالخفقة التي خفقتك، قلت: يا أمير المؤمنين ما ذكرتها، قال: وأنا ما نسيتها[1].

فهذا مثل من ورع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث شعر بأنه قد ضرب ذلك الرجل وهو غير مستحق للضرب، فعوضه بذلك المال إبراءً لذمته، وهو بذلك يقتدي برسول الله ﷺ كما تقدم الخبر عنه بذلك في يوم حنين وغيره.

من أخبار عثمان رضي الله عنه:

لقد اشتهر أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه بأنه من أهل الغنى والثروة، ولكن مع هذه الشهرة فإنه قد رويت عنه أخبار تدل على أنه كان من الزاهدين في الدنيا.

فمن ذلك ما أخرجه الإمام أحمد من حديث حميد بن نعيم: أن عمر وعثمان رضي الله عنهما دُعيا إلى طعام، فلمَّا خرجا قال عثمان لعمر: قد شهدنا طعامًا لوددنا أنا لم نشهده، قال: لِمَ، قال: إني أخاف أن يكون صُنِع مباهاة[2].

فهذا فقه من عثمان بن عفان رضي الله عنه بمجالات السخاء الإسلامي، فالسخاء في الإسلام لا يكون بالتفاخر بالكرم والتباهي بنوع الطعام أو كثرته، وإنما يكون ببذل المال من غير إسراف ولا خيلاء مع شكر المنعم جل وعلا والتواضع للناس، وهذه النظرة من عثمان تُعدُّ من التزهيد بالجاه الدنيوي، وهذا يدل على أنه كان من الزاهدين في ذلك.

ومن زهد عثمان رضي الله عنه وتواضعه ما أخرجه الإمام أحمد من حديث ميمون بن مهران قال: أخبَرني الهمْداني أنه رأى عثمان بن عفان رحمة الله عليه على بغلة وخلفه غلامه نائل وهو خليفة[3].

وكذلك ما أخرجه من حديث الهمداني قال: رأيت عثمان نائمًا في المسجد في ملحفة ليس حوله أحد وهو أمير المؤمنين[4].

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٢٢٤.
(٢) الزهد / ١٢٦.
(٣) الزهد / ١٢٧.
(٤) الزهد / ١٢٧.

كما أخرج من حديث شرحبيل بن مسلم أن عثمان بن عفان رضي الله عنه كان يطعم الناس طعام الإمارة ويدخل إلى بيته فيأكل الخل والزيت[1].

فهـذه أمثلة جليلة من زهد أمير المؤمـنين عثمان رضي الله عنه، وحـينما يكون الزاهد متوسط الحال في المعـيشة فإن زهده لا يلفت النظر كثيـرًا ولا يثير العجب، ولكن حينما يكون غنيا فإن زهده يكون مدهشًا للمـتأملين وعبرة للمعتبرين، ذلك لأن كثرة المال تغـري بالانصراف نحو الملذات والتوسع في النفـقات، فلابد ليكون الغني زاهدا، من قوة بالغة تصرفه عن ذلك وتضخِّم في عينه النظر للآخرة وتقلل في عينه النظر إلى الدنيـا، وهكذا كان عثمـان رضي الله عنه الذي كان من أعظم الأثرياء في الإسلام قـد غلبت قوة إيمانه شهـوته وهواه فكان من أعظم الزاهدين، وضرب من نفسه مثلا لجميع الأغنياء بإمكان الجمع بين الغِنَى والزهد في الدنيا.

من أخبار علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

يُعدُّ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه من أئمة الزاهدين، مع شدة انفتاح الدنيا في عـهده، ومن أخباره في الزهد ما رواه مجاهد بن جـبر رحمه الله قال: قـال علي رضي الله عنه: جُعت مرة بالمدينة جـوعًا شديدا فـخرجت أطلب العمل في عوالي المدينة فإذا أنا بامرأة قد جمعت مَدَرًا[2] فظننتها تريد بلًّه[3] فأتيتها فقاطعتها[4] كل ذَنوب[5] على تمرة، فعددت ستة عـشر ذنوبًا حتى مجلت يدي[6] ثم أتيت الماء فأصـبت منه، ثم أتيتها فـقلت بكَفَّيَّ «هكذا» بين يديها[7] فعدَّت لي ست عشرة تمرة، فأتيت النبي ﷺ فأخبرته فأكل معي منها[8].

في هذا الخبر بيـان لشدة الحال التي مر بها الصـحابة رضي الله عنهم في المدينة حـيث ترك المهـاجرون أمـوالهم بمكة، ولم تكن أمـوال الأنصـار -على الرغم مما اتصفوا به من الإيثار- لتـتسع لتغطية احتياج المهـاجرين في كل الأحوال، ولكنهم صبـروا على تلك الحال حـتى فرج الله تعـالى شدتهم، وكـان بإمكانهم لو أرادوا

---

(١) الزهد / ١٢٩.
(٢) يعني الطين اليابس.
(٣) يعني بالماء.
(٤) أي اتفقت معها على أجرة.
(٥) يعني كل دلو.
(٦) يعني تورمت من العمل.
(٧) يعني بسطهما وضمهما.
(٨) صفة الصفوة ١/ ٣٢٠.

الدنيا أن يبقوا في مكة وغيرها من البلاد التي هاجروا منها بدينهم، وسيكونون - والحال تلك- أيسر حالا وأهنأ بالا في عرف عامة الناس، ولكن ما حملوه من النور الإلهي يجعل السعادة كل السعادة في صحبة النبي ﷺ، والتضحية بكل ما لديهم من طاقة في سبيل الله تعالى، وإن ألجأهم ذلك إلى أقسى الظروف المعيشية.. فلله درهم ما أسمى فكرهم، وأرفع ذكرهم، وأقوى صبرهم!!

وعبرة أخرى نأخذها من هذا الخبر تتعلق ببيان صورة من السلوك المشروع في مواجهة الشدائد، حيث خرج علي رضي الله عنه للعمل بيديه للكسب المشروع، ولم يجلس منتظرًا ما تجود به أيدي المحسنين.

وصورة أخرى من قوة التحمل حيث قام بذلك العمل الشاق وهو يعاني من شدة الجوع ما يضعف قوته.

وصورة أخيرة من إيثار الأحبة والوفاء لهم، فهو على ما به من شدة الجوع وبالرغم مما قام به من ذلك العمل الشاق قد احتفظ بأجرته من التمر حتى لقي النبي ﷺ فأكل معه.

وأخرج البلاذري من خبر الحارث قال: كنت عند علي فأتته امرأتان فقالتا: يا أمير المؤمنين [إننا] فقيرتان مسكينتان. فقال: قد وجب حقّكما علينا وعلى كلّ ذي سعة من المسلمين إن كنتما صادقتين، ثم أمر رجلاً فقال: انطلق بهما إلى سوقنا فاشتر لكل واحدة منها كرّا من طعام[1] وثلاثة أثواب -فذكر رداءً أو خمارًا وإزارًا- وأعط كل واحدة منهما من عطائي مائة درهم، فلما ولّتا سفرت إحداهما وقالت: يا أمير المؤمنين فَضَّلني بما فضّلك الله به وشرّفك. قال: وبماذا فضلني الله وشرفني.

قالت: برسول الله ﷺ. قال: صدقت وما أنت؟

قالت: [أنا] امرأة من العرب وهذه من الموالي، قال: فتناول شيئًا من الأرض ثم قال: قد قرأت ما بين اللوحين فما رأيت لولد إسماعيل على ولد إسحاق عليهما السلام فضلاً ولا جناح بعوضة[2].

(١) الكر: مكيال لأهل العراق فيه ستون قفيزا، والقفيز ثمان مكاكيك، والمكوك صاع ونصف الصاع.
(٢) أنساب الأشراف / ٨٧٩.

ففي هذا الخبر أمثلة من أخلاق أمير المؤمنين علي رضي الله عنه، وذلك في الرحمة والتواضع والعدالة، ومما يلفت النظر عدم تفضيله تلك المرأة العربية على الأخرى التي هي من الموالي، وبيان أن الإسلام لا يقر التفرقة في العطاء بين العرب والموالي ماداموا مسلمين، وفي هذا لفتة مهمة في تعديل نظرة العرب للموالي ليفهموا بأن العزة والرفعة بالإسلام لا بالعروبة.

ومن ذلك ما أخرجه الحافظ ابن عساكر من خبر الحافظ أبي نعيم الأصبهاني قال: وسمعت سفيان يقول: إذا جاءك عن علي رضي الله عنه شيء أُثبت لك فخذ به، ما بنى عليّ لبنة ولا قصبة على قصبة، ولقد كان يجاء بحبوبه في جراب من المدينة[1].

في هذا الخبر يربط العالم الكبير سفيان بن سعيد الثوري بين الزهد في الدنيا والعلم المتعلق بذلك، فأمير المؤمنين علي رضي الله عنه كان من أئمة الزهد قولا وعملا، فأقواله في الزهد يكون لها الأثر الكبير لأنه كان طوال أيام خلافته زاهدا يعيش على ريع مال له في المدينة ولم يبن له قصرا يناسب مركزه الاجتماعي، فلذلك كان بحقٍ أزهد الناس في عصره كما قال عنه عمر بن العزيز رحمه الله تعالى.

من أخبار أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه في الزهد والورع ما أخرجه أبو نعيم بإسناده عن علي بن ربيعة الوالبي أن علي بن أبي طالب جاءه ابن النباج فقال: يا أمير المؤمنين امتلأ بيت مال المسلمين من صفراء وبيضاء، فقال: الله أكبر! فقام متوكئًا على ابن النباج حتى قام على بيت مال المسلمين فقال:

هذا جَنَايَ خيارُه فيه وكلُّ جَانٍ يده إلى فيه

يا ابن النباج عليَّ بأشياع الكوفة، قال: فنودي في الناس فأعطى جميع ما في بيت مال المسلمين وهو يقول: يا صفراء ويا بيضاء غُرِّي غَيْري، ها، وها، حتى ما بقي منه دينار ولا درهم، ثم أمره بنضحه وصلى فيه ركعتين.

---

(١) تاريخ دمشق / ٤٨٢.

وفي رواية أخرى لأبي نعيم من خبر مجمع التيمي قال: كان عليّ يكنس بيت المال ويصلي فيه ويتَّخذه مسجدًا رجاء أن يشهد له يوم القيامة[1].

ففي هذا مثل بليغ في الترفُّع عن متاع الدنيا الزائل، فبيت المال قد امتلأ من الذهب والفضة، ولا ينظر إليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه نظرة إعجاب وغرور، بل كان جوابه حينما أبلغه المسؤول المالي عن ذلك أن قال: الله أكبر! فإذا كان بعض الناس يكْبرون الدنيا ويعظمونها فالله تعالى أكبر منها ومن كل شيء، ومادام المسلم يشعر حقا بأن الله أكبر فلماذا يجعل قلبه مستسلمًا لما هو أصغر!!

إنه فقه عظيم من علي رضي الله عنه حينما تذكر هوان الدنيا وحقارتها فكبَّر الله تعالى، ولسان حاله يؤنِّب من انخدع بمتاع الدنيا الزائل ونسي أن الله جل وعلا أكبر من كل شيء.

وإنه لميزان دقيق يحسه المؤمن الذي نَوَّرَ الله سبحانه بصيرته، فكلما كان الله تعالى أعظم وأكبر من كل شيء في قلبه كانت الدنيا وما فيها أهون شيء عليه، وأصبح يُسَخِّر المال الحلال في طاعة الله جل وعلا، وكلما عظمت الدنيا في قلبه كان ذلك على حساب نقص تعظيمه لله تعالى.

ونجد عليا رضي الله عنه يُحلِّق في آفاق العظمة وهو يخاطب الدنيا بقوله: يا صفراء يا بيضاء غُرِّي غيري.. مما يدل على الوجدان الحيّ والحسِّ المرهف الذي يصور الدنيا كخصم يخاتل ويراوغ خصمه.. وهو بهذا يعلن انتصاره على جموح النفس وجنوح العواطف، ويُحكِّم عقله الذي يعطي الدنيا حجمها المناسب لزمنها المحدود في شقائها ونعيمها ويعطي الآخرة حجمها المناسب لخلودها وعظمة نعيمها وهول جحيمها.

ونجده رضي الله عنه يصل إلى قمة المعالي حينما صلى في بيت المال ركعتين لتكونا شاهدتين له يوم القيامة بأنه قد عدل في حكمه واستقام في أمره.

ولعل في اتخاذ بيت المال مسجدًا رمزًا لعلو الآخرة على الدنيا، وهو مكمِّل للسلوك العالي الذي مارسه في تصريف ذلك المال في وجوهه المشروعة.

---

(١) حلية الأولياء ١/ ٨٠ - ٨١، تاريخ الإسلام للذهبي / الخلفاء الراشدون / ٦٤٣.

ومن مواقف علي رضي الله عنه في الزهد والورع مـا رواه هارون بن عنترة عن أبيـه قال: دخلت على علي بن أبي طالب بالخَـوْرنَق[1] وهو يُرعَد[2] تحت سَمَلِ قطيفة[3] فقلت: يا أمـير المؤمنين إن الله قد جـعل لك ولأهل بيتك في هذا المال وأنت تصنع بنفسك ما تصنع، فقال والله ما أرزؤكم من مالكم شيئًا وإنها لقطيفتي التي خرجت بها من منزلي – أو قال من المدينة[4].

وهنا نتساءل فنـقول: ما مالذي حمل أمـير المؤمنين عليّا على أن يعيش عـيشة الفقـراء وأن يتحمل البـرد القارس وهو قادر على أن يشـتري أفخر مـا يوجد في الأرض من الملابس وأكثرها دفئًا؟!

ولماذا تورع عن أموال المسلمين مع أن له حقًا فيها؟

إنه مثـال للزهد الحقـيقي حيث يرغب عـن متاع الدنيـا مع القدرة التـامة على تحصيله.

إنه تلميـذ المدرسة النبـوية التي تربى فيهـا على الزهد في متـاع الدنيا الزائل، والتنافس على نعيم الآخرة الخـالد، فلقد عاش رسول الله ﷺ عيشـة الفقراء وهو يستطيع أن يكون كأغنى الأغنياء.

ومن أخبار أميـر المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه في الزهد والورع ما أخرجه الإمام أحمد من حديث أبي مطر عمرَ بن عبد الله الجهني قال: رأيت عليّـًا عليه السـلام متَّزرًا بإزار مرتديًا برداء ومـعه الدِّرَّة [5] كأنه أعرابي بدوي، ثم ذكر دخوله إلى السوق ومساومته أحد التجار في ثوب بثلاثة دراهم، وأن التاجر عرفه، قال: فلما عرفه لم يشـتر منه شيئًا. فأتى آخر فلما عرفه لم يشـتر منه شيئًا، فأتى غلامًا حدثًا فـاشترى منه قميصًـا بثلاثة دراهم، ثم جاء أبو الغلام فأخـبره، فأخذ أبوه درهمًـا ثم جاء به فـقال: هذا الدرهم يا أمـير المؤمنين، قـال: ما شـأن هذا الدرهم؟ قال: كان ثمن القميص درهمين، فقال: باعني رضاي وأخذ رضاه[6].

(١) موضع بالكوفة. (٢) يعني من شدة البرد.
(٣) يعني قطيفة قديمة.
(٤) حلية الأولياء ١/ ٨٢، صفة الصفوة ١/ ٣١٦، تاريخ الإسلام، الخلفاء / ٦٤٤.
(٥) الدرة بكسر الدال وتشديدها العصا. (٦) الزهد/ ١٣٠.

فهـذا مثل في الزهد من أمير المؤمنين علـي بن أبي طالب رضي الله عنه، فلقد كان مظهره في لباسـه يوحي بأنه رجل أعرابي لخشونة ملابسه، وحـينما اشترى له ثوبًا اختار نوعًا متواضعًا رخيص الثمن مع أنه كان آنذاك أعلى مسؤول في العالم، حيث كان خليفة المسلمين، وهذا يدل على تواضعه وزهده في الدنيا.

ومثل آخر في الورع والاحتياط للدين حينمـا امتنع من الشراء ممن يعرفونه حتى لا يراعوه في الثمن لمنصبه، فهو لا يريد أن يستثمر منصبه الكبير لمصالحه الخاصة، وهذا فهم دقيق لمجالات الورع والتقوى، فالخـلافة عنده وعند أمثاله عمل صالح، والخليفـة إذا صاحبـه العدل كان أول السـبعة الذين يظلهم الله تـعالى في ظله يوم القيامة، فـهو لا يريد أن يدنس هذا العمل الصالح بمصالح دنيوية فيـتحول العمل إلى مَجْلَبـة للوزر بدلاً من الأجر، فكان بهذا السلوك العالي قـدوة حسنة لمن أتوا بعده.

ومن أخبـاره رضي الله عنه في الزهد ما أخرجـه عبد الله بن الإمام أحـمد من حديث عمر بن قيس قال: قيل لعلي عليه السلام: لِمَ ترقع قميصك؟ قال: يخشع القلب ويقتدى به المؤمن[1].

فهذا مثل من زهده رضي الله عنه وحرصه على تربية المسلمين على حياة الزهد والتـقشف، فقـد لاحظ في لبس الثـوب المرقوع ملحظين: الأول أنه وسـيلة إلى خشـوع القلب وتواضع النفس والبعد عن أسـباب العجب والكبـرياء، والثاني أنه يُعدُّ بذلك قدوة للمسلمين، فإذا رآه الناس- وهو فى أعلى منصب - يلبس الثوب المرقوع فإن نفوسهم تتطامن ويبتعدون عن التنافس في شراء الملابس الغالية الثمن، ويَتَقَوَّى بذلك الزاهدون الذين يتعرضون لملامة الناس على سلوكهم حياة الزهد.

وكذلك ما أخرجه الإمام أحمد من خـبر عبد الله بن زُرَير الغافقي قال: دخلت على علي بن أبي طالب رضي الله عنه- قال حسن[2]: يوم الأضحى- فقرب إلينا خَزِيرة[3]، فقلت: أصلحك الله لو قربت إلينا من هذا البط - يعني الوزّ- فإن الله

(١) الزهد / ١٣١، انظر تاريخ الإسلام/ الخلفاء/ ٦٤٧.

(٢) هو حسن بن موسى شيخ الإمام أحمد.

(٣) الخزيرة لحم يقطع ويطبخ بالماء ثم يذر عليه الدقيق.

عز وجل قد أكثر الخير! فقال: يا ابن زرير إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **لا يحل للخليفة من مال الله إلا قصعتان، قصعة يأكلها هو وأهله وقصعة يضعها بين يدَي الناس**[1].

فهذا أمير المؤمنين أبو الحسن علي بن أبي طالب رضي الله عنه يضرب مثلاً عاليًا في الورع والزهد في متاع الدنيا الزائل من طعام وشراب، فلقد كان بإمكانه أن يأخذ من بيت المال ما شاء من الأموال مما لا يلفت النظر إليه، حيث يُؤَمِّن له معيشة مساوية لأغنياء المسلمين، ولكنه رضي بخشونة العيش إيثارًا للآجلة على العاجلة، واحتياطًا لأمر دينه، وإبرازًا للقدوة الصالحة، لأنه إذا كان أعلى رجل في الدولة يعيش هذا المستوى من العيش فإن في ذلك عزاء للفقراء ليصبروا ويرضوا بقضاء الله تعالى وقدره، ووعظًا للأغنياء ليشكروا الله تعالى فيخففوا من اندفاعهم نحو الترف والإسراف.

وإذا أخذ الأغنياء بالمنهج الوسط في المعيشة فإن فضول أموالهم ستعود في النهاية إلى الفقراء لما ينتظرونه مقابل ذلك من الجزاء المضاعف في الآخرة، وبالتالي يرتفع الفقراء درجات نحو الوسط، وينزل الأغنياء درجات نحو الوسط، ليعيش الجميع حياة متقاربة في الأمور المعيشية من طعام ولباس ومركب وسكن.

وهذا هو المنهج الإسلامي الذي طبقه رسول الله ﷺ وخلفاؤه الراشدون من بعده رضي الله عنهم.

من أخبار أبي عبيدة ومعاذ رضي الله عنهما:

ومن أخبار الصحابة رضي الله عنهم في الزهد ما رُوي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أن عمر حين قدم الشام قال لأبي عبيدة رضي الله عنه: اذهب بنا إلى منزلك، قال: وما تصنع عندي؟ ما تريد إلا أن تعصر عينيك عليّ، قال: فدخل فلم ير شيئًا، قال: أين متاعك؟ لا أرى إلا لَبَدًا وصحفة وشنّـًا[2] وأنت أمير، أعندك طعام؟ فقام أبو عبيدة إلى جونة[3] فأخذ منها كسيرات، فبكى عمر، فقال له أبو عبيدة: قد قلت لك إنك ستعصر عينيك عليَّ، يا أمير المؤمنين يكفيك ما يُبْلُغك المقيل، قال عمر: غيَّرتْنا الدنيا كلَّنا غيرك يا أبا عبيدة.

---

(١) مسند أحمد ١/ ٧٨.

(٢) اللَّبد السرج والشنّ القربة القديمة.

(٣) يعني السلة.

ذكره الإمام الذهبي وقال: وهذا والله هو الزهد الخالص لا زهد من كان فقيراً معدماً[1].

فهذا مثل بليغ في الزهد يقدمه أحد عظماء الإسلام أمام أحد عظمائه.

لقد كان أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه حينما قَدِم إلي الشام قد جعل من أهدافه المهمة أن يزور بيت أمير الشام أبي عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنه ليُثلج صدره برؤية مظهر من مظاهر الزهد النادرة، ولكن أبا عبيدة كان يدرك ما ستؤول إليه حال عمر حينما يري بيته فتلكأ قليلاً في الذهاب به، ولم يتمالك عمر نفسه حينما رأى ذلك البيت الذي كأنما هُجر من دهر فجاشت عيناه بالدموع.

ويَحْدُث ما يدهش المتأمل حيث يقول أبو الزهد ومقنِّن مناهجه في عصره «غيَّرتنا الدنيا كلَّنا غيرك يا أبا عبيدة».

هل حقًا غيَّرت الدنيا عمر؟!

إنه الحاكم العظيم الذي ساس دولته على الزهد وكان قدوة عليا للزاهدين!

ولكنه التواضع الكبير من الرجل الكبير!

فما أعظم هذا الحوار بين هذين الرجلين العظيمين! وما أعظم ما قدَّماه لأمة الإسلام من تضحية وفداء!!

ومن ذلك ما ذكره ابن الجوزي عن مالك الداري أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أخذ أربعمائة دينار فجعلها في صرة فقال للغلام: اذهب بها إلى أبي عبيدة بن الجراح. ثم تَلَهَّ ساعة في البيت حتى تنظر ما يصنع.

فذهب الغلام قال: يقول لك أمير المؤمنين: اجعل هذه في بعض حاجتك، قال: وصله الله ورحمه، ثم قال: تعالَي يا جارية، اذهبي بهذه السبعة إلى فلان، وبهذه الخمسة إلى فلان وبهذه الخمسة إلى فلان، حتى أنفذها.

فرجع الغلام إلى عمر فأخبره فوجده قد أعد مثلها لمعاذ بن جبل، فقال: اذهب بها إلى معاذ بن جبل وتَلَهَّ في البيت ساعة حتى تنظر ما يصنع، فذهب بها إليه

(١) سير أعلام النبلاء ١/ ١٧.

قال: يقـول لك أمير المؤمنين: اجعل هذه في بعض حـاجتك، فقـال: رحمه الله ووصله، تعالي يا جارية، اذهبي إلى بيت فلان بكذا، اذهبي إلى بيت فلان بكذا، فاطَّلَعَت امرأته فقالت: ونحن والله مـساكين فأعطنا ولم يبق في الخرقة إلا ديناران فَدَحَا بهما إليها، فرجع الغلام إلى عمـر فأخبره بذلك، فقال: إنهم إخوة بعضهم من بعض[1].

ومن هذه الأخبار تـبين لنا ما كان عليه الصـحابة رضي الله عنهم من الزهد في الدنيا والإقبـال على الآخرة، ولا شك أن من وقع في يده مال هو بحاجتـه ففرقه من سـاعته.. لاشـك أنه قد تجـرد قلبه من الميل إلى الدنيـا، ولا يكون ذلك إلا بدافع قوي يهيـمن على النفس فيصرف اتجاهها إلى ما يخالف هواها، هذا الدافع هو ما ذكره الله تعالى ﴿**يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا**﴾ [الفتح: ٢٩] وما يزال عباد الله المخلصون يقـاومون هوى نفوسـهم حتى يكون هواهم خالصًـا فيما يحـبه الله تعالى، ولذلك فإنهم يشتاقـون إلى لقائه جل وعلا، ولا يكرهون الموت لأنهم قد عاشوا لما بعد الموت، ولـم تمثل الحياة الدنيا في شعورهم إلا كـرحلة سفر، قد تم فيها الإعداد لما بعدها من الإقامة.

وعلى ضد ذلك الذين ذكرهم النبي ﷺ في آخر الزمان بقوله: «**يوشك الأمم أن تَدَاعَى عليكم كـما تداعى الأَكَلَة إلى قـصعتـها**، فقـال قائل: ومِنْ قِلَّة نحن يومـئذ؟ قال: **بل أنتم يومئذ كـثير ولكنكم غُثـاء كغثاء السيل، وليـنزعَنَّ الله من صدور عدوكم المهابـة منكم، وليقـذفَنَّ الله في قلوبكم الوهْن**، فقال قـائل: يارسول الله وما الوَهْن؟ قال: **حب الدنيا وكراهية الموت**». أخرجه الإمامان أبو داود وأحمد[2].

من أخبار سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه:

أخرج الحافظ ابن كثير في ترجمة سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: وفي رواية محمد بن عائذ الدمشقي عن الهيثم بن حميد عن مطعم عن المقدام وغيره أن سعدا قال: يا رسول الله ادع الله أن يجيب دعوتي، فقال: **إنه لا يستجيب الله دعوة**

(١) صفة الصفوة ١/ ٤٩١.

(٢) سنن أبي داود، رقم ٤٢٩٧، الملاحم ٤/ ٤٨٣، مسند أحمد ٢/ ٣٥٩.

عبد حتى يطيب مطعمه، فقال: يا رسول الله ادع الله أن يطيِّب مطعمي، فدعا له. قالوا: فكان سعد يتورع من السنبلة يجدها في زرعه فيردها من حيث أُخذت[1].

ففي هذا الخبر بيان لاهتمام سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه بالورع واستقامته على ذلك، وكونه يهتم بسنبلة وقعت في أرضه دليل على قوة ورعه، فإن كثيراً من الناس لا يلتفتون لمثل هذا، وإذا كان قد تورع عن هذا الشيء الحقير فإن تورعه عن الأمور الكبيرة الواضحة في الحرام والشبهات من باب أولى، وهذا الحديث صريح في أن أهم أسباب إجابة الدعاء الورع عن الحرام والشبهات، وقد رُويت أحاديث أخرى في هذا المعنى عن رسول الله ﷺ، ومن ذلك ما أخرجه الإمام مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «**أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ قال: ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء: يارب، يارب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغُذِّي بالحرام فأنَّى يستجاب لذلك!**»[2].

من أخبار عبد الله بن مسعود رضي الله عنه:

من أخباره رضي الله عنه في باب الخشية من الله تعالى ما أخرجه أبو عبد الله الحاكم من خبر عمرو بن ميمون قال: كان عبد الله - يعني ابن مسعود رضي الله عنه- تأتي عليه السنة لا يحدِّث عن رسول الله ﷺ، فحدَّث ذات يوم عن رسول الله ﷺ بحديث فَعَلَتْه كآبة، وجعل العرق يتحادر على جبهته ويقول: نحوَ هذا أو قريبًا من هذا.

قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وأقره الذهبي[3].

---

(١) البداية والنهاية ٨/ ٧٦.

(٢) صحيح مسلم، رقم ١٠١٥، الزكاة (ص ٧٠٣).

(٣) المستدرك ٣/ ٣١٤.

فهذا مثل من شدة الوجل والخشية من الله تعالى، واهتمامٌ بالغ من عبد الله بن مسعود رضي الله عنه بأداء ما سمع من النبي ﷺ من غير أن يغير منه حرفًا، وهذا النص يعدُّ توثيقًا لجميع مرويات ابن مسعود إذا صحت عنه، وعلى شاكلته كان علماء الصحابة رضي الله عنهم، لأنهم يعلمون جميعًا أن هذا الأمر أداءٌ لدين الله تعالى، وأنَّ تحمُّل ذلك العلم وأداءَه مسؤوليةٌ عظيمة.

من أخبار أبي أمامة رضي الله عنه:

من ذلك ما أخرجه الإمام الطبراني في معجمه الكبير من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى باهلة، فأتيتهم وهم على الطعام، فرحبوا بي وأكرموني، وقالوا: تعال فكل، فقلت: إني جئتكم لأنهاكم عن هذا الطعام[1]، وأنا رسول رسول الله ﷺ أتيتكم لتؤمنوا به، فكذبوني وزبروني، وأنا جائع ظمآن، فنمت فأُتيت في منامي بشربة لبن فشربت ورويت وعظم بطني، قال القوم: أتاكم رجل من أشرافكم وسراتكم فرددتموه، اذهبوا إليه وأطعموه من الطعام والشراب ما يشتهي، فأتوني بالطعام والشراب، فقلت: لا حاجة لي في طعامكم وشرابكم، فإن الله أطعمني وسقاني، فانظروا إلى الحال التي أنا عليها، فنظروا فأريتهم بطني، فأسلموا عن آخرهم.

ذكره الحافظ الهيثمي وقال: رواه الطبراني بإسنادين وإسناد الأولى حسن[2].

وهكذا أظهر هذا الصحابي الجليل عزة الإسلام فلم يدار المشركين في اقتراف شيء مما نهى الله تعالى عنه، فكان أهلاً لأن تجرى على يديه كرامة الله جل وعلا حيث أطعمه وسقاه، ثم هدى على يديه قبيلته بأكملها، وتلك من عاجل بشرى المؤمن في الحياة الدنيا، مع ما ادخره الله تعالى له في الآخرة من الثواب العظيم.

وهذا مثل رائع في باب الورع والتقوى، وبيان واضح لأثر ذلك في نجاح الداعية، كما هو ظاهر في استجابة قوم أبي أمامة، وقد كانوا كذبوه أولاً

(١) جاء في إحدى الروايات أنه كان طعامهم الدم، وكانوا يستخرجونه من البهائم ويجعلونه في طعامهم؛ فلذلك لم يأكل أبو أمامة من طعامهم لأنه محرم.

(٢) مجمع الزوائد ٩/ ٣٨٧.

وزجروه، ثم أكبروا فيه الامتناع عن الطعام والـشراب تَدَيُّنًا مع شدة احتياجه إليه، فلما رأوا ما مَنَّ الله به عليه من تلك الكرامة العظيمة خضعوا للحق فأسلموا.

ومن ذلك ما روي عن مولاة لأبي أمامـة الباهلي رضي الله عنه قالت: كان أبو أمامـة رجلاً يحب الصـدقة ويجـمع لها من بين الدينار والدرهم والفـلوس، وما يأكل، حتى البصلة ونحوها، ولا يقف به سائل إلا أعطاه ما تهيأ له حتى يضع في يد أحدهم البصلة.

قالت: فأصبحنا ذات يوم ولـيس في بيته شيء من الطعام لذلك - يعني لذلك الغـرض وهو الصـدقة- ولا لنا، وليس عنـده إلا ثلاثة دنانير، فـوقف به سـائل فأعطاه دينارًا ثم وقف به سائل فأعطاه دينارًا، ثم وقف به سائل فأعطاه دينارًا.

قالت: فغضبت وقلت: لم يَبْقَ لنا شيء ! فـاستلقى على فراشه وأغلقت عليه باب البيت حـتى أذن المؤذن للظهر، فجـئته فـأيقظته فراح إلى مـسجده صـائمًا، فرققت عليـه فاستقرضت مـا اشتريت به عشاءً فـهيأت سراجًا وعـشاءً، ووضعت مائدة ودنوت من فـراشه لأمهده له، فـرفعت المرفقة -يعني المخـدة- فإذا بذهب، فقلت في نفسي، ما صنع إلا ثقة بما جاء به، قـالت: فعددتها فإذا ثلاثمائة دينار، فتركتها على حالها حتى أَنصرِفَ على العشاء.

قالت: فلما دخل ورأى ما هيأت له حمد الله تعالى وتبسم في وجهي، وقال: هذا خير من غيره، فجلس فتعشى، فقلت: يغفر الله لك، جئتَ بما جئت به، ثم وضعتَه بموضع مضيعة! فـقال: وما ذاك؟ فقلت: ما جئت به من الدنانير، ورفعت المرفقة عنهـا ففزع لِمَا رأى تحتها، وقـال: ويحك ما هذا؟ فقلت: لا علم لي به إلا أني وجدته على ما ترى، قالت: فكثر فزعه رضي الله عنه.

ذكره ابن الجـوزي في صفة الصفـوة والذهبي في تاريخه، وأشار إليه فـي سير أعلام النبلاء وقال: لأبِي أمامة كرامة باهرة جزع هو منها[1].

وإن مـا رأيناه في هذا الخبـر شيء عجـيب، فَـلأَنْ يتصـدق المسلم بما زاد عن حاجته فهذا ظاهر، وله أمثلة كثيرة من عمل الصالحين، لكن أن يتصدق بثمن قوته

(١) صفة الصفوة ١/ ٧٣٤، تاريخ الإسلام ٣/ ٣١٥، سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٦٢.

الضـروري فإن هذا نادر المثـال، وإنما يدل على إيمان قـوي وثقة بالغـة بما عند الله تعالى من الخيـر في الدنيا والآخرة، فأمـا الجزاء الأخروي فأدلته ظـاهرة معلومة، وأما الجزاء الدنيوي فـفي مثل قول رسول الله ﷺ «**ما من يوم يصـبح العباد فـيه إلا ملكان ينزلان فيقـول أحدهما: اللهم أعط منفقًا خلفـا، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكًا تلفـا**»[1] وقـد ضاعف الله تعـالى لأبي أمـامة الخلف بمـائة ضعف، حـيث رُزِق بثلاثمائة دينار لا يعرف مصدرها، بدلاً من الثلاثة التي تصدق بها.

والمشهد العـجيب الثاني أنه فزع لما رأى تلك الدنانير، وزاد فـزعه يوم أن جهل مصدرها، في مقام يُتوقع فيـه الفرح والسرور، وما ذاك إلا أنه وأمثاله ينظرون إلى الدنيا نظرة وجـل وفزع خوفًـا من الوقوع في شيء من فتنـتها على حـسب عرف السابقين بالخـيرات، وإن كان ذلك يُعدُّ أمـرًا معتادًا عند غـيرهم، أما شدة فـزعه حينمـا جهل مصدرها فـهو مبني على شـدة خشيتـه من الله تعالى أن يكون ذلك استدراجًا، وأن يداخل نفسه شيء من الإعجاب بالعمل الصالح، ولكن أنَّى يصدر ذلك ممن يحوِّلون مشاهد السرور والفرح إلى مشاهد الخوف والفزع!

من أخبار المقداد بن عمرو رضي الله عنه:

من الذين وردت عنهم الأخـبار في الخشـية والورع المقداد بن عـمرو رضي الله عنه. من ذلك ما أخرجه أبو عبد الله الحاكم من حديث المقداد بن عمرو رضي الله عنه قال: بعثني رسول الله ﷺ مَبْعَثا، فلما رجعت قال: **كيف تجد نفسك**؟ قلت: مازلت حتى ظننت أنَّ من معي خَوَلي[2]، وايم الله لا أعمل على رجلين بعدها، قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وأقره الذهبي[3].

فهذا مـثال للورع والشدة في محـاسبة النفس، فحينـما أحس المقداد رضي الله عنه بأن نفسه قد تعاظمت بعض الشـيء من أثر احترام الناس وتقديرهم له نفرَ من تلك الولاية التي خاف على دينه منها وآلى على نفسه ألا يتولى عملاً في حياته.

وإن في هذا الخبر درسًا حيًّا للمسؤولين الذين ينخدعون بمناصبهم فتتغير حالهم بعد توليـهم المسئولية، وبداخلهم شيء من الغـرور والكبرياء، وربما تلا ذلك شيء

(١) صحيح البخاري، رقم ١٤٤٢، الزكاة (٣/ ٣٠٤)، صحيح مسلم، الزكاة رقم ٥٧.
(٢) أي خدم لي. (٣) المستدرك ٣/ ٣٤٩- ٣٥٠.

من ظلم الناس وتأخير حقوقهم، فليَعْلَم هؤلاء أنهم قد اختاروا الدنيا على الآخرة وآثروا حظ أنفسهم على ابتغاء رضوان الله تعالى، ولئن خُيِّل إليهم أنهم قد كسبوا شيئًا من الجاه الدنيوي فلقد خسروا كثيرًا حينما لم يضعوا في حسابهم العمل لما بعد الموت.

من أخبار خبَّاب بن الأرَتِّ رضي الله عنه:

ومما روي عن الصحابة رضي الله عنهم ما روي عن خبَّاب بن الأرَتِّ رضي الله عنه وذلك فيما ذكره ابن الجوزي عن طارق بن شهاب قال: جاء خبَّابًا نَفَرٌ من أصحاب محمد ﷺ فقالوا: أبشر يا أبا عبد الله إخوانك تَقْدُم عليهم غدًا، فبكى وقال: أمَا إنه ليس بي جزع ولكن ذكرتموني أقوامًا وسمَّيتم لي إخوانا، وإن أولئك مضوا بأجورهم كما هي، وإني أخاف أن يكون ثواب ما تذكرون من تلك الأعمال ما أوتينا بعدهم [1].

لقد فزع خباب رضي الله عنه وبكى من النعمة التي أوتيها مع أنها من خالص الحلال خشية أن يكون قد عُجِّل له بعض ثواب عمله الصالح، وفي هذا دلالة على شدة خشيته من الله تعالى، وعظمة استحضاره للآخرة، حيث يخشى أن ينتقص أجره بما تقدم من نعمة في الدنيا، وقد جرى ذلك من صحابة آخرين رضي الله عنهم، وهذا دليل على قوة إيمانهم وحرصهم الشديد على السلامة في الآخرة ورفعة الدرجات.

وإذا كان خباب قد فزع من تلك النعمة الحلال فكيف بمن يتقلَّبون في أنواع من متاع الدنيا المكوَّن من كسب حرام أو مال مشتبه به؟!

من أخبار عائشة رضي الله عنها:

من ذلك ما أخرجه الحاكم من حديث أبي عمرو ذكوان مولى عائشة رضي الله عنها: أن دُرْجًا[2] قَدِمَ إلى عمر من العراق وفيه جوهر، فقال لأصحابه: تدرون ما ثمنه؟ قالوا: لا، ولَمْ يدروا كيف يقسمونه، فقال: تأذنون أن أبعث به إلى عائشة

(١) صفة الصفوة ١/ ٤٢٧.
(٢) هو وعاء الجوهر.

لحُبِّ رسول الله ﷺ إياها؟ فقالوا: نعم، فبعث به إليها فَـفَتَحتْه فقالت: ماذا فُتِحَ على ابن الخطاب بعد رسول الله ﷺ اللهم لا تبقني لعطيته لقابل.

قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين إذا صح سماع ذكوان أبي عمرو، ولم يخرجاه، وقال الذهبي: قلت: فيه إرسال[1].

ففي هذا الخبر موقفان: الأول في تصرف أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه الحكيم، وذلك حينما ذهب فكره إلى بِرٍّ من يحبه رسول الله ﷺ أكثر من غيره فتذكَّر عائشة رضي الله عنها، فاستأذن الصحابة رضي الله عنهم في إرسال ذلك الجوهر إليها، وهذا موقف آخر يُذكَر له حيث لم يستبدَّ برأيه مع كونه في عمل خيري، ومما يُذكَر له أيضًا في هذا التصرف أنه لم يراع في ذلك ابنته أم المؤمنين حفصة رضي الله عنها ولم يدارها في ذلك، بل خَلُص تفكيره لبِرٍّ من يحبها رسول الله ﷺ أكثر من غيرها .

والموقف الثاني: فيما أبْدَتْه عائشة رضي الله عنها من زهد في مظاهر الحياة الدنيا، حيث فزعت من رؤية ذلك الجوهر النفيس وخشيت على نفسها الفتنة به بدلاً من أن تفرح به حتى دعت على نفسها بذلك الدعاء، وهذا مثال على كمال الزهد وقوة الإيمان.

ومن ذلك ما أخرجه الإمام أحمد من حديث عبد الله بن أبي مليكة عن ذكوان مولى عائشة رضي الله عنها أنه استأذن لابن عباس رضي الله عنهما على عائشة وهي تموت، وعندها ابن أخيها عبد الله بن عبد الرحمن، فقال: هذا ابن عباس يستأذن عليك وهو من خير بنيك ، فقالت: دعني من ابن عباس ومن تزكيته، فقال لها عبد الله بن عبد الرحمن: إنه قارئ لكتاب الله فقيه في دين الله فأْذَني له فليسلِّم عليك وليودعك، قالت: فأْذن له إن شئت، قال: فأذن له فدخل ابن عباس ثم سلم وجلس وقال: أبشري يا أم المؤمنين فو الله ما بينك وبين أن يذهب عنك كل أذَى ونصب - أو قال: وصب -وتلقي الأحبة محمدًا ﷺ وحزبه- أو قال: أصحابه- إلا أن تفارق روحك جسدك، فقالت: وأيضًا، فقال ابن عباس:

(١) المستدرك ٤/٨.

كنت أحب أزواج رسول الله ﷺ إليه ولم يكن يحب إلا طيبًا، وأنزل الله عز وجل براءتك من فوق سبع سماوات، فليس في الأرض مسجد إلا وهو يتلى فيه آناء الليل وآناء النهار، وسقطت قلادتك بالأبواء فاحتبس النبي ﷺ في المنزل والناس معه في ابتغائها- أو قال في طلبها- حتى أصبح القوم على غير ماء فأنزل الله عز وجل ﴿**فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا**﴾ [النساء: ٤٣] فكان في ذلك رخصة للناس عامة في سببك، فوالله إنك لمباركة، فقالت: دعني يا ابن عباس من هذا فو الله لوددت أني كنت نسيًا منسيًّا[1].

فهذا مثال من خشية الله تعالى، وقوة استحضار الحياة الآخرة في القلب، فقد تناست أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها كل فضائلها التي ذكرها ابن عباس رضي الله عنهما والتي لم يذكر، ولم يبرز في فكرها إلا الحساب وأهوال الآخرة، وهذا دليل على قوة الإيمان ورسوخ اليقين.

ومن ذلك ما أخرجه أبو عبد الله البخاري رحمه الله من حديث عوف بن الحارث: أن عائشة رضي الله عنها حُدِّثت أن عبد الله بن الزبير قال في بيع أو عطاء أعطته عائشة: والله لتنتهين عائشة أو لأحجرن عليها، قالت: أهو قال هذا قالوا: نعم، قالت: هو لله علي نذر ألا أكلم ابن الزبير أبدًا، فاستشفع ابن الزبير إليها حين طالت الهجرة، فقالت: لا والله لا أشَفِّع فيه أبدًا ولا أتحنث إلى نذري، فلما طال ذلك على ابن الزبير كلم المسور بن مخرمة وعبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث- وهما من بني زهرة - وقال لهما: أنُشدكما بالله لما أدخلتماني على عائشة فإنها لا يحل لها أن تنذر قطيعتي، فأقبل به المسور بن مخرمة وعبد الرحمن مشتملين بأرديتهما حتى استأذنا على عائشة فقالا: السلام عليك ورحمة الله وبركاته، أندخل؟ قالت: عائشة: ادخلوا، قالوا: كلنا، قالت: نعم، ادخلوا كلكم -ولا تعلم أن معهما ابن الزبير- فلما دخلوا دخل ابن الزبير الحجاب فاعتنق عائشة، وطفق يناشدها ويبكي، وطفق المسور وعبد الرحمن يناشدانها إلا كلمته وقبلت منه، ويقولان: إن النبي ﷺ قد نهي عما قد علمت من الهجرة، فإنه لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال، فلما أكثروا على عائشة من التذكرة

(١) مسند أحمد ١/٣٤٩.

والتحريج طفقت تذكِّرهما وتبكي، وتقول: إني نذرت والنذر شديد، فلم يزالا بها حتى كلمت ابن الزبير، وأعتقت في نـذرها ذلك أربعين رقبة، وكانت تذكر نذرها بعد ذلك فتبكي حتى تبل دموعها خمارها»[1].

وقـوله «في بيع أو عطاء أعطتـه عـائشـة» قال الحـافظ ابن حـجـر: في رواية الأوزاعي: «في دارٍ لها باعـتهـا، فسخط عـبد الله بن الزبير بيـع تلك الدار» قوله «لتنتهين عائشـة» زاد في رواية الأوزاعي «أما والله لتنتهين عائشـة عن بيع رباعها» قال: وهذا مفسر لما أُبهم في رواية غيره، وكذا ما تقدم في مناقب قريش من طريق عروة قـال: «كانت عائشـة لا تمسك شيئًـا، فما جـاءها من رزق الله تصدقت به» وهذا لا يخالف الذي هنا لأنه يحـتمل أن تكون باعت الرِّباع لتتصـدق بثمنها»[2] أ.هـ.

ففي هذا الأثر بيانٌ لبعض أخلاق أم المؤمـنين عائشة رضي الله عنها، فمن ذلك اتصافها بالكرم الفـياض، حيث كانت تتصدق بعطائها، وتبيع من ملـكها لتتصدق بثمن ذلك، ولقد أثار كرمـها البالغ ابن أختها عبـد الله بن الزبير رضي الله عنهما فقـال ما قـال: وكان ميلهـا الشديد إلى الكرم دافـعًا لها إلى الـنذر المذكور الذي أصبحت به محرجة بين الوفاء بالنذر وصلة الرحم.

ومن ذلك اتصافها بالخوف الشديد من الله تعالى، والورع الدقيق حيث تحرجت من عدم الوفاء بنذرها، ولما اضطرت إلى ذلك بدافع من تغليب جانب صلة الرحم وعدم الاستمـرار في الهجر أعتقت أربعين مملوكًا كـفارة لنذرها، ومع ذلك كانت كلما ذكـرت ذلك النذر تبكي، وهذا دليل على قوة الإيمان وعظمة الخـشية من الله تعالى.

من أخبار زينب بنت جحش رضي الله عنها:

ومثل آخر من زهد أم المؤمنين زينب بنت جـحش رضي الله عنها، أخرجه ابن سعد من حديث بَرْزَة بنت رافع قـالت: لما خرج العطاء أرسل عمر إلى زينب بنت

(١) صحيح البخاري، وقم ٦٠٦٣، كتاب الأدب (١٠/ ٤٩١)..
(٢) فتح الباري ١٠/ ٤٩٣.

جحش بالذي لها، فلما أُدْخِلَ عليها قالت: غفر الله لعمر، غيري من أخواتي كان أقوى على قسم هذا مني، قالوا: هذا كله لك، قالت: سبحان الله! واستترت منه بثوب، وقالت: صبُّوه واطرحوا عليه ثوبًا، ثم قالت لي: أدخلي يدك فاقبضي منه قبضة فاذهبي بها إلى بني فلان وبني فلان، من أهل رحمها وأيتامها، حتى بقَيتْ بقية تحت الثوب، فقالت لها برزة بنت رافع: غفر الله لك يا أم المؤمنين، والله لقد كان لنا في هذا حق، فقالت: فلكم ما تحت الثوب، فوجدنا تحته خمسة وثمانين درهمًا، ثم رفعت يدها إلى السماء فقالت: اللهم لا يدركني عطاء لعمر بعد عامي هذا، فماتت.

قال عبد الوهاب[1] في حديثه: فكانت أولَ أزواج النبي ﷺ لحُوقًا به[2].

فهذا موقف رفيع في الزهد والكرم من أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها، حيث فزعت من ذلك المال الذي كان عطاءَها السنوي، وقد استترت من ذلك المال بثوب وكأنما صُوِّرت لها النار متمثِّلةً بذلك المال، ولم يَقِرَّ لها قرار حتى فرَّقت ذلك المال على أقاربها، وأخيرًا دعت على نفسها بعدم البقاء خشية الافتتان بالدنيا، وهذا دليل على كمال الزهد والخشية.

من أخبار سلمان رضي الله عنه:

ومن أخبار زهد الصحابة رضي الله عنهم ما أخرجه الإمام الطبراني من حديث شقيق بن سلمة قال: دخلتُ أنا وصاحب لي إلى سلمان الفارسي رضي الله عنه، فقال سلمان: لولا أن رسول الله ﷺ نهى عن التكلف لتكلَّفْتُ لكم، ثم جاء بخبز وملح، فقال صاحبي: لو كان في ملحنا صعتر، فبعث سلمان بِمطهرته فرهنها، ثم جاء بصعتر، فلما أكلنا قال صاحبي: الحمد لله الذي قنَّعنا بما رزقنا، فقال سلمان: لو قَنِعْتَ بما رزقك لم تكن مطهرتي مرهونة.

ذكره الحافظ الهيثمي وقال: ورجاله رجال الصحيح غير محمد بن منصور الطوسي وهو ثقة[3].

(١) يعني عبد الوهاب بن عطاء الذي روى عنه ابن سعد.
(٢) طبقات ابن سعد ٨ / ١٠٩ - ١١٠.
(٣) مجمع الزوائد ٨ / ١٧٩.

فهذا مثال في الزهد والقناعة يقدمه صاحب من أكابر أصحاب النبي ﷺ.

لقد كان بإمكان سلمان رضي الله عنه أن يملك الكثير من المال، وأن يقدم لضيوفه الكثير من الطعام، ولكنه كان يتصدق بعطائه ويأكل متقشِّفًا من عمل يده، ويقدِّم لضيوفه ما تيسر له ليجعل من نفسه قدوة للتابعين في الزهد والقناعة.

ومع هذا الزهد البالغ فإنه لما حضره الموت كان يبكي من خشية الله تعالى كما رُوي عن ثابت البناني قال: لما مرض سلمان خرج سعد[1] من الكوفة يعوده، فقدم فوافقه وهو في الموت يبكي، فسلم وجلس وقال: ما يبكيك يا أخي؟ ألا تذكر صحبة رسول الله ﷺ؟ ألا تذكر المشاهد الصالحة؟

قال: والله ما يبكيني واحدة من ثنتين: ما أبكي حُبًا بالدنيا ولا كراهية للقاء الله، قال سعد: فما يبكيك بعد ثمانين؟ قال: يبكيني أن خليلي عهد إليَّ عهدًا قال: «**لِيَكُنْ بلاغ أحدكم من الدنيا كزاد الراكب**» وإنا قد خشينا أنا قد تعدينا[2].

فهذا عجيب أن تبلغ الخشية عند سلمان رضي الله عنه إلى هذا الحد مع أنه ضرب الأمثلة الرائعة في الزهد والورع، فهو الذي كان يسكن في بيت من الخوص وهو أمير المدائن!

إنه الإيمان القوي الذي يصنع العجائب، حيث يصفو التفكير فيكون منطلقا نحو الآخرة وما فيها من حساب وجزاء فيتصور صاحبه أنه قد قصَّر في عمل الآخرة مع أنه قد بلغ درجات عالية في الكمال.

لقد كانت أقوال الرسول ﷺ وتوجيهاته الحكيمة ماثلة أمام أعين الصحابة رضي الله عنهم طوال حياتهم فكانت سدًا منيعًا يحول بينهم وبين التوغل في الدنيا.

لقد كانوا يسمعون منه ﷺ بوعي وإدراك وعزم أكيد على التنفيذ، ثم يطبقون حالاً ما سمعوا عمليا، لا يعتريهم الكسل، ولا يدبُّ إلى حياتهم طول الأمل، ولا تزيدهم سِنِيُّ العمر الطويلة إلا مضاعفةً في الخشية ومزيدًا من العمل الصالح وترقِّيًا في مدراج التقوى والحذر من الفتن.

---

(١) يعني سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه

(٢) سير أعلام النبلاء ١/٥٥٦.

ومن أمثلة اتصافه باليـقين المبني على قوة الخشية والرجاء مـا أخرجه الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر بُقَيرةَ امرأة سلمان الفارسي رضي الله عنه قالت: لما حضر سلمان الموتُ دعاني وهو في عِلِّية لها أربعـة أبواب، فقال: افتحي هذه الأبواب يا بقـيرة فـإن لي اليـوم زوارًا لا أدري من أي هذه الأبواب يدخلون علي، ثم دعـا بِمسْك له ثم قال: أديفيه في تَوْر[1]، ففعلتُ، ثم قال: انضحيه حول فراشي، ثم انزلي فامكثي فسوف تَطَّلعين فترَيْني على فراشي، فاطَّلعت فإذا هو قد أُخِذَ روحُه فكأنه نائم على فراشه -أو نحوًا من هذا- [2].

ففي هذا الخبـر يخبر سلمان رضي الله عنه بقرب مـجيء الملائكة عليهم السلام لقبض روحه، ويستقبل هذا الحديث المرتقب بفـرح واستبشار، وهو مثل من عمق اليقين وبروز أحداث الآخرة في أذهان الصحابة رضي الله عنهم.

فكم من الناس يحـضره مـلائكة الموت لقبض روحـه وهو ساهٍ لاهٍ في دنـياه، يضـرب بفكره في طول الأرض وعرضـهـا، وكأنه آمِنٌ من ملك الموت، أو كـأنه يعيش فـي دار خلود.. ألا وإن دار الخلود هي التي نسيـها ولها عنهـا بمطالب دار فانية.

وإذا كان كـثيـر من الناس على هذه الشـاكلة فإن صـحابة رسـول الله ﷺ لم يكونوا كذلك، بل كانوا ينظرون إلى الآخرة كَـجَبَل عظيم شاهق يُساق الناس إليه بما فيـه من نعيم وجحـيم، وهم في مسيـرهم قد طمحت أبصـارهم لذلك الجبل متناسين ما يمرون به في طريقهم من رياض تُمتِّع أنظارهم، غير مبالين بما يفاجَؤون به من حجارة وأشواك تُدمى أقدامهم.

ونجد سلـمان رضي الله عنه وهو ينتظر ذلك اليـوم الذي سيـزوره فيه مـلائكة الموت قد أعد شيئًا من الطيب الفاخـر الذي حرم منه نفسه ليقدمه لزائريه من رسل الله جل وعلا.. وهـذا مظهر عـال من مظاهر اليقين ونفـحة من شـفافـية الروح سَمَتْ حتى ظهرت على مطالب الجَسد، فأصـبحت مطالب الجسد مسخَّرة لمطالب الروح.

---

(١) أديفيه أي اخلطيه، والتور إناء يوضع فيه الماء.

(٢) حلية الأولياء ١/٢٠٨، وانظر سير أعلام النبلاء ١/٥٥٣.

من أخبار ثابت بن قيس رضي الله عنه:

ومن ذلك ما أخرجه الإمام مسلم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ**﴾ [الحجرات: ٢] جلس ثابت بن قيس في بيته وقال: أنا من أهل النار، واحتبس عن النبي ﷺ فسأل النبي ﷺ سعد بن معاذ فقال: **يا أبا عمرو ما شأن ثابت أَشْتَكَى؟** قال سعد: إنه لجَاري وما علمت منه بشكوى، قال: فأتاه سعد فذكر له قول النبي ﷺ فقال ثابت: أُنزلت هذه الآية ولقد علمتم أني من أرفعكم صوتًا على رسول الله فأنا من أهل النار، فذكر ذلك سعد للنبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ: **بل هو من أهل الجنة.**

وفي رواية لمسلم من حديث أنس قال: كان ثابت بن قيس بن شماس خطيب الأنصار.. وذكر نحوه[1].

وجاء في رواية أبي عبد الله الحاكم لهذا الخبر أن النبي ﷺ قال: **يا ثابت ألا ترضى أن تعيش حميدًا وتقتل شهيدا وتدخل الجنة؟** قال: بلى يا رسول الله، فعاش حميدا وقُتل شهيدا يوم مسيلمة الكذاب.

وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه بهذه السياقة، وأقره الذهبي[2].

وهكذا بلغت الخشية بثابت بن قيس بن شماس إلى حد المرض، مع أنه لم يكن مقصودًا بتلك الآية، ولكن لَمَّا كان خطيب النبي ﷺ في المناسبات خشي أن يكون رَفَع صوته فوق صوته فأصابه ما أصابه، وهذا دليل على قوة إيمانه وشدة استحضاره للحياة الآخرة، وكانت تلك الخشية من ثابت وما تبعها من تأثره سببًا في حصوله على تلك البشارة الغالية من رسول الله ﷺ.

من أخبار عبد الله بن عمر رضي الله عنهما:

وعن حمزة بن عبد الله بن عمر رحمه الله ورضي عن أبيه وجده عن عبد الله بن عمر قال: خطرت هذه الآية ﴿**لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ**﴾ [آل

(١) صحيح مسلم، الإيمان رقم ١١٩ ص ١١٠.
(٢) المستدرك ٣/ ٢٣٤.

عمران: ٩٢] فتذكرت ما أعطاني الله فما وجدت شيئًا أحب من جاريتي رميثة، فقلت: هذه حرة لوجه الله، فلولا أني لا أعود في شيء جعلته لله لنكحتها، فأنكحها نافعا وهي أم ولده[١].

فهذا مثل من الإسراع في فعل الخيرات وتطبيق التوجيهات الإلهية وإن كانت من النوافل التي تقاوم رغبات النفس وأهوائها.

وهكذا يحلق السابقون بالخيرات فى أجواء عالية من الاستقامة ونسيان الذات في سبيل السمو نحو تطبيق الأهداف العليا للإسلام.

إن هوى النفس يظل مسيطرًا على سلوك الإنسان مادام فكره يدندن حول المستقبل الدنيوي، ولكن حينما يكون المستقبل الأخروي هو الذي يشغل فكر الإنسان فإنه يتنازل طوعًا واختيارا عن كثير من هواه ليحول ذلك إلى عمل صالح يرفع رصيده في الحياة الآخرة.

ومن ذلك ما رواه الحافظ أبو نعيم من حديث قزعة قال: رأيت على ابن عمر ثيابا خشنة -أو جشبة-[٢] فقلت له: يا أبا عبدالرحمن إني أتيتك بثوب ليِّن مما يُصنع بخراسان، وتقرُّ عيناي أن أراه عليك، فإن عليك ثيابا خشنة -أو جشبة- فقال: أَرِنيه حتى أنظر إليه قال: فلمسه بيده وقال: أحريرٌ هو؟ قلت لا إنه من قطن. قال: إني أخاف أن ألبسه، أخاف أن أكون مختالا فخورا، والله لا يحب كل مختار فخور[٣].

وهكذا ترك عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ذلك اللباس مع أنه مباح خشية مشابهة أهل الفخر والخيلاء، وفضَّل البقاء على لباسه الخشن لأنه أقرب إلى الزهد والتواضع.

ومن مواقفه رضي الله عنه في الخشية من الله تعالى ما رواه الإمام أحمد من حديث البراء بن سليم قال: سمعت نافعًا يقول: ما قرأ ابن عمر هاتين الآيتين قط من آخر سورة البقرة إلا بكى ﴿**وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ**﴾ [البقرة: ٢٨٤] ثم يقول: إن هذا لإحصاء شديد[٤].

---

(١) صفة الصفوة ١/ ٥٦٨.
(٢) أي غليظة.
(٣) الحلية ١/ ٣٠٢.
(٤) صفة الصفوة ١/ ٥٧٦.

وهذا يُعدُّ مثلا عاليًا في تدبر كتاب الله عز وجل وحضور القلب معه وشدة الخشية منه بالرغم من تكرر تلاوته كثيرا، وإن من يتصور حقيقةً أن الله تعالى سيحاسبه على ما يُخفي ويعلن فإن خوفه من الله تعالى يعظم ومحاسبته لنفسه تشتدّ.

ومثل آخر رواه هشام بن يحيى الغساني عن أبيه قال: وجاء سائل إلى ابن عمر فقال لابنه: أعطه دينارا، فلما انصرف قال له ابنه: تقبل الله منك يا أبتاه، فقال: لو علمت أن الله يقبل مني سجدة واحدة وصدقة درهم لم يكن غائب أحب إليَّ من الموت، أتدري مِمَّن يتقبل؟ إنما يتقبَّل الله من المتقين[1].

وواضح أن مقصود ولد عبد الله بن عمر هو الدعاء لا الخبر، والدعاء جائز بل مطلوب من المسلم لأخيه، ولكن من شدة خشية ابن عمر من الله تعالى فإنه قارن حالاً بين التقوى وقبول العمل، فخشي أن لا يكون من المتقين.

وهذا تواضع عظيم منه حيث لم يَعدَّ نفسه من المتقين مع أنه من أئمَّتهم حيث إنه من السابقين بالخيرات، واستحضار سريع لكتاب الله تعالى وما فيه من هداية وبيان، وإنما يدل ذلك على كثرة تلاوة كتاب الله تعالى مع التدبر لمعانيه.

وهذا منهج بليغ فى التربية حيث يشدُّ سامعيه إلى بذل الجهد للوصول إلى درجة المتقين ليتقبَّل الله تعالى أعمالهم الصالحة.

وفيه فهم دقيق لمهمة المسلم في هذه الحياة، حيث أحب الانتقال إلى الآخرة لو ضمن أن الله تعالى تقبَّل منه عمله الصالح، ولكنه يواصل العمل عَلَّهُ يظفر بقبول من الله جلا وعلا.

ومثل آخر رواه سمير الرياحي عن أبيه قال: شرب عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ماءً مُبَرَّدًا فبكي فاشتد بكاؤه، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: ذكرت آية في كتاب الله عز وجل ﴿**وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ**﴾ [سبأ: ٥٤] فعرفت أن أهل النار لا يشتهون شيئًا شهوتهم الماء وقد قال الله عز وجل -يعني عن أهل النار- ﴿**أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ**﴾ [الأعراف: ٥٠][2].

(١) صفة الصفوة ١/ ٥٨٦.

(٢) صفة الصفوة ١/ ٥٧٨.

وهو واقع مؤثر يدل على يقظة الضمير وصدق تمثُّل معاني الإسلام في النفوس.

إن صاحب القضية الذي يعيش لأجلها لابد أن يبرزها في كل مناسبة، وإن القضية التي كانت تهيمن على حياة ابن عمر هي الحياة الآخرة وما فيها من مشاهد أهل الجنة وأهل النار.

فحينما جيء له بالماء المبرَّد تذكّر حالاً عذاب أهل جهنم وقول الله تعالى ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ وقوله عنهم ﴿أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ﴾ فتذكر أن أشهى شيء إلى أهل النار هو الماء، فحصل له ما حصل من هذا التأثر والبكاء الشديد.

وذكر ابن الجوزي خبرًا عن سفيان قال: أراد ابن عمر مرة الصَّدَر من مكة فاتَّخذَ له ابن صفوان سفرة -يعني طعامًا لسفره- من نقيٍّ وفالوذج وأخبِصَة -يعني ألوانًا من الطعام الفاخر- وبعث بها إليه، فأُتي بها، فلما نظر إليها بكى وقال: ما هكذا كنا، ما شبعت منذ أسلمت، وأمر بها فقسمت على أهل الماء، ودعا بسفرته وقال: لا خير إلا فيما يبقى نفعه غدا[1].

الله أكبر ما أعظمه من موقف!

إذا كنت يا ابن عمر تبكي لرؤية مظاهر الدنيا وشيء من حياة الترف فَلَكمْ بكى أناس حسرة على الحرمان منها!

ولكن ما أبعد الفرق بين مطلبك الأسمى ومطالب هؤلاء الدَّنِيَّة!

إنه يمثِّل البُعْد الشاسع بين منزلة الآخرة ومنزلة الدنيا.

وإذا كان أبناء الدنيا من أجلها يعملون ومن أجلها يفرحون ويحزنون، فهنيئًا لك يا ابن عمر أن حَظيتَ بتوفيق الله تعالى لتكون من عباد الله المخلصين الذين وضعوا نُصْب أعينهم في هذه الحياة ذلك الهدف الأعلي، ألا وهو ابتغاء رضوان الله تعالى والجنة.

---

(١) صفة الصفوة ١/ ٥٧٥

من أخبار سعيد بن عامر بن حِذْيَم رضي الله عنه:

أخرج الحافظ أبو نعيم من خبر عبدالرحمن بن سابط قال: دعا عمر بن الخطاب رجلا من بني جمح يقال له سعيد بن عامر بن حذيم فقال له: إني مستعملك على أرض كذا، فقال له: لا تفتنِّي يا أمير المؤمنين فقال: والله لا أدعك، قلدتموها في عنقي وتركتموني، فقال عمر -يعني بعد أن ولاه على عمله-: ألا نفرض لك رزقا؟ قال: قد جعل الله في عطائي ما يكفيني دونه -أو فضلا على ما أريد-.

قال: وكان إذا خرج عطاؤه ابتاع لأهله قوتهم وتصدق ببقيته، فتقول امرأته: أين فضل عطائك؟ فيقول لها: قد أقرضته، -يعني بذلك الصدقة- فأتاه ناس فقالوا: إن لأهلك عليك حقا ولأصهارك عليك حقا، فقال: ما أنا بمستأثر عليهم ولا بملتمس رضا أحد من الناس لطلب الحور العين، ولو اطلعت خَيْرة من خيرات الجنة لأشرقَتْ لها الأرض كما تشرق الشمس، وما أنا بمتخلف عن العُنُق الأول بعد أن سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يجمع الله عز وجل الناس ليوم الحساب فيجيء فقراء المؤمنين فَيَزِفُّون كما يَزِفُّ الحمام -يعني يسرعون- فيقال لهم: قفوا عند الحساب فيقولون: ما عندنا حساب ولا آتيتمونا شيئًا**[1]، **فيقول لهم ربهم: صدق عبادي، فيفتح لهم باب الجنة فيدخلونها قبل الناس بسبعين عاما**».

فبلغ عمرَ أنه يمر به كذا وكذا لا يدخَّن في بيته، فأرسل إليه عمر بمال. فأخذه فصرَّره صررا فتصدق به يمينا وشمالا، وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لو أنَّ حوراء أَطْلَعت إصبعا من أصابعها لوجد ريحها كل ذي روح**» فأنا أدعهن لكنّ! فوالله لأنتن أحرى أن أدَعكُنَّ لَهُنَّ منهنَّ لكُنَّ[2].

وعن مالك بن دينار قال: لما أَتَي عمر رضي الله عنه الشام طاف بِكُوَرِها -يعني قراها- قال: فنزل بحضرة حمص فأمر أن يكتبوا له فقراءهم، قال: فَرُفع إليه الكتاب فإذا فيه سعيد بن عامر بن حِذْيَم أميرها، فقال: من سعيد بن عامر؟ قالوا

(١) فى الإصابة لابن حجر من رواية أبي يعلى والحسن بن سفيان والبغوي «والله ما كان لنا شيء نحاسب عليه» -٢/ ٤٧-.

(٢) حلية الأولياء ١/ ٢٤٦، صفة الصفوة ١/ ٦١١.

أميـرنا، قال: أميركم؟ قـالوا: نعم، فعجب عـمر، ثم قال: كيف يكون أمـيركم فقيرا؟ أين عطاؤه؟ أين رزقه؟[1].

قالوا: يا أمير المؤمنين لا يمسك شيئًا، قال: فبكى عمر، ثم عمد إلى ألف دينار فصرها ثم بعث بهـا إليه وقال: أقرئوه مني السلام وقولوا: بعث بهـذه إليك أمير المؤمنين تسـتعين بها على حـاجتك، قـال: فجاء بهـا إليه الرسول فـنظر فإذا هي دنانير، قال: فـجعل يسترجع، قال: تقـول امرأته: ما شأنك يا فلان أمـات أمير المؤمنين؟ قال: بل أعظم من ذلك، قـالت: فما شأنك؟ قال: الدنيـا أتتني، الفتنة دخلت علي، قالت: فاصنع فـيها ما شئت، قال: عندك عـون؟ قالت: نعم قال: فأخـذ دريعة -يعني ثوبا- فصرَّ الدنـانير فيهـا صرارا، ثم جعلها في مـخلاة، ثم اعترض جيشًـا من جيوش المسلمين فأمضاها كلها، فـقالت امرأته: رحمك الله لو كنت حبست منهـا شيئا نستـعين به، قال: فقال لها: إني سـمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لو اطَّلعَت امرأة من نساء الجنة إلى أهل الأرض لَمُلأَتْ ريح مسك، وإني والله ما كنت لأختارك عليهن، فسكتَتْ**»[2].

من أخبار أبي سعيد الخدري رضي الله عنه:

ذكـر الحافظ ابن الجـوزي من خـبر أبـي سعـيد الخـدري رضي الله عنه قـال: أصبحت وليس عندنا طعام وقد ربطت حـجرًا من الجوع، فقالت لي امرأتي: ائت رسول الله ﷺ فـاسأله فقد أتاه فـلان فسأله فـأعطاه، وأتاه فلان فسـأله فأعطاه، فـقلت: لا حتى لا أجـد شيـئـا، فطلبت فلم نجد شـيـئًا فـأتيت النبي ﷺ وهو يخطب، فأدركت من قوله: «**من يستـغن يغنه الله ومن يستعفف يعـفه الله**» قال: فما سألت أحـدا بعده، ومـازال الله يرزقنا حتى مـا أعلم أهل بيت من الأنصار أكـثر أموالا منا، رضي الله عنه[3].

فهذا مـثل من العفة عن المال مع الضرورة إليه طلبًـا لرضوان الله تعالى، وهذا مثل من اليـقين والثقة بوعد الله جـل وعلا، فأبو سعـيد سعد بن مـالك الخدري

(١) العطاء هو الذي يشترك فيه جميع أفراد الأمة، والرزق هو المال الذي يأخذه الولاة مقابل التفرغ للولاية.
(٢) صفة الصفوة ١/ ٦٦٤.
(٣) صفة الصفوة ١/ ٧١٥، وقول النبي ﷺ أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٣/ ٤.

رضي الله عنه ما أن سمع كلام النبي ﷺ في الحث على العفة وما اشتمل عليه من الوعد بإغناء الله سبحانه للعبد المحتاج وإعفافه برزق من عنده إذا هو أعف نفسه عن المسألة حتى ترك ما كان عازما عليه من ذلك واستمر على تلك العفة حتى رأى تحقق وعد الله جل وعلا فيه، فكان بعد ذلك من الأغنياء.

من أخبار سهيل بن عمرو رضي الله عنه:

ذكر الحافظ ابن الجوزي عن ابن قمادين قال: لم يكن من كبراء قريش الذين تأخر إسلامهم فأسلموا يوم فتح مكة أكثر صلاة ولا صوما ولا صدقة ولا أقبل على ما يعنيه من أمر الآخرة من سهيل بن عمرو، حتى إن كان لقد شَحب لونه، وكان كثير البكاء رقيقًا عند قراءة القرآن، لقد رئي يختلف إلى معاذ بن جبل يقرئه القرآن وهو بمكة حتى خرج معاذ من مكة فقال له ضرار بن الخطاب: يا أبا يزيد تختلف إلى هذا الخزرجي يقرئك القرآن؟ ألا يكون اختلافك إلى رجل من قومك من قريش؟ فقال: يا ضرار هذا الذي صنع بنا ما صنع حتى سبقنا كل السبق، أي لعمري أختلف إليه، لقد وضع الإسلام أمر الجاهلية، ورفع الله بالإسلام قومًا كانوا لا يُذكرون في الجاهلية، فليتنا مع أولئك فتقدمنا[1].

فهذا الخبر يحتوي على قبس من نور الهداية بعد ظلام الغواية، فلقد كان أبو يزيد سهيل بن عمرو بن عبد شمس القرشي من أعظم المناوئين للإسلام قبل فتح مكة، وهو الذى أبرم شروط الصلح الجائرة على المسلمين يوم الحديبية، ولكنه بعدما اهتدى إلى الإسلام تحول إلى إنسان آخر. لقد كان الهدف الذي يسعي له قبل أن يسلم هو أن يكتسب شيئًا من مجد الدنيا وعزها، ولم يكن يؤمن بالآخرة حتى يحسب لها حسابا، وكان من أجل المجد الدنيوي يقف ضد دعوة الإسلام بإصرار وشدة، لأن الإسلام فى نظره -يحجب عنه المنزلة الاجتماعية العالية التي وصل إليها، ولكنه بعد أن أسلم أدرك أن الهدف الأعلى للإنسان هو ابتغاء رضوان الله تعالى والسعادةُ الأخروية، وعرف أن الدنيا بما فيها من مال ومجد ما هي إلا معبر للآخرة، فأدرك بثاقب بصره أن الاشتغال بالدنيا عن الآخرة حماقة وطيش، وأن العقل السليم يقتضي منه أن يشتغل بالغاية، وأن يسخر لها الوسيلة، فكان

(١) صفة الصفوة ١/ ٧٣١ - ٧٣٢.

مكبًا على الأعمال الصالحة من صلاة وصيام وصدقة وجهاد، حتى مات شهيدا يوم اليرموك رضي الله عنه.

ومن قوة دينه ورسوخ يقينه أنه لم يلتفت للعصبية القبلية، فجعل من نفسه وهو الكبير السن والمنزلة في قومه تلميذا لأحد شباب الأنصار يعلمه القرآن، ولما اعترض عليه في ذلك ضرار بن الخطاب، أبان له بأن تلك التفرقة القبلية والاعتزاز بالقوم من أمر الجاهلية، وأظهر فضل السابقين إلى الإسلام وإن كانوا مملوكين فضلا عن أن يكونوا من قبائل أخرى.

من أخبار أبي هاشم بن عتبة رضي الله عنه:

ومن ذلك ما أخرجه أبو عيسى الترمذي والنسائي من حديث أبي وائل رضي الله عنه قال: جاء معاوية إلى أبي هاشم بن عتبة وهو مريض يعوده، فوجده يبكي، فقال: يا خالُ ما يبكيك؟ أَوَجع يشئزك [أي يقلقك] أم حرصٌ على الدنيا؟ قال: كلا، ولكنَّ رسول الله عهد إلينا عهدا لم آخذ به، قال: وما ذلك؟ قال: سمعته يقول: إنما يكفي من جمع المال خادم ومركب في سبيل الله، وأجدني اليوم قد جمعت(١).

وفي رواية: فلما مات حُصِّل ما خلَّف فبلغ ثلاثين درهما، وحُسبتْ فيه القصعة التي كان يعجن فيها وفيها كان يأكل(٢).

فهذا مثل من الخوف من الله تعالى وإحساس قوي ودقة في محاسبة النفس من هذا الصحابي الجليل أبي هاشم بن عتبة بن ربيعة القرشي، حيث ذكر وهو مريض ما أوصاهم به رسول الله ﷺ من الزهد في الدنيا والتقلل منها، فبكى من خشية الله تعالى، مع أنه كان من الزاهدين، حيث لم يبلغ ما خلَّفه بعد موته ثلاثين درهما، ولكن من شدة خشيته تصور ما عنده من القليل كثيرا، وهذا دليل على قوة الإيمان وشدة استحضار عظمة الله تعالى والدار الآخرة.

---

(١) سنن الترمذي رقم ٢٣٢٨ في الزهد، باب في هم الدنيا وحبها، سنن النسائي/ ٨/ ٢١٨ في الزينة، باب اتخاذ الخادم.

(٢) جامع الأصول ١/ ٦١٢.

وهذا الذي بكى مما تصوَّر عدم تحـقيقه ليس واجبا شرعـا، لأنه لم يترك واجبا ولم يرتكب محرمـا، وإنما هو من كمال الدين، ولكنَّ أهلَ الطمـوح نحو الكمال في الدين يسؤوهم ويقضُّ مـضاجعهم ما يشعـرون به من نقص في الحسنات وهمْ قادرون على أن يبلغوا الكمال.

من أخبار عبد الله بن السعدي رضي الله عنه:

من ذلك ما أخرجه الإمام البخاري من حديث حويطب بن عبدالعزى رضي الله عنه أن عبد الله بن الـسعدي رضي الله عنه[1] أخبره أنه قـدم على عمر رضي الله عنه في خلافته فـقال له عمر: ألم أحدَّث أنك تلي من أعمـال الناس أعمالا فإذا أُعطيت العُمالة كرهتها؟ فقلت: بلى، فقال عمر: ما تريد إلى ذلك؟ قلت: إن لي أفراسًا وأعبدا وأنا بخير، وأريد أن تكون عمالتي صدقة على المسلمين، قال عمر: لا تفعل فإني كنت أردت الذي أردت فكان رسـول الله ﷺ يعطيني العطاء فأقول: أعطه أفقـر مني حتى أعطاني مرة مـالا فقلت: أعطه أفـقر إليه مني، فـقال النبي ﷺ: «**خذه فتموَّله وتصدق به، فمـا جاءك من هذا المال -وأنت غير مشرف ولا سائل- فخذه، وإلا فلا تتبعه نفسك**»[2].

فهـذا من أمثلة العفـة، حيث كان عـبد الله بن السعـدي رضي الله عنه يعمل للمسلمين أعمالا يستحق عليها الأجرة، ثم يأبي أن يأخذها ليكون أجره الأخروي كامـلا، فأرشده أمـير المؤمنين عمـر رضي الله عنه إلى ما أرشـده إليه النبي ﷺ، حيث يجـمع بين عملين صالحين: التعـفف عن مال المسلمين العام، والتـصدق به على الفقراء.

من أخبار الأمم الماضية:

من ذلك ما ذكره وهب بـن منبه اليماني قال: أتَى رجل مـن أفضل أهل زمانه إلى ملك كـان يفتن النـاس على أكل لحم الخنزير، فـأعْظمَ الناس مـكانه وهالَهم أمره، فقـال له صاحب شرطة الملك -سرًا بينه وبينه-: أيهـا العالم اذبح جديًا مما

(١) هو من بني عبد شـمس العامري القرشي وإنما قيل له السعـدي لأنه كان مسترضعًا في بنـي سعد (الفتح ١٣/ ١٥١).

(٢) صحيح البخاري رقم ٧١٦٣، الأحكام (١٣/ ١٥٠).

يحل لك أكله ثم ادفعه إليَّ حتى أصنعه لك على حِدتَه، فإذا دعا الملك بلحم الخنزير أمرتُ به فوُضع بين يديك فتأكل منه حلالا، ويرى الملك والناس أنك إنما أكلت لحم الخنزير، فذَبح ذلك العالم جديًا، ثم دفعه إلى صاحب الشرطة فصنعه له، وأمر الطباخين إذا أمر الملك بأن يقدَّم إلى هذا العالم لحمُ الخنزير أن يضعوا بين يديه لحم هذا الجدي، واجتمع الناس لينظروا أمر هذا العالم فيه، أيأكل أم لا! وقالوا: إن أكل أكلنا وإن امتنع امتنعنا، فجاء الملك فدعا لهم بلحوم الخنازير فوُضعت بين أيديهم، ووُضع بين يدَي العالم لحمُ ذلك الجدي الحلال المذكَّى.

فألهم الله ذلك العالم فألقى في رُوعه وفكره، فقال: هبْ أني أكلت لحم الجدي الذي أعلم حلَّه أنا فماذا أصنع بمن لا يعلم؟ والناس إنما ينتظرون أكلي ليقتدوا بي، وهم لا يعلمون إلا أني إنما أكلت لحم الخنزير، فيأكلون اقتداء بي فأكون ممَّن يحمل أوزارهم يوم القيامة، لا أفعل والله وإن قُتلت وحُرِّقت بالنار، وأبى أن يأكل، فجعل صاحب الشرطة يغمز إليه ويومئ إليه ويأمره بأكله، أي إنما هو لحم الجدي، فأَبي أن يأكل، ثم أمره الملك أن يأكل فأبي فألحُّوا عليه فأبي، فأمر الملك صاحب الشرطة بقتله.

فلما ذهبوا به ليقتلوه قال له صاحب الشرطة: ما منعك أن تأكل من اللحم الذي ذكَّيتَه أنت ودفعتَه إلي؟ أظننت أني أتيتك بغيره وخُنتك فيما ائتمنتني عليه؟ ما كنت لأفعل والله، فقال له العالم: قد علمت أنه هو ولكن خفت أن يتأسى الناس بي، وهم إنما ينتظرون أكلي منه ولا يعلمون إلا أني إنما أكلت لحم الخنزير وكذلك كل من أريد على أكله فيما يأتي من الزمان يقول: قد أكله فلان، فأكون فتنةً لهم، فقُتل رحمه الله[1].

فهذا الخبر من روائع الأخبار التي حفظها وهب بن منبه اليماني رحمه الله تعالى عن أهل الكتاب، ورواية هذا الخبر وأمثاله جائزة لقول رسول الله ﷺ «**حدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج**»[2] ولكونه موافقا لما جاء في شريعة الإسلام.

---

(١) البداية والنهاية ٩/ ٤.

(٢) صحيح البخاري، أحاديث الأنبياء، رقم ٣٤٦١ (٦/ ٤٩٦).

وقد كان وهب بن منبه من أوعيــة العلم، ومن أهل الصلاح والعبادة، وهو من التابعين.

أما ذلك العــالم الرباني الذي أخبــر عنه وهب فقد كــانت همتــه متوجــهة إلى الآخرة وإلى تذكُّــر موقفه للحســاب بين يدي الله تعالى، فقد تذكَّــر أن الله تعالى سائله عن تلك الأمة التي ستــقتدي به وسترتكب الإثم بسببه، فــحالفه توفيق الله تعالى وهداه عــقله السليم إلى أن النجــاة من عذاب الدنيا مطــلب رخيص لأنه لا يعادل ذرة من عذاب الآخــرة، وأن سعادة الدنيا لا تعدل ذرة من ســعادة الآخرة، فقرر الامتناع من أكل ذلك اللحم مع يقينه بأنه اللحم الحلال، حتى لا يفتن الناس في عصره ومن يأتون بعد ذلك، حيث إنه سيظهر للناس أنه قد أكل لحم الخنزير.

وهذا مثل رفــيع في الورع والخشيــة، وذلك مبني على المحــافظة على استقــامة الناس وهدايتهم، وهذا مطلب مهم في الإسلام.

هذا وإن الورع من أفضل الــعبادات كــما جاء في قــوله رسول الله ﷺ: «**يا أبا هريرة كن ورعًا تكن أعبد الناس**» أخرجه الإمام ابن ماجة، وقال البوصيري: إسناده حسن[1].

من أخبار أبي مسلم الخولاني رحمه الله:

من الأخبــار الواردة في ذلك ما ذكــره الحافظ أبو نعــيم في ترجمة أبــي مسلم الخولاني رحمه الله تعالى من حديث عثمان بن عطاء عن أبيه قال: كان أبو مسلم الخولاني إذا انصرف إلى منزله من المسجد كبَّــر على باب منزله فتكبِّر امرأته، فإذا كان في صــحن داره كبر فتــجيبــه امرأته وإذا بلغ باب بيتــه كبر فــتجيبــه امرأته، فانصرف ذات ليلة فكبَّر عند باب داره فلم يجبه أحد فلما كان في الصحن كبَّر فلم يجبه أحد فلما كــان عند باب بيته كبر فلم يجبه أحــد، وكان إذا دخل بيته أخذَت امرأته رداءه ونعلــيه، ثم أتته بطعــامه، قــال: فدخل البيت فــإذا البيت ليس فــيه سراج، وإذا امرأته جالســة في البيت منكِّسة تَنكُتُ بعودٍ معها، فــقال لها: مَالَك؟ قالت: أنت لك منزلة من مــعاوية وليس لنا خادم، فلو سألتَــه فأخْدَمَنَا وأعطاك، فقال: اللهم من أفسد عليَّ امرأتي فأَعْمِ بصرها.

(١) سنن ابن ماجة رقم ٤٢١٧، كتاب الزهد.

قال: وقد جاءتها امرأة قبل ذلـك فقالت لها: زوجك له منزلة من معاوية، فلو قلت له يسأل معاوية يُخدِمه ويعطيه عِشْتُمْ.

قال: فبينا تلك المرأة جالسة في بيتـها إذ أنكرَتْ بصرها، فقالت: ما لسراجكم طَفِئَ؟ قالوا: لا، فعـرفَتْ ذنبها فأقبلتْ إلى أبي مـسلم تبكي وتسأله أن يدعو الله عز وجل لها أن يرد عليها بصرها.

قال: فرحمها أبو مسلم فدعا الله لها فردَّ عليها بصرها[1].

وأبو مسلم الخولاني هو عبـد الله بن ثُوَب الخولاني اشتهر بكنيتـه، كان مُجَاب الدعوة، وأبرز مـواقفه وقـوفه أمام الأسـود العنسي الذي ادَّعى النبوة. فـأوقد له العنسي نارا وألقاه فيها فلم تَضرَّه، وهذه من الكرامات المشهورة[2].

وقد جـاء في هذا الخبر أن أبـا مسلم إذا انصرف إلى بيـته كبَّـر، وهكذا يكون حضور القلب الصادق مع الله تعالى، فإيذانه أهله بحضوره تكبيرٌ لله تعالى، وكأنه يُشعِر أهله ومن في بيته بأن الله تعالى أكبر من كل شيء فلا يليق بالمسلم أن يَشْغَله عن الله تعالى شيء، وما الذكـر اللساني إلا تنبيه للقلب ليكون معـمورا بذكر الله جلا وعلا واستشعار عظمتـه وجلاله، وما وصل السابقون بالخيرات إلى ما وصلوا إليه إلا بمحاولة استدامة حضور القلب مع الله تعالى.

وكان أبو مـسلم يعيـش عيشـة الزهد والقناعة وكـان قد ربَّى امـرأته على هذه العـيشة، فـلا خادم عنده ولا يهـتم بشيء من كـماليـات الحياة الـتي قد يصـرفه الاشتغال بهـا عما هو أجل وأعلى وهو استدامة ذكر الله عـز وجل والاجتهاد في عبادته.

لقد كان زاهدًا في الدنيا مع مقدرته على اكتـسابها والتوسع فيها، وظلت امرأته معه في تلك الحيـاة سامعة له مطيعة إلى أن أنكر منهـا ذلك التصرف الذي طلبت فيه التوسع في المعيشة وتوفير الخادم لها ما دام له حَظْوة عند أمير المؤمنين.

---

(١) حلية الأولياء ٢/ ١٢٩.

(٢) وقد ذكر خبره هذا في كتاب «مواقف في الشجاعة والجرأة» للمؤلف.

لقد أدرك أبو مسلم حالاً أن امرأةً من ذوات الكيد والإفساد قد دخلت بيته فأفسدت عليه أهله، حيث حوَّلَتْ قناعتها ورضاها بذلك العيش المتواضع إلى سخط وتضجر ومطالبة برفع مستوى المعيشة حين تبين لها أن زوجها قادر على ذلك.

ولم يكن عند أبي مسلم سلاح يلجأ إليه إلا دعاء الله تعالى على من ظلمه وغيَّر عليه أهله، فدعا على المرأة التي فعلت ذلك بالعَمَى، فقد أفسدَتْ عليه بيته، ولعلها أن تفسد بيوت آخرين من أصحابه الزهاد، فيكون بذلك قد كفَّ شرها وشر غيرها ممن يبلغه خبرُها فيعتبر بها ويكفُّ عن إيذاء المؤمنين والمؤمنات.

وأصابت دعوته تلك المرأة ففقدت بصرها فجأة وأدركت سوء فعلها، كما تذكرت في الحال صلاح أبي مسلم فتبادر إلى ذهنها أنه قد دعا عليها.

وهكذا كانت هذه العقوبة التي نالتها تلك المرأة تذكيراً لها وعبرة لغيرها ممن يسيرون على ذلك الطريق.

ومن صفاته العالية عفة اللسان والزهد فى الدنيا والنظر إلى الآخرة، ومن أخباره فى ذلك ما رُوي عن علقمة بن مرثد قال: انتهى الزهد إلى ثمانية من التابعين، منهم أبو مسلم الخولاني فإنه لم يكن يجالس أحداً يتكلم في شيء من أمر الدنيا إلا تحوَّل عنه، فدخل ذات يوم المسجد فنظر إلى نفر قد اجتمعوا، فَرَجَا أن يكونوا على ذكر الله تعالى، فجلس إليهم وإذا بعضهم يقول: قدم غلامي فأصاب كذا وكذا، وقال آخر جهزت غلامي، فنظر إليهم وقال: سبحان الله أتدرون ما مثلي ومثلكم؟ كمثل رجل أصابه مطر غزير وابل فالتفت فإذا هو بمصراعين عظيمين فقال: لو دخلت هذا البيت حتى يذهب هذا المطر، فدخل فإذا البيت لا سقف له.. جلست إليكم وأنا أرجو أن تكونوا على ذكر وخير فإذا أنتم أصحاب دنيا.

وقال علقمة بن مرثد في وصف عبادته ومداومته على صيام النفل في كبر سنه: وقال له قائل حين كبُر ورَقَّ: لو قصرت عن بعض ما تصنع، فقال: أرأيتم لو أرسلتم الخيل في الحلَبة ألستم تقولون لفارسها: دعها وارفق بها حتى إذا رأيتم

الغاية لم تسْتَبْقُوا منها شيـئًا؟ قالوا: بلى، قال: فإني قد أبصرت الغاية، وإن لكل ساعة غاية، وغاية كل ساعة الموت، فسابق ومسبوق[1].

وهكذا كان هذا العابد الصالح يشق على نفسه بكثرة الصيام مع كبر سنه، ولما لامه في ذلك المشفقون عليه أقنعهم بهذا المثل البليغ رحمه الله وأسكنه فسيح جناته.

من أخبار سالم بن عبد الله رحمه الله:

من ذلك ما ذكره الحافظ ابن كثير في ترجمة سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب رحمه الله ورضي عن أبيه وجده، قال: ولما حج هشام بن عبد الملك - يعني يوم أن كان أمير المؤمنين- دخل الكعبة فإذا هو بسالم بن عبد الله، فقال: يا سالم سلني حاجة، فقال: إني لأستحيي من الله أن أسأل في بيته غيره، فلما خرج سالم خرج هشام في أثره فقال له: الآن قد خرجت من بيت الله فسلني حاجة، فقال سالم: من حوائج الدنيا أم من حوائج الآخرة؟ قال: من حوائج الدنيا، فقال سالم: إني ما سألت الدنيا من يملكها فكيف أسألها من لا يملكها؟![2].

فهذا مثل من تواضع أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك حيث كان يتفقد أهل العلم ويسأل عن حوائجهم ليقضيها، وهذا دليل على فضله وأخلاقه العالية.

ومثلٌ من الزهد البليغ والورع الدقيق يقدمه الفقيه العالم سالم بن عبد الله بن عمر، فهو من زهده في الدنيا لم يسأل الله تعالى شيئًا منها، وهو سبحانه المالك لكل شيء فكيف يسألها غيره؟ وهذا دليل على قوة إيمانه ورسوخ يقينه، حيث كان الهدف الأعلى من وجود الإنسان في هذه الحياة واضحًا أمامه، ألا وهو ابتغاء رضوان الله تعالى والجنة، كما قال الله جل وعلا في صفة الصحابة رضي الله عنهم ﴿**يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا**﴾ [الفتح: ٢٩] ففضل الله هو الجنة، ورضوانه أكبر من ذلك.

---

(١) صفة الصفوة ٤/ ١٠٩.

(٢) البداية والنهاية ٩/ ٢٤٤.

من أخبار طاوس بن كيسان رحمه الله:

ممن اشتهروا بالعفة والورع طاوس بن كيسان اليماني رحمه الله تعالى، ومن أخباره في ذلك ما ذكره الحافظ ابن كثير من خبر النعمان بن الزبير الصنعاني: أن الأمير محمد بن يوسف -أو أيوب بن يحيى- بعث إلى طاوس بسبعمائة دينار، وقال للرسول إن أخذها منك فإن الأمير سيكسوك ويحسن إليك.

قال: فخرج بها حتى قدم على طاوس الجند[1]، فقال: يا أبا عبد الرحمن نفقة بعث بها الأمير إليك، فقال: مالي بها من حاجة، فأراده على أخذها بكل طريق فأبى أن يقبلها، فغفل طاوس فرمى بها الرجلُ من كُوَّة في البيت ثم ذهب راجعًا إلى الأمير وقال: قد أخذها، فمكثوا حينًا، ثم بلغهم عن طاوس ما يكرهون -أو شيء يكرهونه- فقالوا: ابعثوا إليه فليبعث إلينا بمالنا فجاءه الرسول فقال المال الذي بعثه إليك الأمير رده إلينا، فقال: ما قبضت منه شيئا، فرجع الرسول إليهم فأخبرهم، فعرفوا أنه صادق، فقالوا: انظروا الذي ذهب بها إليه، فأرسلوه إليه، فجاءه فقال: المال الذي جئتك به يا أبا عبد الرحمن، هل قبضت منه شيئًا؟ قال: لا، قال فقام إلى المكان الذي رمى به فوجدها كما هي وقد بنت عليها العنكبوت، فأخذها فذهب بها إليهم[2].

وهكذا تحلَّى هذا العالم الجليل بالعفة والورع، فأبى أن يأخذ من ذلك المال الذي أراد به ذلك الأمير شراءه ليكسب ولاءه له، وإذا كسب ذلك فإنه سيظفر بولاء الكثيرين ممن يحبون ذلك العالم ويحترمونه، ولكن ذلك الأمير رأى أن موقف طاوس لم يتغير، وأنه مازال يقف منه موقف الناقد المصلح، فأراد أن يحرجه بطلب ذلك المال، وهو الذي يعرف جيدًا أن الإمام طاوس لن يدخر ذلك المال، وإنما سيقسمه على الفقراء، فكان الأمر على ما جاء في هذا الخبر ورجع الحرج على ذلك الأمير الذي انكشف قصده من إهداء ذلك المال، وهكذا يضرب علماء الإسلام أمثلة رائعة في الترفع عن الدنيا والسمو نحو رضوان الله جل وعلا ونعيم الآخرة.

---

(١) الجند جبل في اليمن ذكره ياقوت الحموي.

(٢) البداية والنهاية ٩/٢٤٦- ٢٤٧.

من أخبار عبد الملك بن مروان رحمه الله:

أخرج الحافظ ابن عساكر من خبر سعيد بن بشير عن أبيه: أن عبد الملك بن مروان حين ثقل[1] جعل يلوم نفسه ويضرب بيده على رأسه وقال: وددت أني كنت أكتسب يومًا بيوم ما يقوتني وأشتغل بطاعة الله.

فذكر ذلك لأبى حازم فقال: الحمد لله الذي جعلهم يتمنون عند الموت ما نحن فيه ولا نتمنى عند الموت ما هم فيه[2].

نعم فالعبرة بما يُختم للإنسان فيه من عمل، ولقد أدرك عبد الملك بن مروان أنه في أثناء إمارته وما قبلها قد سفك الدماء وظلم، ولما كان قد تربى على يد العلماء وحصل في شبابه علمًا كثيرًا فإنه قد أدرك عند وفاته أن ما كان يعمل له هو المجد الدنيوي وقد زال، وأنه كان الأولى به أن يعمل للمجد الأخروي ولو كان مغمورًا بسيط الحال يكتسب رزق كل يوم بيومه، وفى كلمة أبي حازم سلمة ابن دينار دلالة على تفوق العلماء الربانيين فى الرأي والحزم والتدبير.

من أخبار أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رحمه الله:

خبره مع سليمان بن عبد الملك بمناسبة البرق والرعد: أخرج الحافظ ابن عساكر من خبر عبد العزيز بن يزيد الأيلي قال: حج سليمان بن عبد الملك ومعه عمر بن عبد العزيز، فأصابهم ليلةً برقٌ ورعد، فكادت تنخلع أفئدتهم، فقال سليمان: يا أبا حفص هل رأيت مثل هذه الليلة قط أو سمعت بها؟! قال: يا أمير المؤمنين هذا صوت رحمة الله، فكيف لو سمعت صوت عذاب الله؟![3].

فهذا مثال على براعة عمر بن عبد العزيز في اغتنام الفرص للدعوة إلى الله تعالى وترقيق القلوب وإثارة الخشية فيها.

خروجه للنزهة والعبرة في ذلك: من مواقف عمر بن عبد العزيز رحمه الله في تذكر الآخرة وسرعة استحضاره لأهوالها ما ذكر ابن عبد الحكم قال: وخرج عمر ابن عبد العزيز مع سليمان بن عبد الملك إلى مخرج من مخارجه لم يكن عمر قدَّم

(١) أي نزل به مرض الموت. (٢) تاريخ دمشق ٣٧/ ١٥٧.

(٣) تاريخ دمشق ٤٥/ ١٥٣، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٣٠.

فيه ثقلا، فـبلغ المنزل فصار كل رجل إلى مضربه الذي قدَّمـه، وصار سليمان إلى حجرة، ثم فقد عـمر فقال: اطلبوه فما أراه قدَّم شيئًـا، فطُلب فوُجد تحت شجرة باكيا، فأُخـبر بذلك سليمان فدعاه فقال: مـا يبكيك يا أبا حفص؟ قال: أبكاني يا أمير المؤمنين أني ذكرت يوم القيامة، من قدَّم شيئًا وجده، ولم أقدم شيئًا فلم أجد شيئًا[1].

وهكذا رأينا مثـالا للوعي الدقيق والتـذكر البليغ لأهوال يوم القـيامة وأسـباب النجاة فيه، فحينما خرج عمر بن عبد العزيز ولم يُخْرِج معه متاعا ذهب كل إنسان بما أعد لنفسـه، وبقي عمر بدون شيء، وكان بإمكانه أن يطلـب من أمير المؤمنين سليمـان بن عبد الملك ما يشـاء وهو الأثير عنده، ولكن غلب عليه تذكـر الآخرة فأثار شجونه وأبكاه وشغله عن البحث عما يحتاجه من متاع الدنيا.

وهكذا تكون قلوب أهل اليقظة والتفكر، فإذا وقع الإنسان منهم في عسر وشدة تذكر شدائد يوم القيامة، فشغله التفكير فيها عن التألم لوضعه الحاضر في الدنيا.

وإذا أنعم الله عليه بنعم الدنيا تذكر عظمة نعـيم الآخرة فزهد في الدنيا، ودفعه ذلك إلى شكر المنعم جلا وعلا.

خبره مع الـغراب وما فيه من الـعبر: قال الحافظ ابن كثيـر: وقال عثمان بن زبر: أقبل سليـمان بن عبـد الملك وهو أمير المـؤمنين ومعه عـمر بن عبـد العزيز على معـسكر سليمـان وفيـه تلك الخيـول والجمال والبـغال والأثقـال والرجال، فـقال سليمـان: ما تقول يا عـمر في هذا؟ فقـال: أرى دنيا يأكل بعـضها بعـضا وأنت المسؤول عن ذلك كله، فلما اقتربوا من المعسكر إذا غراب قد أخذ لقمة في فيه من فسطاط سليـمان وهو طائر بها ونعب نعـبه، فقال لـه سليمان: ما هذا يا عـمر؟ فقال: لا أدري، فـقال ما ظنك أنه يقول؟ قال: كـأنه يقول: من أين جاءت وأين يُذهب بها؟ فـقال له سليمـان: ما أعجبك!! فـقال عمر: اعـجب ممن عرف الله فعصاه، ومن عرف الشيطان فأطاعه، ومن عرف الدنيا فركن إليها[2].

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٢٧.

(٢) البداية والنهاية ٩/ ٢٠٤ وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ١٧٠.

ونجد في هذا الخبر أن أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك كان معجبًا بحكمة عمر بن عبد العزيز وتأملاته العميقة في أمور الدنيا وربطها بأمور الآخرة.

ونجد عمر عبد العزيز في هذا الخبر وأمثاله يغتنم الفرص ليوجه من حوله إلى الاستقامة على أمور الدين وتذكُّر الحياة الآخرة، فهو حينما سأله سليمان عن نعب الغراب وهو يحمل تلك اللقمة اغتنم الفرصة ليذكِّره بلزوم الاستقامة في كسب الأموال وإنفاقها، وإذا ضمن الإنسان الاستقامة في ذلك فقد ضمن الرزق الحلال الخالي من الحرام والشبهات وضمن الإنفاق الحلال الخالي من السرف والخيلاء.

وحينما تعجب سليمان من تفكير عمر زاده موعظة ببيان أن العجب الحقيقي أن ينحرف المسلم عن الطريق المستقيم الموصل إلى رضوان الله تعالى والجنة بعدما عرف هذا الطريق وعرف المستقبل الأخروي لمن استقام عليها ولمن انحرف عنها.

خشيته من العذاب بالريح: أخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبر سلام بن أبى مطيع قال: نُبِّئتُ أن عمر بن عبد العزيز لما قام هاجت ريح، فدخل عليه رجل فإذا هو منتقع اللون، فقيل له: يا أمير المؤمنين مالك؟ قال: ويحك وهل هلكت أمة قط إلا من الريح[1].

فأكثر الناس يرون الريح ويحسون بها ولا تثير في أنفسهم شيئًا من الخشية لاعتيادهم عليها، ولكن عمر بن عبد العزيز تذكر على الفور عذاب الله تعالى للأمم السابقة فتأثر تأثرًا شديدًا من ذلك، وهذا دليل على يقظة ضميره وقوة خشيته من الله تعالى.

خشيته من ارتكاب السيئات بمكة: ذكر الشيخ أبو حفص عمر بن محمد المَلاَّء من خبر القاسم بن محمد بن أبي بكر: أن عمر بن عبد العزيز كان يقيم في عمرته يومين ويخرج في الثالث: فقال له عبد الله بن عمر بن عيسى بن عمار: لو أقمت فاستمتعتَ بهذا البيت واستمتعنا معك! فقال: ما أظن أحدًا منكم أشد حبًا لهذا البيت مني، ولكن والله لكأني على الرَّضَف[2] من حين أدخله إلى حين أخرج فرقًا من أن أُحدث.

(١) حلية الأولياء ٥/٣١٣.

(٢) أي الحجارة المحماة.

قال: وهذا حينما كان واليًا على المدينة زمن الوليد[1].

فهذا مثل من تعظيم عمر بن عبد العزيز للحرم المكي وخشيته من أن يكتب في صحيفته مخالفة وهو فيه لما كان يعلم من نكارة الذنوب فيه وضخامة عقوبة مرتكبيها، على الرغم من علمه بمضاعفة الحسنات فيه إلى مائة ألف، ولكن لشدة خشيته فإنه يؤمن بأن اجتناب السيئات مقدم على اجتلاب الحسنات.

ورعه عما حُمل على دواب البريد: قال ابن عبد الحكم في رواية له: وأتت إليه سلتا رطب من الأردن، فقال: ما هذا؟ قالوا: رطب بعث به أمير الأردن، قال: علام جيء به؟ قالوا: على دواب البريد، قال: فما جعلني الله أحق بدواب البريد من المسلمين، أخرجوهما فبيعوهما واجعلوا ثمنهما في علف دواب البريد، فغمزني[2] ابن أخيه فقال لي: اذهب فإذا قامتا على ثمن فخذهما عليّ، فجئت بهما إلى ابن أخيه فقال: اذهب بهذه الواحدة إلى أمير المؤمنين، وحبَس لنفسه واحدة، فأتيته بها فقال: ما هذا؟ قلت: اشتراهما فلان ابن أخيك فبعث إليك بهذه وحبس لنفسه الأخرى، قال: الآن طاب لي أكله[3].

وهذا مثال دقيق على ورع عمر واهتمامه البالغ بالحلال والحرام فإن فكر المسلم العادي لايذهب إلى السؤال عن الدواب التي حُمل عليها الطعام، وإنما قد يسأل عن الطعام نفسه من باب التحري، ومع أن البريد لم يأت من أجل ذلك التمر فإن عمر رده تورعا، وأمر بجعل ثمنه علفًا لدواب البريد، وحينما تصرف ابن أخيه ذلك التصرف الحسن فأهداه من ذلك التمر أكل منه طيبةً به نفسه، فما أعظم الإسلام متمثلاً في صدور السابقين بالخيرات الذين يميزون بين الحلال الخالص والشبهات التي قد توصل إلى الحرام!

رده أحد أملاكه من الإقطاع: من مواقفه رحمه الله في الورع ما حدث به الإمام عبد الله بن المبارك رحمه الله تعالى قال: قال عمر بن عبد العزيز لمزاحم -وكان مزاحم مولاه وكان فاضلا-: إن هؤلاء القوم - يعني أهله - أقطعوني ما لم يكن لي أن آخذه ولا لهم أن يعطوني، وإني قد هممت بردها على أربابها، قال فقال

(١) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز/ ٤٧.

(٢) القائل هو راوي الخبر أبو شيبان وهو الذي قدم بالرطب.

(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ٥٤، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي / ١٣٣.

مزاحم: فكيف تصنع بولدك؟ قال: فَجَرَتْ دموعه على وجنتيه وجعل يمسها بأصبعه الوسطى ويقول: أَكِلُهم إلى الله، قال عبد الله: وكأن مزاحمًا - مع فضله - لم يقنع بقوله: فخرج مزاحم فدخل على عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز، فقال: إن أمير المؤمنين قد همَّ بأمر لَهُو أضرُّ عليك وعلى ولد أبيك من كذا وكذا، إنه همَّ برَدِّ السهلة - قال عبد الله: وهي باليمامة وهي أمر عظيم - قال: وكان عيش ولده منها، قال عبد الملك: فماذا قلت له؟ قال كذا وكذا، قال: بئس لعمر الله وزير الخليفة أنت، قال: ثم قام ليدخل على عمر بن عبد العزيز وقد تبوأ مقيله، قال: فاستأذن فقال له البواب: إنه قد تبوأ مقيله، قال: ما منه بد، قال: سبحان الله ألا ترحمونه! إنما هي ساعته، قال: فسمع عمر صوته فقال: عبد الملك؟ قال: نعم، قال: ادخل، فدخل، قال: ما جاء بك؟ قال: إن مزاحمًا أخبرني بكذا وكذا، قال: فما رأيك فإني أريد أن أقوم بالعشية؟ قال: أرى أن تعجله فما تأمن أن يحدث الله بك حدثًا، قال: فرفع يديه وقال: الحمد لله الذي جعل من ذريتي من يعينني على ديني، قال: ثم قام من ساعته فجمع الناس وأمر بردها[1].

وهكذا لما علم أن تلك المزرعة التي باليمامة قد آلت إليه عن طريق الإقطاع من الولاة الذين سبقوه تحرج من بقائها في ملكه، لأنه ليس كل المسلمين نالوا مثل ذلك، فلم ير أن له حقّا في الاختصاص بملكها، فردها إلى بيت مال المسلمين، مع ما ذُكر من أنها ملك عظيم وأن عيش أولاده منها، وهذا مثال على إحساسه الدقيق وورعه العميق.

وفي هذا الخبر يظهر عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز ورعًا تقيًا كأبيه، وبهذا الإيمان القوي والسلوك العالي كان عبد الملك عونًا لأبيه في حمل الناس على الاستقامة، خاصة فما يتعلق بأسرته رحمهما الله تعالى.

نماذج من تورعه عن المال العام:

ومن ذلك أنه وفد عليه بريد من بعض الآفاق، فانتهى إلى باب عمر ليلاً فقرع الباب فخرج إليه البواب فقال: أعْلم أمير المؤمنين أن بالباب رسولاً من فلان

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي /٨٩ - ٩٠، وانظر تاريخ دمشق ٤٥/١٧٩ - ١٨٠.

عامله، فدخل فـأعلم عمر، وقد كان أراد أن ينام، فقعـد وقال: إئذن له، فدخل الرسول فدعـا عمر بشمـعة غليظة فأججت نارًا، وأجلس الرسـول، وجلس عمر فسأله عن حال أهل البلد ومن بها من المسلمين وأهل العـهد، وكيف سيرة العامل وكيف الأسـعار، وكيف أبناء المهـاجرين والأنصـار وأبناء السبيل والفـقراء، وهل أعطى كل ذي حق حقه، وهل له شاك وهل ظلم أحدًا؟

فأنبأه بجميع ما علم الرسـول من أمر تلك المملكة، فلم يدع شيئًا إلا أنبأه به، كل ذلك يسألـه فيحـفي السؤال حتى إذا فـرغ عمـر من مسألتـه قال له: يا أمـير المؤمنين كيف حالك في نفسك وبدنك؟ وكيف عـيالك وجميع أهل خزانتك ومن تُعْنَى بشأنه؟ قال: فنفخ عمر الشمعة فـأطفأها بنفخته وقال: يا غلام عليَّ بسراج، فدعا بفـتيلة لا تكاد تضيء فقال: سل عمـا أحببت، فسأله عن حاله فـأخبره عن حاله وحال ولده وعياله وأهل بيته، فعـجب البريد للشمعة وإطفائه إياها وقال: يا أمير المؤمنين رأيتك فعلت أمرًا ما رأيتك فعلت مثله، قال: وما هو؟ قال: إطفاؤك الشمعة عند مسألتي إياك عن حالك وشأنك.

فقال: يـا عبد الله إن الشمعـة التي رأيتني أطفأتها من مـال الله ومال المسلمين وكنتُ أسـألك عن حوائجـهم وأمرهم فكانت تلك الـشمعـة تَقِدُ بـين يديَّ فيـما يصلحـهم وهي لـهم: فلمـا صـرتُ لشـأني وأمـر عـيـالي ونفـسي أطفـأت نار المسلمين[1].

فهذا التصرف الذي قام به عمر بن عـبد العزيز في غاية السمو من الورع، وفيه ملاحظة في الفصل بين حق النفس وحق المسلمين.

ولو تصور أيّ مـسؤول هذا الأمـر لأدرك أن القليل جدّا من المسـؤولين يُحظَى بهذا التـذكر السريع في أمـر حقيـر كهذا، ثم القليل من هؤلاء الذي يتـورع بهذه الدقة، فيجتنب الاستفادة من حق المسلمين العام في مثل هذا الأمر الصغير.

ويشبـه هذا في حيـاة المسؤولين اسـتعـمال الورق والأقلام والظروف ونـحوها لصالح المسؤول الخاص مما كان خاصًا بالعمل.

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم / ١٥٥.

وقد يحتقر المسؤول هذا الأمر ولا يُلقي له بالاً لعدم ظهور النقص في الحق العام بشكل واضح، ولكن المبدأ واحد في عدم جواز استخدام حق المسلمين العام في الشؤون الخاصة، سواء في أمر خطير أو في أمر حقير.

وأخرج محمد بن سعد من خبر جويرية بن أسماء قال: قال عمر يا مزاحم بعني رَحْلاً لمصحفي، قال فأتاه برحْلٍ فأعجبه، قال: من أين أصبتَ هذا؟ قال: يا أمير المؤمنين دخلتُ بعض الخزائن فوجدتُ هذه الخشبة فاتخذتُ منها رحْلاً. قال: انطلق فقوِّمْه في السوق. فانطلق فقوَّموه نصف دينار فرجع إلى عمر فأخبره، قال: تُرانا إن وضعنا في بيت المال دينارًا أنسلم منه؟ قال: إنّما قوَّموه نصف دينار. قال: ضَعْ في بيت المال دينارين.

وأخرج أيضًا من خبر عليّ بن مسعدة قال: حدثنا رياح بن عبيدة قال: أخرج مسك من الخزائن فلما وضع بين يدي عمر أمسك بأنفه مخافة أن يجد ريحه، فقال له رجل من أصحابه: يا أمير المؤمنين ما ضرّك أن وجدتَ ريحه؟ فقال عمر: وهل يُبْتغى من هذا إلاّ ريحه؟

وأخرج أيضًا من خبر فُرات بن مسلم قال: كنت أعرض على عمر بن عبد العزيز كتبي في كلّ جمعة فعرضتُها عليه فأخذ منها قرطاسًا قدر شبر أو أربع أصابع بقي فكتب فيه حاجة له، فقلت: غفل أمير المؤمنين. فلمّا كان من الغد بعث إليّ أن تعالَ وجئ بكتبك، فجئته بها فبعثني في حاجة، فلمّا جئت قال: ما آن لنا أن ننظر في كتبك بعدُ، قلتُ: لا إنّما نظرتَ فيها أمس. قال: خُذْها حتى أبعث إليك. فلمّا فتحتُ كتبي وجدتُ فيها قرطاسًا قدر قرطاسي الذي أخذ.

وأخرج أيضًا من خبر وُهَيب بن الورد قال: بلغنا أن عمر بن عبد العزيز اتّخذ دار الطعام للمساكين والفقراء وابن السبيل. قال وتقدّم إلى أهله: إيّاكم أن تصيبوا من هذه الدار شيئًا من طعامها فإنّما هو للفقراء والمساكين وابن السبيل. فجاء يومًا فإذا مولاة له معها صحفة فيها غرفة من لبن فقال لها: ما هذا؟ قالت: زوجتك فلانة حامل كما قد علمتَ واشتهت غرفةً من لبن، والمرأة إذا كانت حاملاً فاشتهت شيئًا فلم تُؤتَ به تخوّفت على ما في بطنها أن يسقط، فأخذتُ هذه

الغرفة من هذه الدار. فأخـذ عمر بيدها فتوجّه بها إلى زوجـته وهو عالي الصوت وهو يقول: إن لم يُمْسك ما في بطنها إلا طعـامُ المساكين والفقراء فلا أمسكه الله. فدخل على زوجته فقالـت له: مالك؟ قال: تزعم هذه أنّه لا يُمسك ما في بطنك إلا طعام المساكين والفقراء، فإن لم يُمسكه إلا ذلك فلا أمسكه الله. قالت زوجته: رُدّيه ويحك، والله لا أذوقه. قال: فردّته.

وأخرج من خبر عُبيد بن الوليد قال: سـمعتُ أبي يذكر أنّ عمر بن عبد العزيز كان يسـخَّن له في مطبخ العـامة ماء يتـوضّأ به وهو لا يعلم، ثمّ علـم بعد ذلك فقال: كم لكم منذ أسختموه؟ فقالوا: شهر أو نحوه. قال فألقى في مطبخ العامة لذلك حطبًا[1].

وأخرج الحافظ أبو نعيم الأصبهاني من خبـر الحكيم بن عمر قال: شهدت عمر ابن عبد العزيز وأرسل غلامه يشوي بكبكبـة من لحم، فعجل بها، فقال: أسرعت بها! قال: شويتها في نار المطبخ - وكان للمسلمين مطبخ يغديهم ويعشيهم - فقال لغلامه: كُلْها يا بني فإنك رُزقتها ولم أُرزقها[2].

فهذه الأخبار تفـيد تورع أمير المؤمنين عمر بن عبد العـزيز رحمه الله تعالى عن الاستفادة من مال المسلمين العام، وهي تبين ورعـه عن أشياء صغيرة جدًا لا تلفت نظر أكثر الناس، لكنه لدقة إحساسه بالحرام والشـبهات تنبه لها، فقدم بذلك أمثلة رائعة للورع أصبحت عبرة لأفراد الأمة من معاصريه والذين جاؤوا بعده رحمه الله تعالى رحمة واسعة.

من أخبار إبراهيم بن أدهم رحمه الله:

في بيان حقيقة الزهد يقول الحـافظ ابن كثير في ترجمة إبراهيم بن أدهم الزاهد المشهـور: وقال له رجل: هذه جـبة أحب أن تقـبلها منـي، فقال: إن كنت غـنيًا قبلتها، وإن كنـت فقيرًا لم أقبلها، قال: أنا غني، قـال: كم عندك؟ قال: ألفان، قال: تود أن تكون أربعة آلاف؟ قال: نعم، قال: فأنت فقير، لا أقبلها منك[3].

(١) طبقات ابن سعد ٥/ ٣٦٦، ٣٦٨، ٣٧٧ - ٣٧٩، ٣٩٩، وانظر تاريخ دمشق ٤٥/ ٢١٤ -٢١٩.
(٢) حلية الأولياء ٥/ ٢٩١.
(٣) البداية والنهاية ١٠/ ١٤١.

وهذا تعليم جيد من إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى لذلك الرجل، حيث يبين له أن الغنَى الحقيقي هو غنى القلب، وليس غنى الجيب، وقد جعل مقياس معرفة الغني الحقيقي بالقناعة، وذلك بأن لا يكون لدى الإنسان رغبة في تضاعف المال عنده، لأنه - والحال هذه - يكون قد سخَّر نفسه لماله، فأما حين يرغب في جمع المال لا لذاته وإنما لينفقه في وجوه الخير فإنه يكون قد سخَّر ماله، وهذا هو الغنى الحقيقي.

ومن أخباره في الزهد والتوكل على الله تعالى ما ذكره الحافظ ابن كثير قال: وقال حذيفة المرعشي: أويت أنا وإبراهيم - يعني ابن أدهم - إلى مسجد خراب بالكوفة، وكان قد مضى علينا أيام لم نأكل فيها شيئًا، فقال لي: كأنك جائع، قلت: نعم، فأخذ رقعة فكتب فيها: بسم الله الرحمن الرحيم، أنت المقصود إليه بكل حال المشار إليه بكل معنى.

أنا حامد أنا ذاكر أنا شاكر ... أنا جائع أنا حاسر أنا عاري
هي ستة وأنا الضمين لنصفها ... فكن الضمين لنصفها يا باري
مدحي لغيرك وَهْجُ نارٍ خضتُها ... فأَجِرْ عُبَيْدك من دخول النار

ثم قال لي: اخرج بهذه الرقعة ولا تعلِّق قلبك بغير الله سبحانه وتعالى، وادفع هذه الرقعة لأول رجل تلقاه، فخرجت فإذا رجل على بغلة فدفعتها إليه، فلما قرأها بكى ودفع إلي ستمائة دينار وانصرف، فسألت رجلاً: مَنْ هذا الذي على البغلة؟ فقالوا: هو رجل نصراني، فجئت إبراهيم فأخبرته فقال: الآن يجيء فيسلم، فما كان غير قريب حتى جاء فأكبَّ على رأس إبراهيم وأسلم[1].

ففي هذا الخبر مثل بليغ في التوكل على الله تعالى واستحضار عظمته في القلب، وإذا تجرد قلب المسلم لله جل وعلا، فذكره وحده وعظمه وحده، وأنزل به حاجته وحده فإنه سبحانه يسخِّر قلوب العباد لعبده المؤمن الموحد، فيفرجُ له من الكربات وييسر له من الأمور ما لا يخطر على باله.

(١) البداية والنهاية ١٠/ ١٤٣.

فتلك الرقعة المشتملة على كلمات هي من كمال التوحيد سخَّر الله تعالى بها قلب ذلك الرجل النصراني، فدفع ذلك المبلغ الكبير، ثم كان لها الأثر البالغ على نفسه حيث دخل قلبه الإسلام.

ولقد كانت فراسة ذلك العالم الربانيِّ إبراهيم بن أدهم قوية، حيث توقع مجيء ذلك النصراني ليسلم، فكان كما توقع، وذلك لأن الذي يتأثر إلى حد البكاء وبذل ذلك المبلغ الكبير يغلب على الظن أن عقله السليم يقوده إلى هذا الدين الذي خرَّج رجالاً موحدين مثل ابن أدهم.

من أخبار إياس بن معاوية والقاسم بن ربيعة رحمهما الله:

من أخبار الورع عن الجاه والسمعة ما ذكره الحافظ ابن كثير عن المدائني قال: بعث عمر بن عبد العزيز عديَّ بن أرطاة على البصرة نائبًا، وأمره أن يجمع بين إياس [يعني ابن معاوية] والقاسم بن ربيعة الجوشني، فأيهما كان أفقه فليولِّه القضاء، فقال إياس - وهو يريد أن لا يتولى -: أيها الرجل سل فقيهَي البصرة: الحسن وابن سيرين، وكان إياس لا يأتيهما، فعرف القاسم أنه إن سألهما أشارا به - يعني بالقاسم - لأنه كان يأتيهما، فقال القاسم لعدي: والله الذي لا إله إلا هو إن إياسًا أفضل مني وأفقه مني وأعلم بالقضاء، فإن كنتُ صادقًا فولِّه وإن كنت كاذبًا فما ينبغي أن تُولِّيَ كاذبًا القضاء، فقال إياس: هذا رجل أُوقف على شفير جهنم فافتدى منها بيمين كاذبة، يستغفر الله، فقال عدي: أمَا إذا فطنت إلى هذا فقد ولَّيتك القضاء[1].

فهذا مثل في الورع يقدمه هذان العالمان الجليلان، وقد غلَّبا - لشدة خوفهما من الله تعالى - جانب السلامة من المآثم على جانب اكتساب العمل الصالح، فإن الولايات ومنها القضاء تُعدُّ من الأعمال الصالحة لمن وُفق فيها إلى العدل والسلامة من الزلل، ولكنها مزلة قدم وباب من أبواب الفتنة لمن لم يقدر على العدل والوقاية من المآثم.

وقد ظهر في هذا الخبر مقدرة إياس بن معاوية والقاسم بن ربيعة على التخلص من ذلك الأمر لولا ما وُفق إليه أمير البصرة عدي بن أرطاة من إلزام إياس بالقضاء.

(١) البداية والنهاية ٩/ ٣٥٠.

من أخبار محمد بن واسع رحمه الله:

من العلماء الربانيين المشهورين بالزهد والورع والخشوع الإمام الصالح العابد محمد بن واسع الأزدي: وسنبدأ بذكر شيء من أقواله النَّيِّرة في الزهد والورع واليقين، فمن ذلك قوله «إني لأغبط رجلاً معه دينه وما معه من الدنيا شيء وهو راض»[1].

وإذا كان هذا الإمام يغبط أهل الدين المجردين من الدنيا فما أكثر من يغبطون أصحاب الأموال، وما أبعد الفرق بين السابقين بالخيرات والمقصِّرين!

وقيل إنه قال لرجل: هل أبكاك قط سابق علم الله فيك؟[2].

يعني أن المقربين مع ما يقومون به من الورع والعمل الصالح يخشون من سابق قدر الله فيهم، حيث يخافون من سوء الخاتمة، فإن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن جل جلاله يقلبها كيف يشاء.

وقيل له: كيف أصبحت؟ قال: قريبًا أَجَلي، بعيدًا أملي، سيِّئًا عملي[3].

وهذا من عمق الإدراك وقوة تصور ما بعد الموت. وإذا كان محمد بن واسع الذي قيل عنه إنه أفضل أهل البصرة في زمنه يتَّهم نفسه بطول الأمل وسوء العمل، فكيف بحال المقصرين الظالمي أنفسهم؟

وقال رجل لمحمد بن واسع: أوصني، قال: أوصيك أن تكون مَلِكًا في الدنيا والآخرة، قال: كيف؟ قال: ازهد في الدنيا[4].

وهذه وصية نافعة من طبيب ماهر في طب القلوب، فهذا الرجل يطلب الوصية من محمد بن واسع فيوصيه بأعلى مرتبة تطمح لها النفوس عادة، وهي أن يكون ملكًا في الدنيا والآخرة، فيتعجب ذلك الرجل لأنه لم يرد الدنيا حينما طلب منه الوصية، ثم كيف يجمع بين الأمرين فيكون ملكًا في الدنيا والآخرة! فلذلك استفهم منه استفهام تعجب، فكان جواب ابن واسع له: ازهد في الدنيا.

---

(١)، (٢)، (٣) سير أعلام النبلاء ٦/ ١٢١.

(٤) سير أعلام النبلاء ٦/ ١٢٠.

وإذا كان الزهد يرفع من مقام صاحبه في الآخرة لما يترتب عليه من ترك بعض المحبوبات من أجل الله تعالى، واجتناب مجال المحرمات والشبهات التي يدفع إليها حب الدنيا.. فكيف يكون الزهد رفعة في الدنيا؟

إنما كان كذلك لأمور منها: أن الزاهد لا يصل إلى الزهد في الدنيا إلا إذا وصل إلى مرحلة من القوة يملك فيها هواه، ويتحكم في جوارحه أن تطيش سهامها ذات اليمين وذات الشمال، والذي يتحكم في نفسه بعقله السليم هو أرفع الناس في الدنيا، لأنه لا يملك جوهراً في جسمه أغلى من العقل، فإذا أخضع نفسه لعقله السليم الذي يسير على هدى الله تعالى كان في أعلى طبقات المجتمع، لأن فكره سيكون صحيحًا، وسلوكه سيكون قويمًا.

وقيل إن الوالي مالك بن المنذر دعا محمد بن واسع فقال: اجلس على القضاء، فأبى، فعاوده وقال: لتجلسنَّ أو لأجلدنَّك ثلاثمائة، قال: إن تفعل فإنك مسلَّط، وإن ذليل الدنيا خير من ذليل الآخرة[1].

وهذا مثال للورع، فقد كان منصب القاضي يلي منصب الأمير في العلو، وقد يكون أعلى منه، وهو بالنسبة للنظرة الدنيوية يلبِّي شهوتين.. شهوة المال وشهوة الجاه، ومع ذلك رفضه محمد بن واسع حتى بعد التهديد بالجلد، وبين أن سبب رفضه أن هذا المنصب يورث ذلة في الآخرة، وذلك فيما إذا مال القاضي عن العدل أو لم يتمكن منه، أو داخل نفسه شيء من العجب والنظر إلى الجاه ونحو ذلك، وبيَّن أن ذلة الدنيا بالتعرض للجلد بسبب الرفض أهون من ذلة الآخرة بالحساب والعذاب.

وهذا لا يعني أن القضاة كلَّهم معرضون لذلك، بل إن العالم إذا آنس من نفسه القوة على العدل، وضمن التمكن من ذلك فإن تولِّي أمور المسلمين في القضاء وغيره يُعدُّ من الأعمال الصالحة، وإنما تورع عنه هذا الإمام وأمثاله خشية عدم القدرة على العدل الكامل فيؤول الأمر إلى اكتساب السيئات بدلاً من الحسنات.

قيل: ودعاه بعض الأمراء فأراده على بعض الأمر فأبى، فقال: إنك أحمق، قال محمد: مازلت يقال لي هذا منذ أنا صغير[2].

(١)، (٢) سير أعلام النبلاء: ٦/ ١٢٢.

يعني أن أهل الدنيا ينـظرون إلى المصالح الدنيوية من المال والجـاه ونحو ذلك، فالـذي يسير فـي حياتـه وهو يلاحظ مسـتقـبله الدنيوي ويخطط له يُعـدُّ عندهم حصيف الرأي كامل العقل، وإنْ قصر في العمل لمستقبله الأخروي أو أهمل ذلك، بينما يتَّهمون من يعمل لآخرته ويهمل أمور دنياه بالحماقة وربما وصفوه بالجنون.

ورُوي أن قاصّا كان بقرب محمد بن واسع فقال: مالي أرى القلوب لا تخشع، والعيون لا تدمع، والجلود لا تقـشعر؟ قال محمد: يـا فلان ما أرى القوم أُتُوا إلا من قبَلك، إن الذكر إذا خرج من القلب وقع على القلب[1].

وهكذا كان محمد بن واسع صريحًا مع ذلك الواعظ الذي وصف المشكلة والداء وأراد من محمد بن واسع أن يسـاعده في الحل والعلاج، ولم يَدْرِ ذلك الواعظ أنه هو مصدر المـشكلة ومكمن الداء، فبين له محمـد بن واسع أن المواعظ إذا صدرت من القلب وصلت إلى القلب، وإذا صدرت من اللسان لم تتجاوز الآذان.

وبهـذا يُفسَّـر كثـرة المواعظ والخطب والدروس الدينيـة مع قلة التأثر وضـعف الالتزام، فالدُّرر تبقى في أصدافها حتى تجد من يحسن إخراجها.

ولكن ليس العـيب دائمًا في المتكلم، فـقد يكون في الـسامع لعـدم تجرده من الهوى، وعلى ذلك يحـمل عدم استـجابة بعض المدعوين للرسل عليـهم السلام، وكلام محمد بن واسع محمول على أنه قد فهم من الواعظ عدم إخلاصه في تلك الموعظة.

وقال سـعيد بن عـامر: دخل محـمد بن واسع على الأمـير بلال بن أبي بردة فدعاه إلى طعامه فاعتل عليه، فغضب وقال: إني أراك تكره طعامنا، قال: لا تقل ذاك أيها الأمير، فو الله لخياركم أحب إلينا من أبنائنا[2].

وصدق محمد بن واسع وبرَّ في قسمه، لأن الأمراء العادلين تطبَّق بهم الحدود، ويثبت بهم الأمن؛ ويعمُّ بهم الرخـاء، وتُحفظ بهم الحقوق، ويقـوم بهم الجهاد، وتنتـعش بهم الدعـوة، فـهم أحب للمـخلصين لدينهم من أبنائهم الذيـن ليسـوا كذلك.

---

(١)، (٢) سير أعلام النبلاء: ٦/ ١٢٢.

وإنما اعتذر محمد بن واسع عن طعام ذلك الوالي لأنه كان يصوم ويخفي صيامه فلعله كان صائمًا ذلك اليوم.

وذكر الإمام الذهبي عن ابن شوذب قال: قسم أمير البصرة على قرائها، فبعث إلى مالك بن دينار فأخذ، فقال له ابن واسع: قَبِلتَ جوائزهم؟ قال: سل جلسائي، قالوا: يا أبا بكر اشترى بها رقيقًا فأعتقهم، قال: أنشدك الله أقلبك الساعةَ على ما كان عليه؟ قال: اللهم لا، إنما مالِكٌ حمار، إنما يعبد الله مثل محمد بن واسع[1].

فهذا مثال رائع لدقة الإحساس والغيرة على الإيمان، لأن الإيمان ينمو في القلب شيئًا فشيئًا بالتقوى في الفكر والعمل، وإن من أهم ما يحرص عليه أطباء القلوب أن يظل مستوى الإيمان في القلب في علو وتَرَقِّي، وإن مما يحذرون منه أن ينخفض مستوى الإيمان في القلب، وإنما ينخفض بارتكاب شيء من المخالفات، أو ترك بعض الطاعات، وقد تكون المخالفة معتادة عند عامة الناس، لكنها تكون ذات أهمية عند الخلَّص من أهل التقوى، وهم يشعرون بهذا الانخفاض إذا خالط إحساسهم شيء من القلق والضجر، لأن شفافية الإيمان الخالص لا تقبل أن يعانقها شيء من الكدر أو الغبش، فلذلك لما قال محمد بن واسع لمالك بن دينار: «أنشدك الله أقَلْبُكَ الساعة على ما كان عليه؟ أجابه بقوله: اللهم لا» فكأنما قال له انظر إلى قلبك في المرآة هل خالط صفاءه شيء من الكدرة؟

ولقد كان مالك بن دينار صريحًا حينما أخبر عن إحساسه بما خالطه من الكدر الذي يتمثَّل في تسرُّب شيء من تعظيم البشر إلى القلب ولو بنسبة ضئيلة، حيث يزاحم ذلك وجود الإيمان بالله تعالى وحده، وذلك له عواقبه الموثرة على الفكر والسلوك إن لم يُحدث صاحبه تصحيحًا وتوبة.

ولئن كان مالك بن دينار قد حكم على نفسه بذلك الحكم القاسي فإنه محمول على التواضع والمبالغة في إهانة النفس، وإلا فهو العالم الرباني ذو المحامد المعروفة، وإن من فضائله أن يتواضع أمام من يرى له فضلاً عليه في اليقين

(١) سير أعلام النبلاء ٦/ ١٢٠ .

والإيمان، فيأخذ بنصحه ويثني عليه، ولو كان ممن غلبت عليهم سمعة الدنيا واعتباراتها المعروفة لأخذته العزة بالإثم، ولردَّ على ذلك الإمام الرباني الناصح بما يقلل من مكانته، ويُضعف من رأيه، ولسوَّغ ما قام به هو من تصرف وأظهره بأنه هو الأمر المشروع الموافق للحكمة.

ولقد كانت سمعة محمد بن واسع عالية في الصلاح والتقوى حتى أصبح القادة يتيمَّنون بدعائه، قال الأصعمي: لما صافَّ قتيبة بن مسلم الترك وهاله أمرهم. سأل عن محمد بن واسع، فقيل له: هو ذاك في الميمنة جامح على قوسه، يُبَصْبِص بإصبعه نحو السماء، قال: تلك الإصبع أحب إليَّ من مائة ألف سيف شهير وشاب طرير[1].

وهذا فهم راسخ من قتيبة بن مسلم الباهلي لأهم أسباب النصر، ألا وهو التوكل على الله تعالى، وتوثيق الصلة به، واستلهام النصر منه.

ولقد عبأ جيشه وتأكد من حسن إعداده، ولكنه بحاجة إلى التأكد مما هو أهم من الإعداد المادي، حيث يتجاوز المسلمون بالسلاح المعنوي حدود التكافؤ المادي في القُوَى بمراحل عديدة.

ولما كان محمد بن واسع في جيشه سارع إلى السؤال عنه، فلما أُخبر بأنه مستغرق في مناجاة الله تعالى ودعائه اطمأن قلبه وارتفع مستوى الأمل بالنصر عنده، وقال تلك الكلمات العالية «تلك الإصبع أحب إلي من مائة ألف سيف شهير وشاب طرير».

إن قُوَى الأرض كلَّها بيد الله تعالى، وإن النظر إلى القوى المادية من حيث العدد والعُدد والمواقع، إنما هو من حسابات البشر، والله جل جلاله قادر على تغيير هذه الموازين في لحظة، وإن من أهم استجلاب نصر الله تعالى دعاءَ الصالحين، فلذلك استبشر قتيبة خيرًا حينما علم باستغراق محمد بن واسع في الدعاء.

وهذا الفهم العالي من قتيبة رحمه الله يبين لنا سببًا مهمًا من أسباب انتصاراته الباهرة، التي ظلت تتوالى أكثر من عشر سنوات، فعلى الرغم من كونه بطلاً لا

(١) سير أعلام النبلاء ٦/ ١٢١، وشاب طرير يعني في مقتبل عمره قد طرَّ شاربه.

يُشَقُّ له غبار، وقائدًا مخططًا يضع للأمور أقرانها، وسياسيًا محنكًا لا يُخدع، فإنه لم يغتر بكل ذلك بل عَدَّ ذلك كله من الأمـور الثانوية، ونظر قبل ذلك إلى مدى توثيق الحبل الذي يصل جـيشه بالله تعالى، فلمـا عرف بأن محمـد بن واسع قد وصل ذلك الحبل بالدعاء وبما سبق ذلك من شهرته بالإيمان القوي والعمل الصالح حصل له اليـقين وزال عنه سبب من أسـباب الخـوف المتمثل بضـعف الصلة بالله تعالى.

ولقد بلغت شـهرة محمـد بن واسع الدينية مبلغًـا عظيمًا في عصـره، قيل إن حوشبًـا قال لمالك بن دينار: رأيت كأن مناديًا ينادي: الرحيلَ الرحـيل، فما ارتحل إلا محمد بن واسع فبكى مالك وخر مغشيًا عليه[1].

لقـد فـهم مـالك بن دينار من هذه الرؤيا أن المراد بالـرحيل كـمـال الخـلاص والنجاة، خصوصًا وقد اقترنت بمحمد بن واسع الذي عُرف عندهم بأنه أفضل أهل بلده.

وإن هذا التأثر من مـالك الذي وصل إلى حد البكاء ثم الإغمـاء يدل على قوة إيمانه وشدة خشيته من الله تعالى، ومَنْ كان بالله أعرف كان من الله أخوف.

وفي وصف خشية محمد بن واسع يقول جعفر بن سليمان كنت إذا وجدت من قلبي قسوة غدوت فنظرت إلى وجه محمد بن واسع كأنه ثكْلَى[2].

إن العالم بالله الذي يرزقـه الله اليقين والمعرفة تظهـر آثار العبادة والخشـية على وجهه، وذلك لأن قلبه يكون قـد امتلأ من تعظيم الله تعالى وخشيـته، وإذا امتلأ القلب بالإيمان فرض على الفكر أن يكون حاضرًا مع الله تعالى مستحضرًا عظمته، متذكرًا ما أعده لأوليائه من النعيم المقيم، وما أعده لأعدائه من العذاب الأليم، فلا غرابة أن يكون وجه صاحبه كالثكلى من الحزن والهم.

ولقد كان جعفـر بن سليمان فقيهًا في معرفة عـلاج أمراض القلوب حينما قال هذا الكلام.

ألا مـا أحوج الأمـة إلى أطبـاء القلوب الذين في رؤيتـهم شـفـاء القلوب من أمراضها، وفي مواعظهم توجيه سديد للاستقامة على الصراط المستقيم!

(١) سير أعلام النبلاء ٦/ ١٢١ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٦/ ١٢٠ .

من أخبار إبراهيم التيمي رحمه الله:

ومن أخبارهم في الورع ما أخرجه ابن سعد عن علي بن محمد قال: كان سبب حبس إبراهيم التيمي[1] أن الحجاج طلب إبراهيم النخعي، فجاء الذي طلبه فقال: أريد إبراهيم، قال إبراهيم التيمي: أنا إبراهيم، فأخذه وهو يعلم أنه يريد إبراهيم النخعي فلم يستحلَّ أن يدلَّه عليه، فأُتِيَ به الحجاج فأمر بحبسه في الديماس[2]، ولم يكن لهم ظل من الشمس ولاكنٌّ من البرد، وكان كل اثنين في سلسلة، فتغير إبراهيم فجاءته أمه في الحبس فلم تعرفه حتى كلمها، فمات في السجن، فرأي الحجاج في منامه قائلاً يقول: مات في هذه البلدة الليلةَ رجل من أهل الجنة، فلما أصبح قال: هل مات الليلة أحد بواسط؟ قالوا: نعم إبراهيم التيمي مات في السجن، فقال: حُلُم، نزغة من نزغات الشيطان، وأمر به فأُلْقِي على الكناسة[3].

فهذا مثال للورع الذي يكلف صاحبة تضحية بالنفس، فقد كان إبراهيم التيمي يعلم أن رسول الحجاج لا يريده وإنما يريد إبراهيم النخعي، فلم يستحل أن يدله عليه وفداه بنفسه فأيُّ عنصر زكي قد اشتمل عليه هذا العالم الجليل!

إن هذه التضحية نادرة المثال، وإن مما ساعد التيمي على انتصاره على شهوات النفس وأهوائها ما اشتهر به من الزهد في الدنيا والتخفف من مطالب الحياة، فهو عبد لله تعالى قد سعى حثيثًا في إكمال هذه العبودية التي تقتضي من العبد أن يكون على مراد الله تعالى، يتوجه حيثما وجهه الإسلام، كلما لاح له عمل صالح سارع إليه، وكلما اعترضه عمل سيئ اجتنبه وإن كان في ذلك زهاق نفسه.

من أخبار يونس بن عبيد رحمه الله:

ومن العلماء المشهورين بالورع الإمام عبد الله يونس بن عبيد العبدي، ومن أخباره في الورع والاحتياط في كسب المال الحلال وتحريه الشديد في ذلك ما ذكره الإمام الذهبي عن الأصمعي عن مؤمل بن إسماعيل قال: جاء رجل شامي إلى

(١) هو الإمام الفقيه الواعظ إبراهيم بن يزيد التيمي من تيم الرباب.

(٢) الديماس يطلق على الحمام والسَّرَب ويسمى به سجن الحجاج كما ذكر صاحب القاموس.

(٣) طبقات ابن سعد ٦/ ٢٨٥.

سوق الخـزازين، فقـال: عندك مُطْرَف بأربعمـائة؟ فقـال يونس بن عبيـد: عندنا بمائتين، فنادى المنادي: الصلاة، فـانطلق يونس إلى بني قُشَيْر ليـصلي بهم، فجاء وقد باع ابن أخته المطرف من الشامي بأربعمائة، فقال: ما هذه الدراهم؟ قال: ثمن ذلك المطرف، فقال: يا عبد الله هذا المطرف الذي عرضته عليك بمئتي درهم، فإن شئت فـخذه وخذ مـائتين وإن شئت فَدَعْـه، قال: من أنت؟ وما اسـمك؟ قال: يونس بن عبيد، قال: فو الله إنا لنكون في نحـر العدو فإذا اشتد الأمر علينا قلنا: اللهم رب يونس فرِّج عنا، أو شبيه هذا.

فقال يونس: سبحان الله سبحان الله![1].

قال الذهبي: وقـال: أمية بن خـالد: جاءت امرأةٌ يونسَ بن عـبيد بجبـة خَزّ، فقـالت له: اشترِها، قـال: بكم؟ قالت: بخمسـمائة، قال: هي خـير من ذلك، قالت: بستمائة، قال: هي خير من ذلك، فلم يزل حتى بلغت ألفا.

وكان يشتري الإبريسـم من البصرة فيبعث به إلى وكيله بـالسوس، وكان وكيله يبعث إليـه بالخز، فإن كتب وكـيله إليه: إن المتاع عندهم زائد لم يشـتر منهم أبدًا حتى يخبرهم أن وكيله كتب إليه أن المتاع عندهم زائد[2].

قال: وقال بشر بن المفضل: جاءت امرأة بمُطْرَف خزٍّ إلى يونس بن عبيد تعرضه عليه، فقال لهـا: بكم؟ قالت: بستين درهما، فألقاه إلى جـاره فقال: كيف تراه؟ قال: بعـشرين ومـائة، قال: أرى ذاك ثمنه أو نحـوا من ثمنه، فقال لـها: اذهبي فاستأمري أهلك في بيعه بخمس وعـشرين ومائة، قالت: أمروني أن أبيعه بستين، قال: ارجعي فاستأمريهم[3].

قـال: وقال النضـر بن شمـيل: غلا الخَـزّ في موضع كـان إذا غلا هناك غـلا بالبصرة، وكان يونس بن عـبيد خزَّازا فعلم بذلك فاشترى من رجل مـتاعًا بثلاثين ألفا، فلما كـان بعد ذلك قال لصاحبه: هل كنت علمت أن المتـاع غلا بأرض كذا وكذا؟ قـال: لا، لو علمت لم أَبِعْ؟ قال: هَلُمَّ إليَّ مـالي وخذ مالك، فـرد عليه الثلاثين الألف[4].

---

(١)، (٢) سير أعلام النبلاء ٦/ ٢٨٩ .

(٣) سير أعلام النبلاء ٦/ ٢٩٠

(٤) سير أعلام النبلاء ٦/ ٢٩٣ .

وبعد: فـهذه أمثلة مهـمة للأمانة والورع والمعـاملة الإسلامية، فـهذا يونس بن عبيـد رحمه الله تعالى يرد على الرجل الشامي نصف المبـلغ الذي دفعه ثمنًا لذلك الكساء، وكان بإمكانه أن يسكت ويأخذ المبلغ كاملاً مادام المشتري راضيًا بذلك.

ونراه يرفع سعر الجُـبَّة التي أراد شراءها من تلك المرأة إلى الضـعف مع أنها قد عرضتها عليه بنصف ذلك الثمن.

ونراه يخبر التـجار بزيادة الأسعار في البلاد الأخرى قـبل أن يشتري منهم، ولما اشترى من أحد التجار قمـاشًا وخشيَ أنه لم يعلم بزيادة الأسعار في بلد آخر يؤثِّر على سعر البلد عندهم جاء إليه فأخبره ثم رد عليه بضاعته.

ولما عرضت عليه تلك المرأة ذلك الكساء بستين رفع سـعره إلى خمسة وعشرين ومائة.

فما الذي دفع يونس بن عبيـد إلى التعفف عن ذلك المال الذي جاء برضَى من أصحابه؟!

إنه شعوره القوي برقابة الله عـز وجل، وإحساسه بأن أخذ ذلك المال لا يُرضي الله سبـحانه، وإيمانه القـوي الحي باليوم الآخر ومـا فيه مـن الوقوف بين يدي الله تعالى للحساب، ثم المصير إلى الثواب العظيم أو العقاب الأليم.

إن هذا الشـعور لا يماثله ولا يـقاربه أي دافع آخـر نحـو العفـة والنزاهة، لأنه يحول بين المرء وهواه المنحرف، ويعدل سلوكه حتى في الأمور التي لا تزال حبيسة الصدور، ولم تظهر للناس.

وإن يونس بن عبيد بهـذه المعاملة الإسلامية الكريمة ليُعدُّ قدوة عـالية للتجار في العفة والورع واكتساب المال الطيب.

من أخبار الإمام مالك رحمه الله:

من ذلك ما رواه عبـد الله بن مسلمة القعنبي قال: دخلت على مـالك فوجدته باكيًـا، فقلت: يا أبا عـبد الله ما الذي يبكيك؟ قـال: يا ابن قعنب على مـا فَرَطَ

مني، ليتني جُلِدْتُ بكل كلمة تكلمت بها في هذا الأمر بسوط ولم يكن فرط مني ما فرط من هذا الرأي، وهذه المسائل، قد كان لي سعة فيما سُبِقْتُ إليه[1].

فالإمام مالك بن أنس رحمه الله يندم في هذا الخبر على ما صدر عنه من مسائل الاجتهاد الفقهية، ويخشى أن يكون قد لحقه في ذلك إثم فيما لو خالف الصواب، مع أنه يعلم أن المجتهد إذا كان من أهل الاجتهاد له أجر واحد إن أخطأ وأجران إن أصاب، ولكنْ غلب عليه مقام الورع والخشية فقال هذا الكلام.

ولم يكن هذا الكلام بشعورٍ منه بالتَّعجل في الفتيا أو التفريط، فلقد كان شديد التحري في الفتوى، بالغ الدقة في تحرير المسائل، ولقد نفع الله تعالى الأمة بمسائله وفتاويه في أمور لم يُفْتِ فيها من سبقوه من الأمور المستجدَّة، وإنه ليُعتَبرُ بهذا الكلام قدوةً حسنة للعلماء الذين قد يتعجل بعضهم بالفتوى ولا يعتريه مع ذلك شيء من الخشية ولا يدركه الورع.

من أخبار الإمام الشافعي رحمه الله:

من ذلك ما ذكره المزني قال: دخلت على الشافعي في مرضه الذى مات فيه، فقلت: يا أبا عبد الله كيف أصبحت؟ فرفع رأسه وقال: أصبحت من الدنيا راحلاً، ولإخواني مفارقًا، ولسوء عملي ملاقيا، وعلى الله واردًا، ما أدري روحي تصير إلى جنة فأهنِّيها، أو إلى نار فأعزِّيها، ثم بكى وأنشأ يقول:

ولما قسا قلبي وضاقت مذاهبي ... جعلت رجائي دون عفوك سلَّما

تعاظَمَني ذنبي فلما قرنته ... بعفوك ربِّي كان عفوك أعظما

فما زلتَ ذا عفو عن الذنب لم ... تَزَلْ تجود وتعفو مِنَّةً وتكرُّما[2]

فهذا مثل مما كان يتحلى به الإمام الشافعي من خشية الله تعالى، وهذا دليل على قوة إيمانه ورسوخ علمه، لأن من كان بالله أعرف كان منه أخوف.

من أخبار حجاج بن منهال رحمه الله:

لقد كان للعلماء مواقف عالية في القناعة والعفة، ومن أمثلة ذلك ما ذكره الإمام أحمد بن عبد الله العجلي عن حجاج بن منهال، قال: كان - يعني حجاج

(١) سير أعلام النبلاء ١٠/ ٢٦٤ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٠/ ٧٥ - ٧٦ .

ابن منهال – سمساراً يأخذ من كل دينار حبة، فجاء خراساني موسر من أصحاب الحديث، فاشترى له أنماطًا، فأعطاه التاجر ثلاثين ديناراً، فقال: ما هذه؟ قال: سمسرتك، قال: دنانيرك أهون عليَّ من هذا التراب، هات من كل دينار حبة، فأخذ منه ديناراً وكسراً[1].

فهذا العالم التقي حجاج بن منهال الذي كان يعمل في التجارة قد رد ذلك المبلغ الكبير مع أنه يعلم أن التاجر الخراساني قد أعطاه ذلك المبلغ عن طيب نفس وأنه أراد صلته لكونه من العلماء الصالحين. فالمال حلال له والحال هذه ولكنه تورع عنه وقنع بحقه الذي يأخذه مقابل عمله.

ولقد كان في عمل هذا العالم الجليل قدوة حسنة للعاملين في التجارة، وهكذا حينما يدخل علماء الدين الربانيون في المجال التجاري فإنهم يقدمون للمجتمع الإسلامي وغير الإسلامي أروع النماذج في العفة والزهد والورع، أما حين تقتصر الأسواق على النفعيين فإنها لا تكون بعيدة في الصورة والمضمون عن أسواق غير المسلمين، فلا يستطيع المسلمون أن يقدموا من التجارة أمثلة حية في الدعوة إلى الإسلام والتمسك بتعاليمه السامية.

من أخبار ابن إدريس وعيسى بن يونس رحمهما الله:

لقد كان أغلب العلماء يحتسبون الأجر عند الله تعالى على نشر السنة ولا يأخذون أجرة من طلاب العلم ولا من غيرهم مقابل ذلك، ومن أخبارهم في ذلك ما ذكره الإمام الذهبي عن مسروق بن عبد الرحمن الكندي قال: حدثني محمد بن المنذر الكندي جارٌ لعبد الله بن إدريس قال: حج الرشيد فدخل الكوفة فلم يتخلف إلا ابن إدريس وعيسى بن يونس، فبعث إليهما الأمينَ والمأمون، فحدثهما ابن إدريس بمائة حديث، فقال المأمون: يا عم أتأذن لي أن أعيدها حفظًا؟ قال: افعل، فأعادها، فعجب من حفظه، ومضيا إلى عيسى فحدثهما، فأمر له المأمون بعشرة آلاف درهم فأبى، وقال: ولا شربة ماء على حديث رسول الله ﷺ[2].

(١) سير أعلام النبلاء ١٠/ ٣٥٣ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٠/ ٢٧٦ .

فهـذا مثال من ورع العلمـاء وعفتهم حـيث كانوا لا يأخذون أجـرة ولا مكافأة على تعليم السنة النـبوية، فـقد رد هذا العـالم عيـسى بن يونس بن أبي إسـحاق السبـيعي مكافأة المأمون مع أنهـا مبلغ كبيـر تستشرف له النفـوس، والغالب على العلماء أنهم فـقراء، ومع ذلك قال هذا العالم الجليل «ولا شـربة ماء على حديث رسول الله ﷺ».

أما عبد الله بن إدريس الأودي فإن المأمون لم يتجرأ على منحه شيئًا من المال لما اشتـهر عنه من عدم أخـذ منح السلطان المعتادة فـضلاً عن أن تكون مـقابل تعليم السنة النبوية.

إن هذين العالمين وأمـثالهما أصحـابُ نفوس كبيـرة وطموحات عاليـة، فهؤلاء العلماء الربانيون ينظرون إلى الأعلى.. إلى الحياة الآخـرة ونعيمها الدائم الذي لا يدانيه أي نعـيم، ومن طمح بنظره إلى الأعلى فإنه لا يتُصور منه أن ينـحط ببصره إلى الأسفل، فلذلك سهل عليهم اتقاء الشبهات والزهدُ في الدنيا.

ومما روي أيضًا عن عـيسى بن يونس السبـيعي من التعـفف عن أخذ شيء من المال على تعليم السنة النبـوية ما ذكره الإمـام الذهبي من خبر أبي بلال الأشـعري عن جعفـر البرمكي قال: مـا رأينا في القُرَّاء مثل عيـسى بن يونس، أرسلنا إليه، فأتانا بالرَّقة، فاعـتل قبل أن يرجع. فقلتُ له: يا أبا عمرو، قـد أمرنا لك بعشرة آلاف. فقال: هيه. قلت: خـمسون ألفًا. قال: لا حاجة لي فـيها. فقلت: ولمَ؟ والله؟ لأهنِّئَنَّكَها، هي والله مـئة ألف، قال: لا والله، لا يتـحدَّثُ أهلُ العلم أني أكلتُ للسنَّة ثمنًا، ألا كان هذا قبلَ أن تُرسلوا إليَّ، فـأما على الحديث، فلا، ولا شربة ماء، ولا إهْلِيلَجة[1][2].

من أخبار أمير المؤمنين هارون الرشيد رحمه الله:

من ذلك ما ذكـره الحافظ ابن كـثير في ترجـمته قـال: وروى ابن عسـاكر عن إبراهيم المهدي قال: كنت يومًـا عند الرشيد فدعا طباخه فـقال: أعندك في الطعام

(١) الإهليلج، بكسر الألف وفـتح اللام، وقد تكسر، والواحـدة بهاء: شجر ينـبت في الهند وكابل والصين ثمره على هيئة حب الصنوبر الكبار.

(٢) سير أعلام النبلاء ٨/ ٤٩٣ .

لحم جزور؟ قال: نعم ألوان منه، فقال: أحضره مع الطعام، فلما وُضع بين يديه أخذ لقمة منه فوضعها في فيه فضحك جعفر البرمكي، فترك الرشيد مضغ اللقمة وأقبل عليه فقال: ممَّ تضحك؟ قال: لا شيء يا أمير المؤمنين، ذكرت كلامًا بيني وبين جاريتي البارحة، فقال له: بحقي عليك لما أخبرتني به، قال: حتى تأكل هذه اللقمة، فألقاها من فيه وقال: والله لتخبرنَّي، فقال: يا أمير المؤمنين بِكَمْ تقول إن هذا الطعام من لحم الجزور يقوَّم عليك؟ قال: بأربعة آلاف درهم، قال: لا والله يا أمير المؤمنين بل بأربعمائة ألف درهم، قال: وكيف ذلك؟ قال: إنك طلبت من طباخك لحم جزور قبل هذا اليوم بمدة طويلة فلم يوجد عنده فقلتَ: لا يخلو المطبخ من لحم جزور، فنحن ننحر كل يوم جزورًا لأجل مطبخ أمير المؤمنين، لأنا لانشتري من السوق لحم جزور، فصرف في لحم الجزور من ذلك اليوم إلى هذا اليوم أربعمائة ألف درهم، ولم يطلب أمير المؤمنين لحم جزور إلا هذا اليوم، قال جعفر: فضحكت لأن أمير المؤمنين إنما ناله من ذلك هذه اللقمة، فهي على أمير المؤمنين بأربعمائة ألف.

قال: فبكى الرشيد بكاءً شديدًا، وأمر برفع السماط من بين يديه، وأقبل على نفسه يوبخها ويقول: هلكتَ والله يا هارون، ولم يزل يبكي حتى آذنه المؤذنون بصلاة الظهر، فخرج فصلى بالناس، ثم رجع يبكي حتى آذنه المؤذنون بصلاة العصر، وقد أمر بألفي ألف تصرف على فقراء الحرمين، في كل حرم ألف ألف صدقة، وأمر بألفي ألف يُتصدق بها في جانبي بغداد الغربي والشرقي، وبألف ألف يتصدق بها على فقراء الكوفة والبصرة.

ثم خرج إلى صلاة العصر ثم رجع يبكي حتى صلى المغرب، ثم رجع فدخل عليه أبو يوسف القاضي فقال: ما شأنك يا أمير المؤمنين باكيًا في هذا اليوم؟ فذكر أمره وما صرف من المال الجزيل لأجل شهوته، وإنما ناله منها لقمة، فقال أبو يوسف لجعفر: هل كان ما تذبحونه من الجزور يفسد أو يأكله الناس؟ قال: بل يأكله الناس، فقال: أبشر يا أمير المؤمنين بثواب الله فيما صرفته من المال الذي أكله المسلمون في الأيام الماضية، وبما يسَّره الله عليك من الصدقة، وبما رزقك الله من خشيته وخوفه في هذا اليوم، وقد قال الله تعالى: ﴿**وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ**

جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]، فأمر له الرشيد بأربعمائة ألف، ثم استدعى بطعام فأكل منه فكان غداؤه في ذلك اليوم عشاء[١].

فهذا مثل جليل في الخشية من الله تعالى، فذلك البكاء الطويل كان بسبب خوف هارون الرشيد من عذاب الله جل وعلا مما وقع منه من الإسراف، مع أنه لم يتعمد ذلك.

لقد كان طوال ذلك اليوم يتذكر وقوفه بين يدى الله تعالى يوم القيامة ومحاسبته على ذلك المال الكثير الذي صُرِف من أجل تحقيق متعته، فيبكي بكاءً شديدًا مع ما بذله من تلك الصدقات العظيمة التي رجا بها محو ما اكتسبه من ذلك الإثم، فلما دخل عليه العالم الكبير أبو يوسف القاضي أبان له أن ما يأكله الناس لا يعد من الإسراف، وأن أمير المؤمنين قد حصل له الثواب بذلك وبما تصدق من ذلك المال الكثير، وبما حصل له من الخشية والخوف من الله تعالى ذلك اليوم، فسُرِّي عنه وزال عنه الكرب والغم، لأنه عظيم الثقة بالقاضي أبي يوسف في دينه وعلمه.

وقال الحافظ ابن كثير في بيان ما يتصف به أمير المؤمنين هارون الرشيد من التواضع والخشية: وقد استدعَى إليه أبا معاوية الضرير محمد بن حازم ليسمع منه الحديث، قال أبو معاوية: ما ذكرت عنده حديثًا إلا قال: صلى الله وسلم على سيدي، وإذا سمع فيه موعظة بكى حتى يبل الثرى، وأكلت عنده يومًا ثم قمت لأغسل يدي فصب الماء عليّ وأنا لا أراه، ثم قال: يا أبا معاوية أتدري من يصب عليك الماء؟ قلت لا، قال: يصب عليك أمير المؤمنين، قال أبو معاوية: فدعوت له، فقال: إنما أردت تعظيم العلم[٢].

فهذا موقف كبير من أمير المؤمنين هارون الرشيد في تعظيم العلم الديني واحترام أهله، وهذا دليل على نبله ورجاحة عقله، كما أن بكاءه من خشية الله دليل على حضور قلبه مع الله جلا وعلا.

قال الحافظ ابن كثير: وحدثه أبو معاوية يومًا عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة بحديث احتجاج آدم وموسى عليهما السلام، فقال عم الرشيد: أين

(١) البداية والنهاية ١٠/ ٢٢٥ .

(٢) البداية والنهاية ١٠/ ٢٢٣ - ٢٢٤ .

التقيا يا أبا معاوية؟ فغضب الرشيد من ذلك غضبًا شديدًا، وقال: أتعترض على الحديث؟! عليَّ بالنِّطع والسيف، فأُحضِر ذلك، فقام الناس يشفعون فيه، فقال الرشيد: هذه زندقة، ثم أمر بسجنه وأقسم أن لا يخرج حتى يخبرني من ألقى إليه هذا، فأقسم عمه بالإيمان المغلظة ما قال هذا له أحد، وإنما كانت هذه الكلمة بادرة مني وأنا أستغفر الله وأتوب إليه منها، فأطلقه[1].

وهذه غيرة عظيمة من أمير المؤمنين هارون الرشيد على حرمات الدين، وغضب لله تعالى يدل على قوة إيمانه، كما يدل ذلك على غزارة علمه، وقد حكم على صاحب ذلك السؤال بالزندقة مع أنه عمه وأراد قتله لولا شفاعة الناس فيه، ثم لما كان يعرف بأن عمه ليس ممن يُتَّهمون في دينهم فإنه قد خطر له بأنه حمل تلك الكلمة عن بعض الزنادقة فأقسم أن لا يخرجه من السجن حتى يخبره بمن ألقى إليه ذلك الاعتراض، وهذا اهتمام منه بتتبع الزنادقة والتحري عنهم، وقد كان هناك اهتمام كبير من خلفاء العصر العباسي الأول بالبحث عن الزنادقة ومحاكمتهم وإقامة الحد عليهم.

والحديث المذكور في الخبر هو ما أخرجه الشيخان رحمهما الله من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**احتج آدم وموسى فقال له موسى: يا آدم أنت أبونا، خَيَّبتنا وأخرجتنا من الجنة، قال له آدم: يا موسى اصطفاك الله بكلامه وخط لك بيده، أتلومني على أمر قدره الله علي قبل أن يخلقنى بأربعين سنة؟ فحج آدم موسى، فحج آدم موسى، ثلاثًا**»[2].

من أخبار وكيع رحمه الله:

لقد أُثِر عن العلماء أخبار كثيرة تدل على اهتمامهم بتطبيق التوجيهات والوصايا النبوية، وإشفاقهم من التقصير في هذا الأمر.

ومن أمثلة ذلك ما رواه يحيى بن معين قال: سمعت وكيعًا[3] يقول: وأي يوم لنا من الموت؟ ورأيته أخذ في كتاب «الزهد» يقرأُه، فلما بلغ حديثًا منه ترك

(١) البداية والنهاية ١٠/ ٢٢٤ .

(٢) صحيح البخاري، رقم ٦٦١٤، كتاب القدر (١١/ ٥٠٥). صحيح مسلم، رقم ٢٦٥٢، كتاب القدر (ص ٢٠٤٢).

(٣) هو وكيع بن الجراح الرؤاسى.

الكتاب، ثم قام فلم يحدث، فلما كان من الغد وأخذ فيه بلغ ذلك المكان قام أيضًا ولم يحدث حتى صنع ذلك ثلاثة أيام.

قال عباس الراوي عن يحيى بن معين: قلت ليحيى: وأي حديث هو؟ قال: حديث «**كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل**»[1].

وهكذا تأثر هذا الإمام من قراءة هذا الحديث، وذلك لأنه وأمثاله من العلماء الربانيين ينظرون إلى العمل مع العلم، فإذا شعروا بأنهم علموا شيئًا لم يطبقوه أدركتهم الخشية من الله تعالى فظهر ذلك في سلوكهم.

وحيث إن هذا الحديث يوصي بالزهد في الدنيا، ويضع حدًا للزهد يجعل المسلم يسير في إقامته وكأنه مسافر فإنه قلَّما يصل المسلم إلى تطبيق ذلك، فلما قرأ وكيع هذا الحديث وقارن بين مدلوله وبين حاله مع ما هو فيه من الزهد المعروف رأى أنه لم يجعل متاعه في حياته كمتاع المسافر وأدركه الخوف من الله تعالى.

وكان وكيع مشهوراً بكثرة الصلاة والصوم، حتى وصلت شهرته بالعبادة إلى الحجاز وهو في العراق، وجرى له مع الفضيل بن عياض خبر في بدايته طرافة وفي نهايته حكمة، يقول سعيد بن منصور: قدم وكيع مكة وكان سمينًا فقال له الفضيل بن عياض: ما هذا السِّمَن وأنت راهب العراق؟ قال: مِنْ فرَحي بالإسلام، فأفحمه[2].

فهذا جواب حكيم وسديد، وذلك لأن الإنسان إذا غمره الفرح غمرته السعادة، وإن كان سعيداً في حياته لم يتعرض للأمراض المنهكة التي تضعف الجسم، وليس هناك من الفرح عند وكيع أعظم من نعمة الهداية إلى الإسلام، ولما كان فرحه بهذه الهداية عظيمًا فإن ذلك قد أنساه كل هموم الدنيا ومشكلاتها فلم تَعُدْ تلك الهموم والمشكلات تؤثر على جسمه.

وهذا الجواب النيِّر من الإمام وكيع رحمه الله تعالي يصوِّر مشاعر المسلمين الصادقين الذين تغمرهم الفرحة الكبري كلما تذكروا تحلِّيهم بنعمة الهداية إلى هذا الدين العظيم.

(١) تاريخ ابن معين / ٦٣١ - ٦٣٢، سير أعلام النبلاء ٩/ ١٤٩ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٩/ ١٥٦.

وكما ذكر وكيع من أن تلبُّسه بالصحة بسبب فرحة بالإسلام فإن ما يتمتع به المسلمون الذين يعتزون بإسلامهم من حياة الطمأنينة والصبر الجميل على الأذى والبراءة من الأمراض النفسية.. إن ذلك راجع إلى شعورهم بالسعادة الكبرى لإيمانهم بالإسلام وركونهم في كل الملمات إلى قدرة خالق الكون جل وعلا.

وهذا الذي ذكره وكيع يُعدُّ تعبيراً عن أهم أسباب السعادة الروحية الجالبة لصحة البدن، ولا يعني ذلك إطِّرادَ هذا الأمر في كل المسلمين الصادقين، فقد يصيب الله تعالى العبد بالأمراض ليمحو بها خطاياه وليتقوَّى إيمانه بالرجوع إليه تعالى ولغير ذلك من الحكم الجليلة، ولكن العبد المؤمن قد يُمرض جسمه ولكن لا تُمرض نفسه لإيمانه بقضاء الله تعالى وقدره.

من مواقف زكريا بن عدي رحمه الله:

من ذلك ما ذكره ابن أبي حاتم: أن زكريا بن عدي اشتكت عينه، فأتاه إنسان بكحل، فقال: أنت ممن يسمع الحديث؟ قال: نعم، فأبى أن يأخذه[1].

فحيث علم زكريا بن عدي أن ذلك الرجل ممن يأخذون عنه الحديث خشي أن يكون أخذ الكحل من تلميذه من باب أخذ الأجرة على الحديث.

من مواقف بشر بن الحارث رحمه الله:

ومن المواقف في الورع ما رُوي عن بشر بن الحارث الملقَّب بالحافي أن رجلا جاء إليه وقبَّله وجعل يقول: يا سيدي أبا نصر، فلما ذهب قال بشر لأصحابه: رجل أحب رجلاً على خير توهمه، لعل المُحِبَّ قد نجا والمحبوبَ لا يُدرَى ما حاله[2].

وعن أيوب العطار أنه سمع بشراً يقول: حدثنا حماد بن زيد.. ثم قال: أستغفر الله إن لِذِكْر الإسناد في القلب خيلاء[3].

ورُوِي عنه أنه قال: ما اتقى الله من أحب الشهرة[4].

فهذه نماذج من الورع المبني على سرعة التذكر والدقة في محاسبة النفس.

---

(١) الجرح والتعديل ٨/ ٤٥٦ .
(٢) سير أعلام النبلاء ١٠/ ٤٧٥ .
(٣) سير أعلام النبلاء ١٠/ ٤٧٠ - ٤٧١ .
(٤) سير أعلام النبلاء ١٠/ ٤٧٦ .

والذكر القلبي من أعظم النعم على المسلم، فصاحب هذا الذكر كلما خطر في قلبه خاطر أو أراد أن يقوم بعمل أو خاطبه أحد تذكر الله جل وعلا حالاً وتذكر الحساب في الآخرة والجنة والنار فيكون كلامه وسلوكه مبنيّا على هذا التذكر، وقلما يَضِلّ أو يَزِلّ من كان قلبه عامرًا بذكر الله تعالى واليوم الآخر، لأنه مستمر في محاسبة نفسه في الدنيا حتى يلقى الله تعالى وقد محَّص نفسه وطهرها من المخالفات.

وفي بشر بن الحارث يقول إبراهيم الحربي: ما أخرجَتْ بغداد أتم عقلا من بشر ولاَ أحفظ للسانه، كان في كل شعرة منه عقل، وَطِئ الناس عقبه خمسين سنة ما عُرِف له غِيبة لمسلم، ما رأيت أفضل منه[1].

وهذا كلام جيد حيث وصفه بكمال العقل وجعل مسوغ ذلك كونَه راقب نفسه مراقبة تامة وسار بها على صراط مستقيم متجنبًا مواقع الزلل، ولا أدلَّ على ذلك من كونه عاش خمسين سنة متبوعًا من الناس ولم يُعرف له غيبة لمسلم.

ومن كلماته الراشدة التي تدل على تفوقه في هذا المجال قوله «إذا أعجبك الكلام فاصْمُتْ، وإذا أعجبك الصمت فتكلم»[3].

فهذا دليل على الاستسلام التام لله تعالى والبراءة من حظ النفس، فالكلام والصمت يحكمهما ابتغاء رضوان الله تعالى لا رغبة النفس، فقد يكون الكلام في موطن أفضل لأنه يطهر النفس من الرياء وقد يكون الصمت أفضل لهذا السبب نفسه.

وذكر الحافظ ابن كثير خبر أخواته التقيات فقال: وذكر الخطيب أنه كان له أخواتٌ ثلاث وهن: مُخَّة، ومُضغة، وزبدة، وكلهن عابدات زاهدات مثله وأشد ورعًا أيضًا، ذهبت إحداهن إلى الإمام أحمد بن حنبل فقالت: إني ربَّما طَفئ السراج وأنا أغزل على ضوء القمر، فهل عليَّ عند البيع أن أُميز هذا من هذا؟ فقال: إن كان بينهما فرق فميِّزي للمشتري، وقالت له مرة إحداهن: ربما تمرُّ بنا

(١) سير أعلام النبلاء ١٠/ ٤٧٢ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٠/ ٤٧٢

مشاعل بني طاهر في الليل ونحن نغزل فـنغزل الطاق والطاقين والطاقات فخلِّصني من ذلك، فأمرها أن تتصدق بذلك الغزل كله لمَّا اشتـبه عليها معرفة ذلك المقدار، وسألته عن أنين المريض أَفِيه شكوى؟ قال: لا، إنما هو شكوى إلى الله عز وجل، ثم خرجت فقال لابنه عبـد الله: يابني اذهب خلفها فاعلم لي من هذه المرأة! قال عبد الله: فذهبت وراءها فإذا هي قد دخلت دار بشر، وإذا هي أخته مُخَّة[1].

فهؤلاء الأخـوات الثلاث الطاهرات نشأن في بيت العالم العـابد الزاهد بشر بن الحارث فـرضعن من لبان الـورع، ولبِسْن من لباس التـقوى، فكانت فـيهن تلك الاستقامة التي تمثلت في العفة والورع والخشية، فحينما اشتبه الأمر عليهن فيما إذا غزلن تحت ضـوء القمـر أو تحت مشاعل الآخـرين التي يصل ضوؤها إلى بيـتهن تورعن عن ذلك الكسب لورود الشبهـة عليهن من ذلك، وهذا دليل على الحرص الأكيد لدى هؤلاء الأخوات على تنقية موارد الكسب من أي شبهة.

ونظرًا لسمو هذا التفكـير ودلالته الواضحة على قوة إيمان صاحـبه وعمق يقينه فإن الإمام أحمد قد اهتم بمعرفة تلك الفتاة التي أَلْقَتْ عليه تلك الأسئلة.

وإذا كان الإنسان دقـيق المحاسبة لنفـسه شديد الحرص على تخليص كـسبه من الشوائب فـإنه لا يُخشَى عليـه - بإذن الله تعالى - من أن يصـرف ماله في طريق المحرمات أو الشبهات، فإن الذي يحرص على دخول الدرهم الحلال يكون أحرص على خروجه في حلال.

من مواقف يوسف بن معدان رحمه الله:

قال الحافظ ابن كثـير في ترجمة محمد بن يوسف بن معـدان: وكان لا يشتري خبزه من خباز واحد، ولا بَقْلَه من بقـال واحد، كان لا يشتري إلا ممن لا يعرفه، يقول: أخشى أن يحابوني فأكون ممن يعيش بدينه[2].

فهـذه صورة من صـور الورع، حيث كـان هذا العابد الزاهد يتـورع عن شراء حوائجه ممن يعـرفونه خشية أن يراعـوه في الثمن لصلاحه وتقـواه فيكون قد أكل الدنيا بدينه.

(١) البداية والنهاية ١٠/ ٣١١ .

(٢) البداية والنهاية ١٠/ ١٩٢ .

وهذا مذهب جليل في الورع سبـقت له أمثلة من علي بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره.

من مواقف الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله:

ومن أمثلة الخـوف من الله تعالى وخشيـته ما جاء في وصف الإمـام أحمد بن حنبل، قال المروذي: كان أبو عـبد الله إذا ذَكر الموت خنقته العبـرة، وكان يقول: الخوف يمنعني أكل الطعـام والشراب، وإذا ذكرت الموت هان عليّ كل أمـر الدنيا، إنما هو طعام دون طعام ولباس دون لباس وإنها أيام قلائل، مـا أَعدل بالفقر شيئًا، ولو وجدت السبيل لخرجت حتى لا يكون لي ذِكْر[1].

فهـذا الإمام الجليل على مـا اشتهـر من الإيمان القوي والعـمل الصالح والورع الشديد يُؤَثِّرٌ عليه ذكر الموت حتى تخنقـه العبرة، لا من التأسف على فراق الدنيا، فليس من أهل هذا الشأن، وإنما خـشيةً مما بعـد الموت من الحساب والجزاء، فـهو لقوة يقينه ومعرفـته بالله تعالى قد عظمت خشيته واشتد إشـفاقه، حتى تضاءل في إحساسه عمله الصالح، وتضخم في ضميره الشعور بالتقصير وفوات ما يحب من الكمال، ومَنْ كان بالله أعرف كان من الله أخوف.

ومن فزعه من الدنيا كان يهرب من الشهرة، ولكنها كانت تلاحقه، فكان الناس يتكاثرون عليه، ويُكثرون من مدحـه، وكان يخشى على دينه من ذلك، ولكن إذا كانت الخشية من الله تعالـى تلازم المسلم فإنه بإذن الله تعالي يكون في حصانة من هذا المرض الخطير من أمراض القلوب، ألا وهو حب الجاه والسمعة.

ومن أخباره في الورع ما رُوِي عن سليمان الشاذكوني قال في الثناء على الإمام أحمد بن حنبل: لقـد حضرت من ورعه شيئـا بمكة: أنه أرهن سطلاً عند فامِي[2] فأخذ منه شيئًا لِيُقوِّته فجاء فـأعطاه فكَاكه، فأخرج إليه سطلين، فقال: انظر أيهما سطلك؟ فقال: لا أدري أنت في حلٍ منه وما أعطيتك، ولم يأخذه، قال الفامي: والله إنه لسطله، وإنما أردت أن أمتحنه فيه[3].

(١) سير أعلام النبلاء ١١/ ٢١٦.

(٢) أي بائع الفوم أي الحِمْص ويطلق على الحنطة وغيرها من الحبوب

(٣) سير أعلام النبلاء ١١/ ٢١٤.

فهذا مـثال جيد في الورع وترك الشـبهات، فحـينما اشتبه الحـلال بالحرام عند الإمام أحمـد ترك الحلال خشيـة الوقوع في الحرام، وكان من شـدة ورعه أنه ترك السطلين حالاً ولم ينتظر حتى يـبحث الفامي ويتأكد من سطله خشـية أن يعيِّن له أحدهما وقد يكون غيره.

ومما جاء في ورع الإمام أحمد بن حنبل ما ذكره أحمد بن محمد التستري قال: ذكروا أن أحـمد بن حنبل أتى عليه ثـلاثة أيام ما طَعِم فيـها فبـعث إلى صديق له فاقترض منه دقيـقا، فجهزوه بسرعة، فقال: كيف ذا؟ قـالوا: تنور صالح مُسْجَر، فخبزنا فيه، فقال: ارفعوا، وأمر بسدِّ باب بينه وبين صالح.

ذكره الذهبي وقال: لكونه أخذ جائزة المتوكل[1].

وهكذا تورع الإمام أحمد عن أكل الخبـز الذي خُبِز في تنور ولده صالح لكونه قبل جائزة الخليـفة، ولعله يعتقد بأن مصـدر المال قد اختلط بحرام فيكون مشـتبهًا فيه، فـامتنع من الاستـفادة منه بأي نوع وإن كان في هذا الشيء البسـيط مع شدة احـتيـاجه للطعـام، فمـا هذه النفس القـوية التي تحـمل الجسم على تحـمُّل هذه الشدائد؟! وما هذا الإيمان القوي الذي يتحكم في السلوك هذا التحكم المتقن؟!

ومن أخباره في الورع والعفة ما ذكره المرُّوذي قال: سمعت أبا الفوارس، ساكنَ أبي عبد الله[2] يقول: قـال لي أبو عبد الله: يا مـحمد ألْقَى الصـبي المقراض في البئر، فنزلت فـأخرجته فكتب لي إلى البـقال: أعطه نصف درهم، قلت: هذا لا يسوى قـيراط، والله لا أخذته، قال: فلمـا كان بَعْدُ دعاني فـقال: كم عليك من الكراء؟ فقلت: ثلاثة أشهر، قال: أنت في حِلٍّ، ثم قال أبو بكر الخلال: فاعتبروا يا أولي الألباب والعلم، هل تجدون أحدًا بلغكم عنه هذه الأخلاق؟![3].

نعم إنها أخـلاق عاليـة في العفة والسـماحة والكرم، فـعلى الرغم من أن هذا الرجل الذي قدَّم هذه الخـدمة للإمام أحمد قـد أبى أن يأخذ مقابلهـا وأقسم على ذلك فـإن أبا عبـد الله قد أهمـه هذا الأمر، وقـد يكون فكر بأن ذلك الرجل إنما

(١) سير أعلام النبلاء ١١/ ٢١٤.

(٢) يعني الإمام أحمد، أي الذي يسكن في بيته بالأجرة.

(٣) سير أعلام النبلاء ١١/ ٢١٩.

تعفف عن أخذ الأجرة إجلالاً له، وأنه لو قدَّمها له غيره لأخذها، وكأنه لا يريد أن يخرج من هذه الدنيا ولأحدٍ عليه حق وإن كان من باب بذل المعروف وقد سمحت نفس باذله به، لأنَ الإمام أحمد له مع نفسه سياسة شديدة في هذا الجانب، وهو أحرص على صحيفته يوم القيامة أن تدنس ولو بنقطة ضئيلة من السواد منه على بقاء كل ما يملك من الدنيا.

ومن أخبار الإمام أحمد في الزهد والقناعة ما رُوِي عن الحافظ إسحاق بن راهويه أنه قال: لما خرج أحمد إلى عبد الرزاق انقطعت به النفقة، فأكْرَى نفسه من بعض الجمَّالين إلى أن وافى صنعاء، وعرض عليه أصحابه المواساة فلم يأخذ[1].

وهذا يعدُّ تواضعًا من الإمام أحمد حيث عمل بالأجرة مع الجمالين ليسد بذلك حاجته الضرورية.

وعدم قبوله مواساة إخوانه دليل على شدة تحريه في الأمور المالية، فقد كان شديد الحذر من المشتبهات التي لا يقطع بإباحتها، فكان يخشى أن يكون في أموال الناس ما هو كذلك، ومن طريقته أنه يغلِّب جانب الحرمة أو الكراهة في الأمور المشتبهة احتياطًا لدينه.

وكما كان الإمام أحمد زاهدًا في المال فإنه كان زاهدًا في الجاه، يقول الحافظ يحيى بن معين: ما رأيت مثل أحمد، صحبناه خمسين سنة ما افتخر علينا بشيء مما كان فيه من الخير[2].

ويريد بالخير ما هو فيه من السمعة الدينية العالية، ولعله أراد أيضًا رفعة النسب حيث كان أحمد بن حنبل من العرب، وأكثر العلماء الذين كانوا معه من الموالي كما جاء في بعض الأخبار.

ومن ذلك ما ذكره الخَلاَّل قال: حدثنا المَرُّوذي قال: قلت لأبي عبد الله: قال لي رجل: مِنْ هنا إلى بلاد التركَ يدعون لك[3]، فكيف تؤدي شكر ما أنعم الله عليك وما بث لك في الناس؟ قال: أسأل الله أن لا يجعلنا مرائين[4].

(١) سير أعلام النبلاء ١١/ ٢١٤.
(٢) سير أعلام النبلاء ١١/ ٢١٤.
(٣) يعني للإمام أحمد.
(٤) سير أعلام النبلاء ١١/ ٣١٢.

في هذا الخبر بيان ما كان يتصف به الإمام أحمد من اليقين الراسخ والفقه العميق حيث لم ينخدع بثناء الناس عليه، بل ازداد بذلك إيمانًا وخشية لله تعالى.

وقال المرُّوذي: أَدخلتُ إبراهيم الحُصْريَّ على أبي عبد الله- وكان رجلا صالحا، فقال: إن أمي رأت لك منامًا هو كذا وكذا، وذَكَرَت الجنة، فقال: يا أخي إن سهل بن سلامة كان الناس يخبرونه بمثل هذا، وخرج لسفك الدماء، وقال: الرؤيا تسر المؤمن ولا تغره[1].

نعم فالرؤيا الصالحة تسر المؤمن بما فيها من بشرى الخير، وقد سمى النبى ﷺ رُؤَى الخير مبشرات، ولا تغره بالتكاسل عن العمل الصالح أو التساهل في مقارفة الأمور التى نهى عنها الإسلام، بل تدفعه إلى المزيد من التقوى ليكون أهلا لما بُشِّر به.

وقال عبد الله بن أحمد: سمعت أبي يقول: وددت أني نجوت من هذا الأمر كفافا لا علي ولا لي[2].

وهذا يعني أن خشية الله تعالى غلبت عليه فتمنى أن ينجو من عذابه وإن فاته ثوابه، وهذا من دلائل تعظيم الله تعالى وشدة استحضار أهوال اليوم الآخر، وقد رُويت هذه الكلمات عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قبيل وفاته.

وقال عباس الدُّوري: حدثنا علي بن أبي فَزَارَة جارُنا قال: كانت أمي مقعدة من نحو عشرين سنة، فقالت لي يوما: اذهب إلى أحمد بن حنبل فسله أن يدعو لي، فأتيت فدققت عليه وهو في دهليزه، فقال: من هذا؟ قلت: رجل سألتني أمي وهي مقعدة أن أسألك الدعاء، فسمعت كلامه كلام مغضب، فقال: نحن أحوج أن تدعو الله لنا، فولَّيت منصرفا، فخرجت عجوز فقالت: قد تركته يدعو لها، فجئت إلى بيتنا ودققت الباب فخرجَتْ أمي على رجليها تمشي.

ذكره الإمام الذهبي وقال: هذه الواقعة نقلها ثقتان عن عباس[3].

فهذا مثل من تواضع الإمام أحمد الجمّ، والتهوين من شأن نفسه، ومحاولة القضاء على أسباب الشرف الدنيوي، فقد استقبل ولد تلك المرأة بجفاء وأظهر

(١)، (٢) سير أعلام النبلاء ١١/ ٢٢٧.

(٣) سير أعلام النبلاء ١١/ ٢١١.

الغضب من طلبه ذلك، ولكنه بعد ذلك دعا لتلك المرأة في خلوته وما علم أن تلك العجوز التي نقلت خبره تسمع دعاءه، فهو قد تذمَّمَ من حبس المعروف عن المسلمين فدعا لتلك المرأة المقعدة، ولكنه لا يريد من الناس أن يرفعوا من شأنه وأن يُكثروا من الثناء عليه فجعل دعاءه سرّا، ليبلغ مقصده من غير أن يترتب عليه شيء مما يحذره.

ولقد بلغ هذا الإمام بذلك درجات عليا في مقام التوحيد، وهذا من أهم أسباب إجابة الله تعالى دعاءه.

وقال صالح بن أحمد: كان أبي إذا دعا له رجل يقول: الأعمال بخواتيمها[1].

وهذه دعوة من الإمام أحمد إلى عدم الاغترار بالعمل، فإن العبرة ليست بالعمل الحاضر وإنما هي بما يَخْتِم به الإنسان حياته، والذي يحمل هذا الشعور يكون لديه رصيد من الحصانة الإيمانية يمنعه -بإذن الله تعالى- من الانحراف عن الطريق المستقيم، لأنه يحمل معه في فكره دائمًا الحذرَ من سوء الخاتمة، ومَن حذِر من شيء كان أجدر بالوقاية منه.

وقال محمد بن الحسن بن هارون: رأيت أبا عبد الله إذا مشى في الطريق يكره أن يتبعه أحد.

ذكره الإمام الذهبي وقال: إيثار الخمول والتواضع وكثرةُ الوجل من علامات التقوى والفلاح[2].

أقول: وإن هذا التواضع يُعدُ من العواصم الواقية من عُجْب النفس، فإن كثرة الأتباع قد يكونون سببًا في ابتلاء المتبوع بالغرور.

قال المرُّوذي: قلت لأبي عبد الله: ما أكثر الداعي لك! قال: أخاف أن يكون استدراجا، بأي شيء هذا؟ وقلت له: قدِم رجل من طرسوس فقال: كنا في بلاد الروم في الغزو إذا هدأ الليل رفعوا أصواتهم بالدعاء: ادعوا لأبي عبد الله، وكنا نمد المنجنيق ونرمي عن أبي عبد الله، ولقد رُمي عنه بحجر والعلج على الحصن

(١)، (٢) سير أعلام النبلاء ١١/ ٢٢٦.

متترس بدرقة فذهب برأسه وبالدرقة، قال: فـتغيَّر وجه أبي عبد الله وقال: ليته لا يكون استدراجًا، قلت: كلاَّ[1].

هذا الخبر يصـور عِظَم منزلة الإمام أحمد في قلوب معاصـريه، حيث يدعو له المجاهدون في ليالي الجهاد، ويَتَيَمَّنُون به في قتالهم، كما يبين عِظَم منزلته عند الله تعالى حيث وَفَّق المجاهدين لإصابة الهدف حينما جعلوا السهم باسمه.

وفيه بيان لتواضع الإمام أحمد الشـديد وعِظَمِ خشيته من الله تعالى حيث خاف من أن يكون ما انتشر له من الذكر الحسن استدراجًا من الله تعالى.

لقد كان المظنون بعـامة الناس أن يظهر على وجوههم الفرح حينمـا يساق إليهم مثل هذا الخبر، لكن الإمام أحمد تغـير وجهه من الخوف، لأنه تذكر استدراج الله تعالى عبادَه، فغلَّب جانب الحذر منه على الفرح بما يبشِّر برضاه عنه.

ومن ذلك ما ذكره الخلال عن محمد بن علي بن بحر قال: سمعت «حُسْنَ» أمَّ ولد أبي عبد الله- يعني الإمام أحمـد بن حنبل- تقول: قلت لمولاي: اصرف فَرْدَ خلخالي، قال: وتطيب نفسك؟ قلت: نعم، فبِيعَ بثمـانية دنانير ونصف، وفرَّقتها وقت حملي، فلما ولدت حَـسنًا أعطى مولاتي كرامة درهما، فقـال: اشتري بهذا رأسًا فجاءت به فـأكلنا، فقال: يا حُسْنُ ما أملك غيـر هذا الدرهم، قالت: وكان إذا لم يكن عنده شيء فرح يومه.

قالت أم ولده حُسْن: ولما خرج إلى «سـرَّ من رأى» كنت قد غزلت غزلاً لينا، وعملت ثوبًا حسنا، فلما قدم أخرجته إليـه، وكنت قد أعطيت كراءه خمسة عشر درهما من الغلَّة، فلما نظر إليه قـال: ما أريده، قلت: يا مولاي عندي غير هذا، فدفعت الثوب إلى «فورانَ» فباعه باثنين وأربعين درهما، وغزلت ثوبا كبيرا، فقال: لا تقطعيه، دعيه، فكان كفنه[2].

فهذا مـثل بليغ في القناعة باليسـير والزهد في متاع الدنيـا، إنَّ تجرد النفس من التعلق بالدنيا دليل عـلى تعلقها بما هو أعظم من ذلك، فإن النفوس مـجبولة على حب الدنيا، ولا ترتفع بتفكيرها عن ذلك إلا بدافع من هيـمنة المعاني السامية على

(١) سير أعلام النبلاء ١١/ ٢١٠.
(٢) سير أعلام النبلاء ١١/ ٣٣٢- ٣٣٣.

النفس، وقد كان تفكير الإمام أحمد محصورًا في بلوغ رضوان الله تعالى والسعادة في الآخرة، فأصبح يفرح حينما يخلو بيته من المال حتى لا ينشغل به عن ذلك الهدف السامي.

ولقد أثَّر على من حوله بزهده وقناعته حتى جاءت أم ولده بشيء من حُلِيِّها فتصدقت بثمنه خدمة لذلك الهدف السامي الذي رسَّخه الإمام أحمد في نفوس من حوله.

ومن ذلك ما رُوِي عن إسماعيل الديلمي قال: كنت في البيت مع أحمد بن حنبل فإذا نحن بدَاقٍّ يدق الباب، قال: فخرجت إليه فإذا أنا بفتى عليه أطمار شَعْر، فقلت: ما حاجتك؟ قال: أريد أحمد بن حنبل، قال: فدخلت إليه فقلت: يا أبا عبد الله بالباب شاب عليه أطمار شعر يطلبك، قال: فخرج إليه، فسلم عليه، فقال له: يا أبا عبد الله أخبرني ما الزهد في الدنيا؟ فقال له أحمد؟ حدثنا سفيان عن الزهري: أن الزهد في الدنيا قِصَر الأمل، فقال له: يا أبا عبد الله صفه لي- قال: وكان الفتى قائمًا في الشمس والفيء بين يديه- قال: هو أن لا تبلغ من الشمس إلى الفيء، قال: ثم ذهب لِيولِّي، قال فقال له أحمد: قف، قال: فدخل فأخرج له صرة فدفعها إليه، فقال: يا أبا عبد الله من لا يبلغ من الشمس إلى الفيء أيش يعمل بهذه، ثم تركه وولَّى[1].

وهكذا روى الإمام أحمد بيان الزهد عن الإمام الزهري بهذه العبارة القصيرة، ولكنها كانت كافية شافية، فإن من رُزِق قصر الأمل في البقاء في الحياة الدنيا لا تطمح نفسه للتوسع في كماليات الحياة لأنه سيكون مشغولا بالعمل لما بعد الموت ولن يخطط لأعمال كبيرة في حياة قصيرة.

إن كثيرا من المسلمين الذين يبالغون في الاهتمام بأمور الدنيا إنما خدعهم طول الأمل بالبقاء على قيد الحياة، وقد يفاجِئُ بعضَهم الأجلُ في وقت سريع لم يكن يتوقعه ولا قريبًا منه.

وعبارة الإمام الزهري ليست بيانا لمعنى الزهد، وإنما هي بيان لأهم البواعث التي تبعث على الزهد، ولقد كان الإمام أحمد يعلم أن ذلك الشاب يعرف معنى

(١) طبقات الشافعية ١/١٠٨.

الزهد، وأنه إنما يريد معرفة أهم أمر يعينه عليـه، فكان جواب الإمام أحمد مناسبًا لحال السائل.

ومن ذلك ما أخرجه القاضي محمد بن أبي يعلى من حديث عبد الله بن الإمام أحمدَ بن حنبل قال: مرَّت بنا جنازة ونحن قعـود على مسجد أبي، فقال أبي: ما كانت صَنْعَةُ صاحب الجنازة؟ قالوا: كانت يبيع على الطريق، قال: في فنائه أو في فناء غيره؟ قالوا: في فناء غيره، قال: عَزَّ عليّ عَزَّ عليّ، إن كان فناء يتيم أو غيره فقد ذهبت أيامـه عُطلا، ثم قال: قم نصلي عليه عسى الله أن يكفِّر عنه سـيئاته، قال: فكبَّـر عليه أربع تكبيـرات، ثم حملناه إلى قبـره ودفنَّاه،ونام أبي تلك الليلة وهو مُغتَمٌّ به، فـإذا نحن بامرأة من بعض جيراننا جـاءت إلى أبي، فقالت: يا أبا عبد الله ألا أبشرك بشـارة؟ فقال لها: قولي يا مباركة، أنت امـرأة صالحة، قالت: نمت البارحـة فرأيت صاحب الجنازة الذي مـررتَ معه وهو يجـري في الجنة جَرْيًا وعليه حلَّتـان خضراوان، فـقلت له: ما فـعل الله بك؟ قال: غضـبان عليَّ وقت خروج روحي، فصلَّى علي أحمد بن حنبل فغفر ذنوبي ومتَّعني بالجنة[1].

في هذا الخـبر مـثل من إحسـاس الإمـام أحمـد الدقيق نحـو الحلال والحـرام والشبهات، فإنه لَمَّا علم أن صاحب الجنازة يستعمل الطريق العام للتجارة خشي أن يكون اعـتدى على مـا يخص بعض الجيـران من المنافع التي تتبع الـبيوت فـاهتمَّ بالدعاء له، وقد أفادت تلك الرؤيا الصالحة بأن الله تعالى غفر لذلك التاجر بسبب دعاء الإمام أحمد له.

وهذا الذي لاحظه الإمـام أحمـد يغـفل عنه بعض المسلمين، حـيث ينافسـون جيـرانهم على المنافع التي تتـبع دورهم، وهم أولى بها من غـيرهم، وبهـذا يقع هؤلاء في آثام لم يحسبوا لها حسابا.

ويمكن التمـثيل لذلك فيمـا يتعلق بهذا العصـر بالاستفادة من ظل البـيوت في إيقاف السيارات فصاحب البيت أولى من غيره بذلك.

وإن من خيـر نتائج الورع أن صاحـبه يكون من عـباد الله المخلصين كمـا ذكر الحافظ ابن كثير عن عبد الله بن الإمام أحمد قال: حين احتُضر أبي جعل يُكثر أن

(١) طبقات الحنابلة ٢/٥٨.

يقول: لا، بَعْـدْ، لا، بعد، فـقلت: يا أبة ما هذه اللفظة التي تلهـج بها في هذه الساعة؟ فقال: يا بني إن إبليس واقف فى زاوية البيت وهو عاضٌّ على إصبعه وهو يقول: فُتَّنِي يا أحمد! فأقول: لا، بعد، لا، بعد.

قال الحافظ ابن كثير: يعني لا يفوته حتى تخرج نفسه من جسده على التوحيد، كـما جـاء في بعض الأحـاديث «قـال إبليس: يا رب وعـزتك وجلالك مـا أزال أغويهم مادامت أرواحهم في أجسادهم، فقال الله: وعزتي وجلالي ولا أزال أغفر لهم ما استغفروني»[1].

فالإمام أحمد بن حنبل ممن دحروا الشيطان واستصغروه وكادوه بإيمانهم الراسخ وعملهم الصالح، ونجد أن الشيطان -كما جاء في هذا الخبر- تبدو عليه الحسرة إذا حضرت الوفاة مؤمنًا تقيّا صالحا مخلَصا، لأنه يكون قد فاته إغواؤه، وقد كتب الله عليه أن لا سبيل له على إغواء عباد الله المخلَصين، وقد سلَّم بذلك أمام الله تعالى كما جاء في قوله جل وعلا في حكاية قولة إبليس ﴿**قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ**﴾ [الحجر: ٣٩، ٤٠].

ونجد فقه الإمـام أحمد حينما قال لإبليس «لا، بعـد، لا، بعد» يعني أنني أيها الشيطان لن أسْلَم منك مادامت روحي في جسدي.

وإذا كان الشيطان قد قـال هذه الكلمة على سبيل التحسر والألم فـإنها بالنسبة للإمام أحمد شهادة تزكية من عدو لدود، والحق ما شهدت به الأعداء.

من مواقف سَرِيّ السَّقطي رحمه الله:

من ذلك ما ذكره الحافظ ابن كثير في تـرجمة «سَرِي السَّقطي» قال: وكان عنده مرة لوز فساومه رجل على الكُرِّ[2] بثلاثة وستين دينارا، ثم ذهب الرجل فإذا اللوز يساوي: الكرُّ تسعين دينارا، فقال له [يعني الرجل]: إني أشتري منك الكر بتسعين دينارا، فقـال له: إني إنما ساومتك بثـلاثة وستين دينارا وإني لا أبيـعه إلا بذلك، فقال الرجل: أنا اشتري منك بتسـعين دينارا، فقال: لا أبيعك هو إلا بما ساومتك

(١) البداية والنهاية ١٠/ ٣٥٥.
(٢) هو نوع من المكاييل الكبيرة.

عليه، فقال له الرجل: إن من النصح أن لا أشتري منك إلا بتسعين ديناراً، وذهب فلم يشتر منه[1].

فهذا مثال جيد في العفة والورع والزهد في الدنيا، ولقد كان كل من البائع والمشتري يتصفان بهذه الصفات العالية، فهما مثالان للتربية الإسلامية، فلقد كان بإمكان كل واحد منهما أن يوافق صاحبه فيما عرض عليه ويأخذ المبلغ الكبير، لكنهما كانا يُعدَّان المبلغ الكبير هو في أن يكسبا حلالاً وإن قلَّ، وأَنْ يُعفَّا أنفسهما من كل شبهة حاكت في النفس.

من مواقف ابن أبي حاتم رحمه الله:

ومن أخبار العلماء فيما يتعلق بالخشية والخوف من الله تعالى ما ذكره الإمام الذهبي من خبر علي بن الحسين بن الجنيد قال: سمعت يحيى بن معين يقول: إنا لنَطْعَن على أقوام لعلهم قد حَطُّوا رحالهم في الجنة من أكثر من مائتي سنة.

قال الذهبي: لعلها من مائة سنة، فإن ذلك لا يبلغ في أيام يحيى هذا القدر.

قال ابن مَهْرَوَيه: فدخلت على عبد الرحمن بن أبي حاتم وهو يقرأ على الناس كتاب «الجرح والتعديل» فحدثته بهذا فبكى وارتعدت يداه حتى سقط الكتاب، وجعل يبكى، ويستعيدني الحكاية.

قال الذهبي: أصابه على طريق الوجل وخوف العاقبة، وإلا فكلام الناقد الوَرِع في الضعفاء من النصح لدين الله والذَّبِّ عن السنة[2].

فهذا مثل على الخشية والخوف من الله تعالى كما قال الإمام الذهبي وإلا فإن الحافظ ابن أبي حاتم كان من العبَّاد الورعين ولا يُظَنُّ به أنه يتجنَّى على أحد من الرواة، لكنْ لقوة خشيته وشدة خوفه من الله عز وجل تأثر وبكى خشية أن يكون لحِقَه في دينه شيء من الكلام في الرواة.

فهذه كلمة صدرت من الإمام أبي زكريا يحيى بن معين، لعله أراد بها الحدَّ من المسارعة في نقد العلماء، وإلا فهو يعلم ويعلم غيره من علماء الجرح والتعديل أن المخلصين من النُّقاد ما أرادوا بنقدهم الحط من شأن الرواة، وإنما أرادوا الذَّبَّ عن سنة رسول الله ﷺ.

(١) البداية والنهاية ١١/ ١٥.

(٢) سير أعلام النبلاء ١٣/ ٢٦٨.

ووصلت هذه الكلمة إلى مسامع عالم رباني بذل حياته في خدمة السنة النبوية، فيغلب عليه الخوف من الله تعالى، وتهيمن على قلبه خشيته فيبكي ويسقط الكتاب من يده، لا لأنه تذكر مظلمة صدرت منه في حق العلماء، وإنما لغلبة مقام الخوف عليه الذي يغلب مقام تحكيم العقل، ويجعل صاحبه ينظر إلى الأمر بميزان وجدانه وعاطفته لا بميـزان تفكيره، فيغلبه البكاء من تذكـر هول الحساب بغضِّ النظر عن كونه مُحِقّا في نقده لأولئك الرواة أو مبطلا.

وفي ذلكم المشـهد يبدو الإمـام عبـد الرحمن بن أبي حاتم مـتين الدين راسخ العقيدة، حـيث غلب على قلبه حالاً مشهد الحسـاب وأهوال يوم القيامة فنسي في ذكرها مسوغاتِ ذلك النقد ووجوهَ شرعيته.

وإذا كان هذا العالم الجليل وأمثالهُ يخـشون الله تعالى ويخافون على دينهم في الكلام على الرواة مع أن هدفهم خدمـة السنة النبوية والدفاع عن الدين فكيف بمن ينتهكون أعراض المسلمين ويشوهون سمعتهم لأغراض دنيوية؟!

من مواقف الإمام البخاري رحمه الله:

من ذلك ما ذكره الحـافظ البغدادي من خبـر أبي سعيد بكر بن منيـر قال: كان حُمِل إلى محمـد بن إسماعيل -يعني الإمام البخاري- بضاعـة أنفذها إليه فلان، فاجتـمع بعض التجار إليـه بالعشية فطلبـوها منه بربح خمسة آلاف درهـم، فقال لهم: انصرفـوا الليلة، فجاء من الغد تجـار آخرون فطلبوا منه تلك البضـاعة بربح عشرة آلاف درهم فردهم وقـال: إني نويت البارحة أن أدفع إلى الذين طلبوا أمس بما طلبوا أول مـرة، فدفعهـا إليهم بما طلبوا - يعني الذين طلبـوا أول مرة- ودفع إليهم بربح خمسة آلاف درهم وقال: لا أحب أن أنقض نيتي[1].

فهذا مثال عال في العفة والقناعة من الإمام البخاري فقد حاسب نفسه على نية البيع على التجار الأولين الذين ساموا البضـاعة بنصف ما سامها به الآخرون، مع أنه لم يتم بينهم عقد ولا مجرد وعد بذلك.

(١) تاريخ بغداد ٢/ ١١-١٢.

وهذا الخلق الكريم من لزوم مـا لا يلزم ابتغـاء وجه الله تعالى دليـل على قوة الإيمان وعمق اليقين وغلبة التفكير بالآخرة على التفكير بالدنيا.

وقال محمد بن أبي حاتم كاتبُ البخاري: وكان لأبي عبد الله- يعني البخاري- غريم قطع عليـه مالا كثـيرا، فبلغـه أنه قدم «آمل» ونحن عنده بفـربر، فقلنا له: ينبغي أن تعبر -يعني النهر- وتأخذه بمالك، فقال: ليس لنا أن نروعه.

ثم بلغ غـريمَه مكانُه بفربر فـخرج إلى خوارزم، فـقلنا: ينبغـي أن تقول لأبي سلمة الكُـشاني عامل آملَ ليكـتب إلى خوارزم في أخذه واسـتخـراج حقك منه، فقـال: إنْ أخذت منهم كتـابا طمعـوا مني في كتاب، ولست أبيـع ديني بدنياي، فجهدنا، فلم يأخذ حتى كلمنا السلطان عن غير أمره فكتب إلى والي خوارزم.

فلما بلغ أبا عبد الله ذلك وجد وجدا شديدا، وقال: لا تكونوا أشفق عليَّ من نفـسي، وكـتب كتـابا، وأردف تلك الكتب بكـتب، وكتب إلى بعـض أصحـابه بخوارزم أن لا يتعرض لغريمه إلا بخير.

فرجع غريمه إلى آمل وقصد إلى ناحية مرو، فاجتمع التجار وأُخبر السلطان بأن أبا عبـد الله خرج في طلب غريم له، فـأراد السلطان التشديد على غـريمه، وكره ذلك أبو عبد الله وصالح غـريمه على أن يعطيه كل سنة عشرة دراهم شيـئًا يسيرا، وكان المال خمـسة وعشرين ألفا، ولم يصل مـن ذلك المال إلى درهم ولا إلى أكثر منه[1].

وهكذا رأينا مثـلا من سماحة الإمام البـخاري وكرمه حتـى مع من أساء إليه، فذلك الرجل الذي أخذ مـال أبي عبد الله ولم يقضه إياه يسيء إليـه ويتهرب منه، ولكن أبا عبد الله يحسن إليه، ولا يرضى من تلامذته وأصحابه أن يروعوه.

وقد كـان الإمام البخـاري بذلك من أبرز المطبقين لسنـة رسول الله التى عكف على حفظها وتدوينها عمرا طويلا.

ولفتـة كريمة من أبي عبد الله حـينما عرض عليه أصـحابه أن يكتب لوالي آمل ليستخـرج له حقه من غريمه، فتذكَّـر أن احتياجه للولاة يجعله أسـيرا لهم، فكما

(١) سير أعلام النبلاء ١٢/٤٤٦.

قضوا له هذه الحاجة فهم قد يريدونه في حاجة من حوائجهم التي قد تشتمل على مخالفة، ولعله ترجح لديه أن ذلك الوالي من هذا النوع وإلا فإنه ليس ممن يبخلون بالإحسان إذا كان خالصًا لوجه الله تعالى وموافقًا لشريعته.

فمن أجل ذلك رفض ذلك العرض بشدة، وساءه تصرف أصحابه حينما كلموا السلطان في أمره، وكتب الكتب في إبطال مفعول ذلك التصرف حتى لا يمسوا غريمه بأي أذى.

فهذا مثل على السماحة وعدم الإلحاح على الدنيا وإن كانت بحق، فكيف بمن يلحون عليها وهي مشوبة بالباطل؟!

ومن ذلك ما ذكره الإمام الذهبي قال: وقال محمد بن أبي حاتم[1] ركبنا يومًا إلى الرمي ونحن بِفِرَبْرَ، فخرجنا إلى الدرب الذي يؤدي إلى الفُرضة[2]، فجعلنا نرمي، وأصاب سهم أبي عبد الله وتد القنطرة التي على نهر ورَّادة فانشق الوتد، فلما رآه أبو عبد الله نزل عن دابته فأخرج السهم من الوتد وترك الرمي، وقال لنا: ارجعوا، ورجعنا معه إلى المنزل فقال لي: يا أبا جعفر لي إليك حاجة تقضيها؟ قلت: أمرك طاعة، قال: حاجة مهمة -وهو يتنفس الصُّعَداء - فقال لمن معنا، اذهبوا مع أبي جعفر حتى تعينوه على ما سألته، فقلت: أيَّة حاجة هي؟ قال لي: تضمن قضاءها؟ قلت: نعم على الرأس والعين، قال: ينبغي أن تصير إلى صاحب القنطرة فتقول له: إنا قد أخللنا بالوتد فنحبُّ أن تأذن لنا في إقامة بدله أو تأخذ ثمنه، وتجعلنا في حِلّ مما كان منا.

وكان صاحب القنطرة حميدَ بن الأخضر الفربري، فقال لي: أبلغ أبا عبد الله السلام وقل له: أنت في حل مما كان منك، وقال: جميع ملكي لك الفداء، وإن قلت نفسي أكون قد كذبت، غير أني لم أكن أحب أن تحتشمني في وتد أو في ملكي، فأبلغته رسالته، فتهلَّل وجهه واستنار وأظهر سرورا، وقرأ في ذلك اليوم على الغرباء نحوًا من خمسمائة حديث، وتصدق بثلاثمائة درهم[3].

---

(١) يعني كاتب الإمام البخاري.

(٢) أي جانب النهر.

(٣) سير أعلام النبلاء ١٢/٤٤٣-٤٤٤.

ففي هذا الخبر مثل من خشية الله تعالى يقدمه الإمام أبو عبدالله البخاري، فعلى الرغم من كون الخطأ الذي وقع فيه بسيطا فإنه قد أعظم ذلك واغتم منه واهتم للاعتذار منه كثيرا، وهكذا يكون السلوك النابع من قوة الإيمان ورسوخ اليقين، حيث تظل المخالفة ماثلة في الفكر وإن صَغُرَتْ حتى يطمئن صاحبها إلى زوال آثارها.

وفي هذا الخبر بيان اهتمام أبي عبد الله البخاري بالرماية على الرغم من شَغْل جُلِّ وقته بالعلم، وذلك من تطبيق سنة رسول الله ﷺ في الحث على تعلم الرمي، فهو يطبّق ذلك كما يطبق سائر الأوامر الشرعية.

وبهذا الاهتمام الجاد يصبح العلماء وطلاب العلم كلهم من الرماة المتفوقين، فيستطيعون بذلك أن يشاركوا في الجهاد إذا لزم الأمر، ويصبحوا جيشا احتياطيا للأمة.

وفي هذا الخبر موقف يشكر لهذا الرجل الذي أظهر احتراما بالغا لعلماء الدين حيث فدى البخاري بكل ما يملك، وهذا دليل على قوة الإيمان وصفاء القلوب.

ومما جاء في هذا المعنى ما ذكره كاتب الإمام البخاري ابنُ أبي حاتم قال: ورأيته [يعني الإمام البخارى] استلْقَى على قفاه يوما ونحن بِفِرَبْرَ في تصنيفه كتاب «التفسير» وكان أتعب نفسه ذلك اليوم في كثرة إخراج الحديث فقلت له: يا أبا عبد الله سمعتك تقول يوما: إني ما أتيت شيئًا بغير علم قط منذ عقلت، فأي علم في هذا الاستلقاء؟ فقال: أتْعَبنا أنفسنا في هذا اليوم، وهذا ثَغْر من الثغور خشيت أن يحدث حدث من أمر العدو فأحببت أن أستريح، وآخذ أُهْبَة ذلك، فإن غافَصَنا العدو كان بنَا حرِاك.

قال ابن أبي حاتم: وكان يركب إلى الرمي كثيرًا فما أعلمُني رأيته في طول ما صحبته أخطأ سهمه الهدف إلا مرتين، فكان يصيب الهدف في كل ذلك، وكان لا يُسْبَق[1].

ومن ذلك ما رواه الخطيب البغدادي من حديث علي بن محمد بن منصور قال: سمعت أبي يقول: كنا في مجلس أبي عبد الله محمد بن إسماعيل، فرفع إنسان

(١) تاريخ بغداد ٢/ ١٤، سير أعلام النبلاء ٢/ ٤٤٤.

من لحيته قذاة فطرحها على الأرض، قال: فرأيت محمد بن إسماعيل ينظر إليها وإلى الناس، فلما غفل الناس رأيته مد يده فرفع القذاة من الأرض فأدخلها في كمه، فلما خرج من المسجد رأيته أخرجها فطرحها على الأرض[1].

فهذا إحساس قوي من الإمام أبي عبد الله البخاري بحرمة المسجد وقداسته، فالقذاة وإن كانت مثل الذره لا ينبغي أن تُرَمى في المسجد.

وليس من الحزم والاحتياط للدين أن يتساهل المسلم في سقوط بعض القَذَى منه في المسجد وإن صغر، اعتماداً على أن هناك من يقوم بتنظيف المسجد، فإنَّ تعمد تدنيس المسجد استهانة به.

ومن أمثلة ورع الإمام البخاري ما ذكره الحافظ الذهبي من أن بعض أصحابه قال له: يقولون إنك تناولت فلانا، قال: سبحان الله ماذكرت أحداً بسوء إلا أن أكون ساهيا، وما يخرج اسم فلان من صحيفتي يوم القيامة[2].

فهذا مثل من ورع الإمام البخاري وعفة لسانه، فما أجمل هذه السيرة الحميدة التي لا يذكر فيها صاحبها أنه ذكر أحدا بسوء في يوم من الأيام، وإن من استطاع أن يملك لسانه فإنه أقدر على حفظ جوارحه الأخرى.

ولقد كان من شدة ورعه أنه كان يقول: ما أردت أن أتكلم بكلام فيه ذكر الدنيا إلا بدأت بحمد الله تعالى والثناء عليه[3].

وإن عبدا لا يتكلم بكلام الدنيا إلا بعد حمد الله تعالى والثناء عليه جدير بأن يعصمه الله تعالى من الزلل، فلن يُخَيِّب الله تعالى رجلا لجأ إليه وقدم رضاه.

ومن مواقف أبي عبد الله الإمام البخاري في التقوى والورع ما ذكره عبد الله بن محمد الصارفي قال: كنت عند أبي عبد الله في منزله فجاءته جارية، وأرادت دخول المنزل فعثرت على محبرة بين يديه، فقال لها: كيف تمشين؟ قالت: إذا لم يكن طريق كيف أمشي؟ فبسط يديه وقال لها: اذهبي فقد أعتقتك، قال: فقيل فيما بعد: يا أبا عبد الله أغضبَتْكَ الجارية؟ قال: إذا كانت أغضبتني فإني أرضيت نفسي بما فعلت[4].

---

(١) تاريخ بغداد ٢/ ١٣.

(٢)، (٣) سير أعلام النبلاء ٢/ ٤٤٥.

(٤) سير أعلام النبلاء ١٢/ ٤٥٢.

فهذا مثل بليغ في الورع والتقوى، فلـمجرد أن الإمام البخاريَّ تكلم على تلك الجارية بذلـك الكلام الذي ليس فيـه عنف ولا شدة خشي مـن إثم ذلك فرأي أن الاحتياط لدينه أن يعتق تلك الجارية، وهذا يدل على فقهه وإيمانه القوي.

ومن أخبـار الإمام البـخاري في الخشـية مـا ذكره محـمد بن أبي حـاتم قال: وسمعته يـقول لأبي معشر الضرير: اجعلني في حل يا أبا معـشر، فقال: من أي شيء؟ قال: رَوَيْتَ يومًـا حديثًا فنظـرت إليك وقد أُعجـبْتَ به وأنت تحرك رأسك ويدك فتبسمتُ من ذلك، قال: أنت في حلٍّ رحمك الله يا أبا عبد الله[1].

فهذا مثل من الإحساس الدقيق بالمخالفـات وإن صغُرت واستصحاب الفكر لها وإن طال أمدها، فإن أصـحاب القلوب المعمورة بالإيمان واليـقين لا ينسون الزلات وإن قلَّ حجمـها وما تزال ماثلة في أذهانهم وهم في حال من الندم حـتى يتأكدوا من زوال آثارها، وحيث إن المخالفات المتعلقة بحقوق الناس لابد لكمال التوبة منها من عفو أصحاب الحـقوق فإن أبا عبد الله البخاري قد اعتـذر لأبي معشر الضرير من تلك الابتسامة التي وَقَرَ في نفسه التفكير فيها وخشي من مَغَبَّتها يوم الحساب.

من أخبار الإمام الطبري رحمه الله:

ومن أخبار العلماء في باب الورع ما ذُكر عن الإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبـري، وفي ذلك يقـول أبو مـحمـد الفـرغـاني: حدثـنى أبو علي هارون بن عبدالعـزيز أن أبا جعفر لما دخل بغداد وكانت مـعه بضاعة يتقوَّت منهـا، فَسُرِقَتْ فأفـضى به الحال إلى بيع ثيـابه وكُمَّيّ قمـيصه، فـقال له بعض أصـدقائه: تنشط لتأديـب بعض ولد الوزير أبي الحسن عـبيد الله بـن يحى بن خاقان؟ قـال: نعم، فمضى الرجل فأحكم له أمره وعاد فأوصله إلى الوزير بعد أن أعاره ما يلبسه فقرَّبه الوزير ورفع مجلسه، وأجرى عليـه عشرة دنانير في الشهر، فاشـترط عليه أوقات طلبه للعلم والصلوات والراحة وسأله إسلاف رزق شـهر، ففعل وأُدخِل في حجرة التأديب، وخرج إليه الصبي وهو أبو يحيى، فلما كتَّبه أخذ الخادم اللوح، ودخلوا مستبشـرين، فلم تَبْقَ جارية إلا أهْدَتْ إليه صينية فيها دراهـم ودنانير، فردَّ الجميعَ

(١) سير أعلام النبلاء ١٢/ ٤٤٤.

وقال: قد شـورطت على شيء فلا آخذ سواه، فَدَرَى الوزير ذلك، فـأدخلته عليه وسأله، فقال: هؤلاء عبيد وهم لا يملكون، فعظُم ذلك في نفسه[1].

فهذا مثـال على الورع والفقه في الدين، ولابد من اجتماع الأمرين للاسـتقامة على دين الله تعالى، فالذي يتحلَّى بالورع من غير فقه في الدين قد يقع في الحرام أو في الشبـهات وهو لا يدري، والذي يتـحلى بالفقـه من غيـر ورع يقسـو قلبه فيتساهل في الأمور المشتبهات.

ولقد كـان الإمام الطبري جامـعًا بين الأمرين، فدفـعه فقهـه إلى إدراك الحلال والحرام، ومنعه ورعه من تجاوز الحلال إلى الحرام أو الشبهات.

ومن ذلك مـا ذكره الفـرغاني قـال: كتب إليَّ المراغي قـال: لما تقلَّد الخاقـاني الوزارة وجه إلى أبي جعفر الطبري بمال كثير فامتنع من قبوله، فعرض عليه القضاء فامـتنع، فعـرض عليه المظالم فأبَـى، فعاتبـه أصحابه وقـالوا: لك في هذا ثواب وتُحيي سنةً قد درَسَتْ، وطمعـوا في قبوله المظالم، فباكروه ليركب مـعهم لقبول ذلك، فانتهرهم وقال: قد كنت أظن أني لو رغبت في ذلك لنهيتموني عنه، قال: فانصرفنا خجلين[2].

وهكذا رفض الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري قبول ما عُرِض عليه من المال ومن المناصب احتيـاطا لدينه، وفضَّل أن يعيش حياة الفـقر والتواضع على أن يعيش حـياة الغنى والجـاه، وبقي الإمام الطبري إمـامًا للأمـة الإسلاميـة على مر الأجيال في العلوم الإسلامية، وفي ذلك عز الدنيا والآخرة.

ومن ذلك ما ذكره الحافظ ابن كـثير في ترجمة الإمام محـمد بن جرير الطبري قال: وقد أراد الخليفة المقـتدر في بعض الأيام أن يكتب كتاب وقف تكون شروطه متفـقًا عليها بين العلمـاء، فقيل له: لا يقدر على اسـتحضار ذلك إلا مـحمد بن جرير الطبري فطَلب منه ذلك، فكتب له فاستدعاه الخليفة إليه وقرَّب منزلته عنده، وقال له: سل حـاجتك، فقـال: لا حاجة لي، فـقال: لابد أن تسألني حـاجة أو شيئا، فقال: أسأل من أمير المـؤمنين أن يتقدم أمره إلى الشرطة حتى يمنعوا السُّؤَّال يوم الجمعة أن يدخلوا إلى مقصورة الجامع، فأمر الخليفة بذلك[3].

(١) سير أعلام النبلاء ١٤/ ٢٧١- ٢٧٢.
(٢) سير أعلام النبلاء ١٤/ ٢٧٥.
(٣) البداية والنهاية ١١/ ١٥٧.

ففي هذا الخبر بيانٌ لسعة علم الإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري وشهادة من أهل عصره بتفوقه العلمي، وإن الذي يقرأ كتابيه العظيمين في التفسير والتاريخ يظن أنه متفوق في هذين العلمين فقط، ولكن هذا الخبر يبين أنه أفقه علماء عصره، وكذلك يتبين توسعه في الفقه من كتاباته الفقهية.

كما أن هذا الخبر شاهد على ما كان يتحلى به من الزهد والعفة.

حيث أَبَى أن يأخذ من الخليفة عوضًا ماليًا عن تلك الفتوى، وكان طلبه إزالة أمر يَعدُّه من الأمور المنكرة في المساجد، ألا وهو وجود السُّوَّال يوم الجمعة في المساجد، فكان هذا مثالا على اهتمامه بإصلاح مجتمعه وتعظيم بيوت الله تعالى.

ولقد ذكر له الحافظ ابن كثير أبياتا رائعة في الزهد وهي قوله:

إذا أعسرتُ لم يعلم رفيقي ... وأستغني فيستغني صديقي

حيائي حافظ لي ماء وجهي ... ورفقي في مطالبتي رفيقي

ولو أني سمحت ببذل وجهي ... لكنت إلى الغنى سهل الطريق[1]

من أخبار الإمام إبراهيم الحربي رحمه الله:

ومن أخبار القناعة والزهد ما ذُكِر عن الإمام إبراهيم الحربي من أن الخليفة المعتضد أرسل إليه بعشرة آلاف فردَّها، فقيل له: ففرِّقها، فأبى، ثم لما مرض سيَّر إليه المعتضد ألف دينار فلم يقبلها، فخاصَمتْه بنته، فقال: أتخشين إذا مت الفقر؟ قالت: نعم، قال: في تلك الزاوية اثنا عشر ألف جزء حديثية ولغوية وغير ذلك كتبتها بخطي، فبيعي منها كل يوم جزءًا بدرهم وأنفقيه[2].

وهكذا لم يقبل الإمام الحربي تلك الأعطيات على الرغم من كونه فقيرا، ويعيش تحت ضغط مطالب الأسرة.

ولقد وَجد في كتبه متنفسًا يَخْرج به من إحراج بنته التي خافت على مستقبلها الدنيوي بعده، حيث أفادها بأنها ستستغنى ببيع كتبه بعد موته سنين عديدة، ولو شاء أن يستمتع بقيمتها في حياته لصار ذا ثروة كبيرة.

---

(١) البداية والنهاية ١١/ ١٥٧.

(٢) سير أعلام النبلاء ١٣/ ٣٦٩

من أخبار حمدون البرذعي مع أبي زرعة رحمهما الله:

لقد اقترنت حياة الزهد والقناعة بالثقة المتبادلة بين التلاميذ والشيوخ، فكان التخلق بهذا الخلق دافعًا لطلاب العلم إلى الثقة بالعلماء، بينما كان الميل إلى حياة الترف والمظاهر الدنيوية دافعًا إلى نزع الثقة بالعلماء.

ومن الأخبار في ذلك ما رواه الحافظ الخطيب البغدادي من حديث محمد بن الهيثم بن علي النسوي قال: لما أن قدم حمدون البرذعي على أبي زرعة لكتابة الحديث دخل عليه فرأى في داره أواني وفُرُشًا كثيرة -قال: وكان ذلك لأخيه- فهمَّ أن يرجع ولا يكتب عنه، فلما كان من الليل رأى كأنه على شط بركة، ورأى ظل شخص في الماء، فقال: أنت الذي زَهِدْتَ في أبي زرعة؟! أعلمت أن أحمد ابن حنبل كان من الأبدال[1]، فلما أن مات أبدل الله مكانه أبا زرعة[2].

فهذا مثل لحساسية أهل العلم من مظاهر الحياة الدنيا، وهذا دليل على أنهم كانوا يقارنون بين العلم والعمل، فإذا رأوا العالم يتبسط في أمور الدنيا نفروا منه لأنه لم يعمل بما روى من أحاديث الزهد والقناعة.

ولما كانت تلك الأواني والفرش الكثيرة لأخي الحافظ أبي زرعة وليست له بَرَّأَه الله تعالى بتلك الرؤيا الصالحة التي رآها حمدون البرذعي، حيث رجع للسماع منه فعرف جلية الأمر.

من أخبار نصر بن علي الأزدي رحمه الله:

من أخبار زهد الصالحين في الجاه وخشيتهم من الله تعالى ما رُوي عن أبي بكر ابن أبي داود قال: كان المستعين بالله بعث إلى نصر بن علي[3] يُشْخِصُه للقضاء، فدعاه عبدالملك أمير البصرة وأمره بذلك، فقال: أرجعُ وأستخير الله تعالى، فرجع إلى بيته نصف النهار فصلى ركعتين وقال: اللهم إن كان لي عندك خير فاقبضني، فنام فأنبهوه فإذا هو ميت[4].

(١) أي من العلماء الذين يخلفون من سبقهم في الإمامة في العلم والدين.
(٢) تاريخ بغداد ١٠/ ٣٣٣.
(٣) هو أبو عمرو نصر بن علي الأزدي الجهضمي.
(٤) سير أعلام النبلاء ١٢/ ١٣٦.

فهذا العـالم قد دُعي إلى القضاء وهو مـجال من مجالات العـمل الصالح مع العدل وصلاح النية والسلامة من الوقوع في المآثم، ولكنه كره ذلك ونفر منه خشية التعرض لمجـالات المآثم، وقد بلغ به الخوف من الإلزام بالقضـاء إلى حد أنه سأل الله تعالى قبض روحه، فالحياة الدنيـا في عرف هؤلاء العارفين المتقين مجال واسع رحب للأعمال الصالحة، ولكنها أيضا مجال للأعمال السيئة، ودرء المفاسد عندهم مقدم عـلى جلب المصالح، فانتهـاء الحياة التي قد تُعـرِّض صاحبهـا لفتنة في دينه أولى من عمارتها بأعمال صالحة قد خالطتها أعمال سيئة.

من أخبار محمد بن سعيد الكوفي رحمه الله:

من المواقف الجيـدة في الورع ما جرى مـن محمـد بن سعيـد الكوفي المعروف بعقدة والد أبي العباس أحمد بن عقدة الحافظ المشهور[1] وذلك فيما رواه الخطيب البغدادي بإسناده عـن أبي علي النقار قال: سقطت من عقـدة دنانير على باب دار أبي ذر الخزاز فجاء بِنَخَّال ليطلبها، قـال عقدة: فوجدتها، ثم فكرت فقلت: ليس في الدنيا غير دنانيرك؟! فقلت للنخال: هي في ذمتك، ومضيت وتركته[2].

فهذا مثل في التـورع عن الشبهات حيث اشتبه عليـه الأمر فخشي أن لا تكون تلك الدنانير هي التي فـقدها، فتركهـا مع أن الذي يغلب على الظن أنها هي لأنه يعرف الموضع الذي فقدها فيه.

قال أبو علي النقار: وكـان -يعني عقدة- يؤدب ابن هشام الخـزاز -فلما حذق الصبي وتعلم وجه إلـيه هشام دنانير صالحـة فردها، فظن هشام أن عقدة اسـتقلها فأضعفـها له، فقال عقدة: مـا رددتها استقلالاً لها ولكن سـألني الصبي أن أعلمه القرآن فاختلط تعليم الـنحو بتعليم القرآن، فلا أستحل أن آخـذ منه شيئًا ولو دفع إليَّ الدنيا[3].

فهـذا مثل آخر من ورع هذا العالم الفـاضل حيث كان يأخـذ أجرًا على تعليم اللغة فلما اختلطت دروسها بدروس القـرآن ترك الأجر كله، وكان العلماء الأتقياء يتورعون عن أخذ الأجر على تعليم القرآن والسنة.

---

(١) سُمِّيَ عقدة لتعقيده في التصريف وكان عالما بالنحو.

(٢)، (٣) تاريخ بغداد ٥/ ١٥.

من أخبار ابن الدجاجي رحمه الله:

ومن ذلك ما ذكره السمعاني قال: قرأت بخط هبة الله السَّقطي أن ابن الدجاجي كان ذا وجاهة وتقدم وحال واسعة، وعهدي به وقد أخْنَى عليه الزمان، وقصدتُه في جماعة مُثْرين لنسمع منه وهو مريض، فدخلنا عليه وهو على بارية[1] وعليه جبة قد حرقت النار فيها، وليس عنده ما يساوي درهما، فحمل على نفسه حتى قرأنا عليه بحسب شَرَه أهل الحديث.

فلما خرجنا قلت: هل معكم ما نصرفه إلى الشيخ؟

فاجتمع له نحو خمسة مثاقيل، فدعوت بنته وأعطيتها، ووقفت لأرى تسليمها له، فلما أعطته لطم حُرَّ وجهه ونادى: وافضيحتاه، أنا آخذ على حديث رسول الله ﷺ عوضا؟ لا والله، ونهض حافيًا إلي، وبكى، فأعدت الذهب إليهم فتصدقوا به[2].

فهذا موقف كريم من هذا الشيخ الجليل يدل على درجة عالية من العفة والقناعة، حيث رَدَّ ذلك المبلغ بأسلوب مؤثر بيَّن فيه شناعة أخذ الأجرة على تعليم حديث رسول الله ﷺ، مع أن هذا الشيخ كان في حال يُرْثَى لها كما جاء في وصف السمعاني.

فما أعظم هذه النماذج العالية التي يقدِّمها علماء الأمة في العفة والقناعة والزهد والورع وغير ذلك من مكارم الأخلاق!

من أخبار القاضي محمد بن المظفر رحمه الله:

من أخبار العلماء في مجال الورع والعفة ما ذُكِر عن الإمام أبي بكر محمد بن المظفَّر الحموي أنه لما تولَّى القضاء لم يأخذ على القضاء رزقا، ولا غيَّر مأكله ولا ملبسه، وكان يسوِّي بين الناس، فانقلب عليه الكبراء، وكان نَزِهًا ورعا على طريقة السلف، له بيت يؤجره كل شهر بدينار ونصف وكان يقتات منه، فلما ولي القضاء

(١) هي فراش يصنع من القصب وهو من الفرش الخشنة.
(٢) سير أعلام النبلاء ١٨/ ٢٦٣.

جاء إنسان فدفع فيه أربعة دنانيرَ فأبى، وقال لا أغيِّر ساكني، وقد ارتبت بك، هلاَّ كانت هذه الزيادة من قبل القضاء؟![1].

فهـذا مثل من الورع والثبـات على الحق وإن غضب من ذلك كـبراء الناس في عرف أهل الدنيا، فإن هؤلاء الكبراء لا يرضون إلا عن القضاة الذين يحققون لهم شيئًا من مصالحهم الدنيوية، ويغضون الطرف عن الأمور التي تؤثر على دنياهم.

وهذا من الأمور التي جعلت بعض العلمـاء يفرون من تولِّي القضاء، لأنهم إن عدلوا تمام العدل وساووا بين الناس غضب منـهم الكبراء وناصبوهم العداء، ولكن إذا كان القـاضي قوي الإيمان راسخ الـيقين كهـذا العالم الجلـيل أبي بكر محـمد الحموي فإن الكبـراء يحترمونه في الأخير ويسلِّمون للحـكم الشرعي إما عن قناعة وتأثر بموقفه القوي، وإما استسلامًا لقوته وثباته.

ولقد كلل هـذا القاضي الجليل عمله الـكبير في العـدل بامتناعـه من أخذ المال الذي يخصص للـقضاة من قِـبَل الولاة، وهذا دليل على عفـته وقناعتـه، وكذلك عدم قبوله الزيادة في أجرة المسكن الذي يؤجره بعد توليه القضاء يدل على ورعه.

من أخبار أبي عبدالله الحميدي رحمه الله:

من أمثلة الورع والخشية ما ذكره الحسين بن محمد بن خسرو قال: جاء أبو بكر ابن ميمون فدقَّ الباب على الحميدي[2]، وظن أنه أذن له، فدخل فوجده مكشوف الفخـذ، فبكى الحـميدي وقـال: والله لقد نظرت إلى موضع لم يـنظره أحد منذ عقلت[3].

فهذا الإمام الجليل أبو عبدالله الحمـيدي يبكي من خشية الله تعالى لما رأى أحدُ زواره فخذه مكشوفة، وهذه الحساسية المرهفة من خشية الوقوع في المآثم دليل على قوة الإيمان بالله تعالى وشدة استحضار حسابه وجزائه.

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٩/ ٨٦.

(٢) هو لإمام الحافظ أبو عبدالله محمد بن فُتوح الحميدي الأزدي الأندلسي.

(٣) سير أعلام النبلاء ١٩/ ١٢٢.

من أخبار أبي إسحاق الشيرازي رحمه الله:

من أخبار العلماء في الورع ما ذكره الإمام الذهبي عن السمعاني قال: دخل أبو إسحاق[1] يومًا ليتغدَّى فنسي دينارًا، ثم ذكر فرجع فوجده، ففكر وقال: لعله وقع من غيري فتركه[2].

فهذا مثل للاحتياط للدين، فالغالب أن الدينار هو دينار أبي إسحاق، ومع ذلك تركه تورعًا خشية أن يكون قد سقط من غيره.

من أخبار أبي الفتح النابلسي رحمه الله:

من أمثلة العفة والقناعة ما ذُكِر عن الفقيه أبي الفتح نصر بن إبراهيم النابلسي، قال غيث بن علي الأَرْمَنَازي: سمعت من يحكي أن الملك تَتَشْ بن أَلْب أرسلان زار الفقيه نصرًا يومًا.. فسأله عن أحَلِّ الأموال التي يتصرف فيها السلطان، قال: أحلُّها أموال الجزية، فقام من عنده وأرسل إليه بمبلغ وقال: هذا من الجزية ففرِّقه على الأصحاب، فلم يقبله وقال: لا حاجة بنا إليه، فلما ذهب الرسول لاَمَه الفقيه نصر المصيِّصى، وقال: قد علمت حاجتنا إليه، فقال: لا تجزع من فواته فسوف يأتيك من الدنيا ما يكفيك فيما بعد، فكان كما تَفَرَّس فيه[3].

فهذا موف يُذكر للعالم الفقيه نصر بن إبراهيم النابلسي حيث رد ذلك المال الذي وصل إليه من الوالي على الرغم من شدة حاجته وحاجة من حوله، وعلى الرغم من كون ذلك المال من الجزية التي كان أفتى الوالي بأنها أحل أمواله.

وهكذا نجد نماذج رائعة مما يقوم به هؤلاء العلماء الأعلام من العمل الدائب في تطهير نفوسهم، وفطامها من كل ما هو محرم أو مشتبه فيه، أو يجرُّ المسلم إلى حرام أو شبهة.

وهذا دليل على تضاؤل حظ الدنيا في قلوبهم، وتضخم حظ الآخرة في وجدانهم، وأن التفكير في أمر الآخرة قد استحوذ على نفوسهم فأصبح سلوكهم منسجمًا مع هذا الاعتقاد الصحيح المتَّزن.

---

(١) هو الإمام أبو إسحاق إبراهيم بن علي الفيروزبادي الشيرازي.

(٢) سير أعلام النبلاء ١٨/ ٤٥٦.

(٣) سير أعلام النبلاء ٩/ ١٣٩ - ١٤٠.

من أخبار أبي سعد ابن البغدادي رحمه الله:

ومن أمثلة ذلك مـا ذكره أبو الفتح محـمد بن علي النَّطَنْزي قال: كنت ببـغداد فاقترض مني أبو سعد ابن البـغدادي عشرة دنانير، فاتفق أني دخلت على السلطان مسـعود بن محـمد فذكـرت له ذلك فبعث مـعي إليه خـمسمـائة دينار، فأبى أن يأخذها[1].

فهذا مـثل في العفة الورع، فقـد يكون هذا العالم ردَّ ذلك المبلغ لكونه يرى أنه قد اختلط الحلال بالحرام في مال ذلك الأمير فيكون التنزه عنه من باب الورع، وقد لا يكون ذلك بسـبب شبـهـة عرضت له فـيـه فيكون التنـزه عنه من باب العفـة والقناعة.

من أخبار أبي العباس ابن الحطيئة رحمه الله:

لقد كان بعض العلماء يشتغلون بنسخ الكتب والعيش من ذلك حتى لا يحتاجوا إلى غيـرهم ومن ذلك ما ذُكِر عن الإمـام أبي العباس أحـمد بن عبـدالله اللخمي المعروف بابن الحطـيئة أنه كـان يعيش من الوِرَاقة، وأنه علَّم زوجـته وبنتـه الكتابة فكتبتا مثلـه، فكان يأخذ الكتاب ويقسمه بينه وبينهما فـينسخ كل منهما طائفة من الكتاب، فلا يُفرَّق بين الخطوط إلا في شيء نادر، . . وكان لا يقـبل من أحد شيئًا مع العلم والعمل والخوف والإخلاص[2].

وهكذا كـان نسخ الكتب مصـدرًا مهـما لأولئك العلمـاء الذين يتورعـون عن الشبهـات ويخشون أن يدخل عليهم في دينهم شيء إذا قـبلوا الأموال التي تُوهب لهم.

من أخبار أبي عُبيد ابن سلاَّم رحمه الله:

من أخبار القناعة ما رواه الخطيب البغدادي من حديث الفُسطاطي قال: كان أبو عُبَيد -يعني القاسم بن سلاَّم- مع ابن طاهر فوجـه إليه أبو دُلَف يستهديه أبا عبيد مدة شهـرين، فأنفذ أبا عبيـد إليه، فأقام شهريـن، فلما أراد الانصراف وصله أبو دلف بثـلاثين ألف درهم، فلم يقبلهـا وقال: أنا في جَنَبَـةِ رجل ما يُحـوجني إلى

(١) سير أعلام النبلاء ٢٠/ ١٢٢.
(٢) سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٣٤٥.

صلة غيـره، ولا آخذ ما فيـه علي نقص، فلما عاد إلـى طاهر وصله بثلاثين ألف دينار، بدل ما وصله أبو دلف، فقـال له: أيها الأمير قد قبلتهـا ولكن قد أغنيتني بمعروفك وبرِّك وكفايتك عنها، وقد رأيت أن أشتري بها سلاحا وخيلا وأتوجه بها إلى الثغر ليكون الثواب متوافرا على الأمير، ففعل[٢].

فهذا موقف جليل في العـفة والقناعة من أبي عبيد القـاسم بن سلام رحمه الله تعالى، فهو لم يقـبل من أبي دُلَف ما أعطاه، وخشي أن يكون في ذلك نقص في دينه، وحينما أعطـاه عبدالله بن طاهر ذلك المبلغَ الكبير عفَّ عـنه وقنع بما هو فيه من إنفاق ابن طاهر عليه وأنفق ذلك المبلغ في سبيل الله تعالى.

وهنا يأتي تساؤل: كيف استطاع أبو عبـيد أن يغلب هوى النفس التى تميل غالبا إلى الاستزادة من الدنيـا، خصوصا وأن المعطِي قد أعطـى برضاه ومن ماله فليس هناك شبهة تحريم في ذلك المال؟!

فيـقال: إن هناك دافعا آخـر يدفع النفس إلى العمل غيَـر حب الدنيا، ألا وهو حب الآخـرة، فإذا كـان ارتبـاط الفكر بالدنيـا أقـوى تكوَّن سلوك الإنسـان على الاستـجابة لحب الدنـيا، وإذا كان ارتبـاط الفكر بالآخـرة أقوى توجـهت الأوامر للنفس بالعمل لما يترتب عليه الرفعة في الآخرة.

وهكذا كان أبو عبيد، فقد كان عقله الحصيف قد قرر تقديم الآخرة فصدر الأمر لنفسه بأن تَعِفَّ عن ذلك المال، وأن تقنع باليسيـر الذى فيه الكفاية وأن تُوَجِّه ذلك المبلغ لعمل الآخرة.

من أخبار الإمام محمد الذهلي رحمه الله:

ومن مواقف الورع المروي عن الإمام الحـافظ محمد بن يحـيى الذهلي ما ذكره الخطيب البغدادي من روايته عن أبي العباس الأزهري قال: سـمعت خادمة محمد ابن يحيى -وهو يغسَّل على السرير- تقـول: خدمت أبا عبدالله ثلاثين سنة وكنت أضع له الماء فما رأيت ساقه قط وأنا ملك له[٢].

(١) تاريخ بغداد ١٢/ ٤٠٦.

(٢) تاريخ بغداد ٣/ ٤١٩.

فهذا الخبـر يدل على ورع الإمام محمد بن يحيى الذهلي حـيث منع نفسه من أمر مبـاح له مبالغة في الستـر والحياء، والحياء الدينـي يدل على قوة الإيمان لقول رسول الله ﷺ «**والحياء شعبة من الإيمان**»[1].

من أخبار الربيع بن صبيح رحمه الله:

من هذه المواقف ما رُوي عن الربيع بن صبيح أنه كان بالأهواز ومعه صاحب له فتعرضَتْ لهما امرأة فبكى الشـيخ، قال له صاحبه ما يبكيك؟ قال: إنها لم تطمع في شيخين إلا وقد رأت شيوخًا قبلنا يتابعونها، فلذا أبكي[2].

فهذه غيـرة صادقة وإحساس قوي من ذلك الشيـخ الذي تذكَّر حال رؤيته ذلك المنظر البـشع أنه له سابقة مـن شيوخ ضـعفاء فـي إيمانهم غَرَّرُوا بمثل تلك الفـتاة فتجرأت بسبب ذلك على الرذيلة.

إن قراءة ما وراء الأحداث إلهام يلهمه الله تعالى السابقين إلى الخيرات الصادقين في إيمانهم وأعمالهم، ومن هذه القراءة وأمثالها تكون المواعظ والعبر.

من أخبار أبي علي ابن شاذان رحمه الله:

ومن المواقف المأثورة في الخشـية ما رُوي عن مـحمد بن يحيى الكرمـاني قال: كنت يومًا بحضرة أبي علي ابن شاذان فدخل شاب فسلم، ثم قال: أيكم أبو علي ابن شاذان؟ فـأشرنا إليه، فقـال: أيها الشيخ رأيتُ رسول الله ﷺ في المنام فـقال لي: سل عن أبي علي ابن شاذان، فإذا لقيته فأَقْرِهِ مني السلام، وانصرف الشاب، فبكى الشـيخ وقال: ما أعرف لي عـملا أستحق به هذا إلا أن يكون صـبري على قراءة الحـديث وتكرير الصلاة على النبي ﷺ كلَّمـا ذُكر، ثم قـال الكرماني: ولم يلبث أبو علي بعد ذلك إلا شهرين أو ثلاثة حتى مات[3].

وهكذا بكى الإمام أبو علي بن شاذان من خشية الله تعالى، وكان متواضعًا حينما قال هذا الكلام وإلا فإن سيرته تشهد بالجليل من الأعمال الصالحة رحمه الله تعالى.

---

(١) صحيح البخاري رقم ٩، صحيح مسلم رقم ٥٨.

(٢) سير أعلام النبلاء ٧/ ٢٨٩.

(٣) سير أعلام النبلاء ١٧/ ٤١٧ - ٤١٨.

موقف في القناعة والأمانة:

أخـرج القاضي مـحمـد بن أبي يعلى من خـبر القـاضي أبي بكر مـحمـد بن عبدالباقي بن محمد البزاز الأنصاري قال: كنت مجاورا بمكة -حرسها الله تعالى- فأصابنـي يومًا من الأيام جوعٌ شديد لم أجـد شيئًا أدفع به عني الجـوع، فوجدت كيسًـا من إبريسم مشدودًا بشـرَّابة من إبريسم أيضا، فأخذته وجـئت به إلى بيتي، فحللته فوجـدت فيه عقدا من لؤلؤ لم أر مثله، فخـرجت فإذا الشيخ ينادي عليه، ومعه خـرقة فيها خـمسمائة دينار وهو يقول: هذا لمن يردُّ عليـنا الكيس الذي فيه اللؤلؤ، فقلت: أنا محتاج وأنا جـائع. فآخذ هذا الذهب فأنتفع به، وأردُّ الكيس، فقلت له: تعال إليَّ، فأخذته وجئت به إلى بيـتي، فأعطاني علامة الكيس وعلامة الشرابة وعلامة اللؤلؤ وَعَدَده، والخيط الذي هو مَشدُود به، فأخرجته ودفعته إليه. فسلم إلي الخمـسمائة دينار، فما أخذتهـا، وقلت: يجب عليّ أن أعيده إليك ولا آخذ له جـزاء، فقال لي: لابد أن تأخـذ. وألح علي كثيـرًا، فلم أقبل ذلك منه، فتركني ومضى.

وأما ما كان مني: فإني خرجتُ من مكة وركبتُ البحر، فانكسر المركب وغرق الناس، وهلكَتْ أمـوالهم، وسلمتُ أنا على قطعـة من المركب، فبـقيت مُـدةً في البحـر لا أدري أين أذهب، فوصَلتُ إلى جـزيرة فيـها قـوم، فقعَـدتُ في بعض المساجد، فسمعوني أقرأ، فلم يبق في تلك الجزيرة أحد إلا جاء إليّ وقال: علمني القرآن. فحصل لي من أولئك القوم شيء كثير من المال.

قال: ثم إني رأيتُ في ذلك المسـجد أوراقًا من مـصحف، فأخـذتها أقرأ فيـها فقالوا لي: تحسن تكتب؟ فقلت: نعم، فقالوا: علمنا الخط، فجاءوا بأولادهم من الصبيان والشباب، فكنتُ أعلمهم، فحصل لي أيضًا من ذلك شيء كثير فقالوا لي بعد ذلك: عندنا صبيَّةٌ يتيمـة، ولها شيء من الدّنيا نريد أن تتزوج بها، فامتنعتُ، فقالوا: لابد، وألزموني، فأجبتهم إلى ذلك.

فلما زفوها إليَّ مـددتُ عيني أنظر إليها، فـوجدت ذلك العقد بعيـنه معلقًا في عنقها، فما كان لي حينئذ شغل إلا النظر إليه. فقالوا: يا شيخ، كسرتَ قلب هذه

اليتيـمة من نظرك إلى هذا العقـد، ولم تنظر إليها، فقـصصتُ عليهم قصـة العقد فصاحوا وصرخوا بالتهليل والتكبير، حتى بلغ إلى جميع أهل الجزيرة، فقلتُ: ما بكم؟ فقالوا: ذلك الشيخ الذي أخذ منك العقـد أبو هذه الصبية، وكان يقول: ما وجدتُ في الدنيـا مسلمًا إلا هذا الذي ردَّ علي هذا العـقد، وكان يدعـو ويقول: اللهم اجمع بيني وبينه حتى أزوجـه بابنتي، والآن قد حصلت، فبقيتُ مـعها مدة ورزقتُ منها بولدين.

ثم إنها مـاتت فورثت العـقد أنا وولداي، ثم مات الولدان فـحصل العـقد لي فبعته بمائة ألف ديـنار. وهذا المال الذي ترون معي من بقايا ذلك المال. هكذا ساق هذه الحكاية يوسف بن خليل الحافظ في معجمه.

وساقـها ابن النجـار في تاريخه، وقـال: هي حكاية عجـيبة، وأظـن القاضي حكاها من غيره[1].

فهذا الخبر العجيب فيه بيـان تخلق صاحبه بخُلق العفة والورع، فقد كان بأمس الحاجة إلى مبلغ من المال يشتـري به أشياءه الضرورية، ومع ذلك رفض ذلك المبلغ الكبير الذي دفعه إليه صاحب العقد مع إلحاح ذلك الرجل عليه.

وفي الخبر مـثل من رزق الله تعالى الذي يسوقه لأوليائـه الصالحين مكافأة لهم على ورعهم وعفتهم مع ما أعده لهم من نعيم أعظم بكثير في الآخرة.

من أخبار الوزير ابن هبيرة رحمه الله:

قال أبو حامد أحمد بن محمد بن عيسى الحنبلي: حدثني الوزير عون الدين[2] قال: كان بيني وبين بعض مـشايخ القري معاملة مـضيت من أجلها من الدُّور إلى قريته فلم أجده، فقعدت لانتـظارهم حتى هجم الليل، فصعدت إلى سطحه للنوم فسمعت قومًـا يسفَهون بالهُجر من الكلام، فسألت عنهم فـأُخبرت أنهم يعصرون بالنهار الخـمر ويسفـهون في الليل، فقـلت: والله لابتُّ بها فقـيل: ولم؟ فقلت: أخاف أن ينزل بهم عذاب وسخط فـأكون معهم، فإن لم يكن خسفا حقـيقيا كان

(١) طبقات الحنابلة ٣/ ١٩٨، وقوله «حكاها عن غيره» يعني ليس هو صاحب القصة وإنما حكاها عن غيره.
(٢) هو الوزير أبو المظفر يحيى بن محمد بن هبيرة الشيباني.

خسفا معنويا، مما يدخل على القلب من القساوة والفتور عن ذكر الله تعالى بسماع هذا الكلام، ومضيت ذلك الوقت إلى الدُّور[1].

فهذا مثال من خشية الله تعالى يقدمه الوزير عون الدين ابن هبيرة، ولا شك أن خشية الله جل وعلا دليل على تعظيمه وحضور القلب معه، وأن تذكُّر سخط الله تعالى وما ينزله من العذاب على عُصاته دليل على سعة علم العبد وكمال عقله حيث يأخذ حذره من سخط ربه جل وعلا ونقمته.

وليس من شأن المسلم أن يغتر بالسلامة وما يحصل من الله تعالى من إمهال المجرمين، بل المؤمن حَذِرٌ يقظ يخشى من نزول نقمة الله تعالى في أي وقت.

ولقد نبَّه ابن هبيرة إلى أن المؤمن ليس من شأنه أن يلاحظ نزول سخط الله تعالى فقط، بل عليه أن يلاحظ ما تحدثه مجاورة المجرمين من قساوة القلوب والاشتغال بهم عن ذكر الله تعالى وعبادته.

من أخبار أبي عبدالله السَّعدي الصالحي رحمه الله:

من ذلك ما ذُكِر عن المحدث القدوة شمس الدين أبي عبدالله محمد بن عبدالرحيم السعدي الصالحي، فقد حُكي عنه أنه كان يحضر مكانا في جبل الصالحية لبعض شأنه فوجد جرَّة مملوءة دنانير، وكانت زوجته معه تعينه على الحفر، فاسترجع وطمَّ المكان كما كان أولا، وقال لزوجته: هذه فتنة، ولعل لها مستحقِّين لانعرفهم، وعاهدها على أنها لا تُشعر بذلك أحدًا ولا تتعرض إليه، وكانت صالحة مثله، فتركا ذلك تورُّعًا مع فقرهما وحاجتهما.

قال اليونيني الذي روى هذه الحكاية: وهذا غاية الورع والزهد رحمهما الله تعالى[2].

وهكذا ترك هذا العالم الجليل وزوجته ذلك المال مع حاجتهما الشديدة إليه لتذكُّره احتمال أن يكون هناك مستحقون لذلك الكنز، وهذا دليل على اتصافهما بالزهد في الدنيا والتورع عن الشبهات، فما أعظم هذه النفوس التي ترتفع عن

(١) طبقات الحنابلة ٣/ ٢٦١.

(٢) طبقات الحنابلة ٤/ ٣٢١، توفي عام ٦٨٨ هـ.

شهـواتها مع شدة الحاجـة من أجل بلوغ الهدف الأعلى للمؤمن في هذه الحـياة، وهو أن يحصل على رضوان الله تعالى والنعيم المقيم في الآخرة!!

من مواقف الوزير نظام الملك رحمه الله[1]:

اشتهر هذا الوزير بالعدل والإحسان وإنشـاء المشاريع الخيرية والمدارس العلمية، وفي ذلك يقول المؤرخ أبو شامة:

وبلغ من الدنيا مبلغًا عظيمًـا لم ينله غيره. وكان عالمًا فقيهًا دينًا خـيِّرًا متواضعًا عـادلاً، يحبُّ أهلَ الدين ويكرمـهم ويجـزل صـلاتهم. وكـان أقـربَ الناس منه وأحبهم إليـه العلماء، وكان يناظرهم في المحافل، ويبـحث عن غوامض المسائل، لأنه اشتغل بالفقه في حال حداثته مُدَّة.

وأما صدقـاته ووقوفه فلا حدَّ لهـا، ومدارسه في العالم مشـهورة لم يخل بلد [من شيء] منهـا، حتى جـزيرة ابن عمـر -التي هي في زاوية من الأرض لا يؤبه لها- بنى فـيها مدرسة كـبيرة حسنة، وهي التي تعـرف الآن بمدرسة رضي الدين. وأعماله الحسنة وصنائعه الجميلة مذكورة في التواريخ، لم يسبقه من كان قبله، ولا أدركه من كان بعده.

وكان من جملـة عباداته أنه لم يُحدث إلا توضأ، ولا تـوضأ إلا صلَّى. وكان يقرأ القرآن حفظًا، ويحافظ على أوقات الصلوات محافظةً لا يتقدَّمُه فيها المتفرِّغون للعبادة، حـتى إنه كان إذا غَفَلَ المؤذن أمره بالأذان، وإذا سـمع الأذان أمسك عن كل ما هو فيه، واشتغل بإجابته ثم بالصلاة[2].

من مواقف السلطان نور الدين زنكي رحمه الله:

ذكر المؤرخ أبو شامة نقلا عن المؤرخ ابن الأثير أنه قال عن السلطان نور الدين: وحُكي لي أنه حُمل إليه من مصر عمامة من القصب الرفيع مذهبة، فلم يُحضرها

---

(١) هو نظام الملك أبو علي الحـسن بن علي الطوسي، كـان وزيرًا للسلطان ألب أرسلان السلجـوقي ولولده السلطان ملكشـاه لمدة أربع وثلاثين سنة وقد توفي مـقتـولا على يد أحد الباطـنية عام خـمسـة وثمانين وأربعمائة.

(٢) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين لأبي شامة ١/ ٩٨.

عنده، فوُصفت له فلم يلتفت إليها، وبينا هم معه في حديثها وإذا قد جاءه رجل صوفي فأمر له بها، فقيل له: إنها لا تصلح لهذا الرجل، ولو أعطي غيرها كان أنفع له، فقال: أعطوها له فإني أرجو أن أعوَّض عنها في الآخرة، فسُلّمتْ إليه، فسار بها إلى بغداد فباعها بستمائة دينار أو سبعمائة دينار[1].

فهذا مثال بليغ على زهد السلطان نور الدين محمود زنكي وبُعده عن المظاهر الدنيوية التي انخدع بها كثير من الولاة.

ومن أمثلة خشيته لله تعالى وتذكره للآخرة ما ذكره المؤرخ أبو شامة قال: وحكى لنا الأمير بهاء الدين علي بن السكري وكان خصيصا بخدمة نور الدين، قد صحبه من الصبا وأنس به وله معه انبساط، قال: كنت معه يوما في الميدان بالرها، والشمس في ظهورنا، فكلما سرنا تقدمَنا الظل، فلما عدنا صار الظل وراءنا، فأجرى فرسه وهو يلتفت وراءه وقال لي: أتدري لأي شيء أجري فرسي وألتفت ورائي؟ قلت: لا، قال: قد شبهت ما نحن فيه بالدنيا، تهرب ممن يطلبها وتطلب من يهرب منها.

قال أبو شامة: قلت: رضي الله عن ملك يفكر في مثل هذا، وقد أنشدت بيتين في هذا المعنى:

مَثَل الرزق الذي تطلبه ... مَثَل الظل الذي يمشي معك

أنت لا تدركه متَّبعا ... فإذا وليت عنه تبعك[2]

ففي هذا الخبر دليل على خشية نور الدين ويقظة تفكيره ورسوخ يقينه وحضور قلبه مع أحداث الآخرة، فحينما رأى ما يشبه ذلك من أحداث الدنيا تذكر بها أحداث الآخرة.

ومن مواقف السلطان نور الدين محمود في الورع ما ذكره المؤرخ ابن شامة نقلا عن المؤرخ ابن الأثير أنه قال: حكى لي من أثق به أنه دخل يومًا إلى خزانة المال فرأى فيها مالاً أنكره، فسأل عنه، فقيل: إن القاضي كمال الدين أرسله، وهو من جهة كذا، فقال: إن هذا المال ليس لنا، ولا لبيت المال في هذه الجهة شيء، وأمر

(١) كتاب الروضتين ١/ ٣٦.

(٢) كتاب الروضتين ١/ ٣٧.

برده وإعادته إلى كمال الدين ليرده على صاحبـه، فأرسله متولي الخزانة إلى كمال الدين، فرده إلـى الخزانة مرة أخـرى وقال: إذا سـأل الملك العادل عنه فـقولوا له عني: إنه له، فـدخل نور الدين إلى الخـزانة مرة أخـرى فرآه فـأنكر على النواب وقال: ألم أقل لكم: يعاد هـذا المال على أصحابه؟! فذكروا له قـول كمال الدين فرده إليـه وقال للرسـول: قل لكمال الدين أنت تـقدر على حمل هـذا، وأما أنا فرقـبتي دقـيقة لا أطيق حـمله والمخاصـمة عليـه بين يدي الله تعالى، يُعـادُ قولاً واحدا[1].

فهذا الخبر فيه مـثل مما كان يتصف به السلطان نور الدين من الورع وخشية الله تعالى والتحري في الأموال واتقاء الشبهات، فعلى الرغم من أن ذلك المال قد أتى من طريق القاضي كمال الدين الشهـرزوري -وهو المعروف بعلمه وتقواه- فإن نور الدين قد رفض قبوله، لأنه قـد دخل مجال الشبهات فـخاف من أن يحاسب عليه يوم القيامة.

***

(١) كتاب الروضتين١/ ٤٠-٤١.

توجيهات ومواقف
في
العمل الصالح

من مواقف عبد الله بن رواحة رضي الله عنه:

من الأعمال الصالحة المترتبة على قوة الإيمان والتي تدل على كمال الطاعة وقوة الاستسلام لله تعالى ولرسوله ﷺ ما ذكره الإمام الذهبي من خبر عبدالرحمن بن أبي ليلى أن عبد الله بن رواحة رضي الله عنه أتى النبي ﷺ وهو يخطب فسمعه وهو يقول: **اجلسوا**، فجلس مكانه خارج المسجد حتى فرغ من خطبته، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: **زادك الله حرصًا على طواعية الله ورسوله**[1].

إن هذا العمل الذي قام به عبد الله بن رواحة رضي الله عنه يُعدُّ مثلا من أمثلة الاستسلام لله تعالى ولرسوله ﷺ في أمور الدين حتى فيما لا تعلم حكمته، فقد نفذ ابن رواحة أمر النبي ﷺ وهو لا يدري لِمَ أُمر الناس بالجلوس، وإنما يكون ذلك من قوة الإيمان الذي يبرز في ذهن المؤمن فيحصر مشاعره في لزوم الطاعة والاستسلام، ولا يكون في ذهنه مجال للتفكير في ذلك الأمر، هل هو على ظاهره أم يراد به شيء آخر.

ومع أن النبي ﷺ كان قد وجه الأمر للواقفين في المسجد ليجلسوا، ولم يُرد من القادمين أن يجلسوا خارج المسجد فإنه دعا لعبد الله بن رواحة بأن يوفقه الله تعالى إلى زيادة الحرص على طاعة الله تعالى ورسوله ﷺ، مما يدل على أن هذا الأمر أهم من كونه وافق مراد النبي ﷺ من الأمر أو لم يوافقه، لأن قضية الطاعة قضية إيمانية، فهي أهم من الأمر نفسه الذي ترتب عليه هذا الموقف، ولذلك ترك النبي ﷺ تصحيح ذلك الأمر، واهتم بهذا الموقف الإيماني، فدعا لابن رواحة بمزيد من التوفيق في ذلك.

ويشبه هذا الموقف ما جرى من الصحابة الذين أخروا صلاة العصر حتى خرج وقتها لما أمرهم النبي ﷺ بالخروج إلى بني قريظة فقال: «**لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة**» فأدرك بعضهم العصر في الطريق، فقال بعضهم: لا نصلي حتى نأتيهم وقال بعضهم: بل نصلي، لم يرد منا ذلك، فذكر ذلك للنبي ﷺ فلم يعنف واحدا منهم» أخرجه الإمام البخاري[2].

(١) سير أعلام النبلاء ١/ ٢٣٢.

(٢) صحيح البخاري رقم ٤١١٩.

فهؤلاء الذين أخروا صلاة العصر حتى فات وقتها قد أخذوا الأمر على ظاهره، وكان دافعهم في ذلك الاستسلام والطاعة لأمر رسول الله ﷺ، ولذلك لم ينكر عليهم رسول الله ﷺ هذا التأخير، لنبل مقصدهم الذي دفع إليه قوة إيمانهم.

ألا ما أحوج الأمة الإسلامية إلى لزوم طاعة الله تعالى في جميع أوامر الدين سواء فهموا الحكمة منها أو جهلوها، وأن تكون الرغبة الشديدة في تنفيذ الأوامر الشرعية بارزة وسابقة محاولة فهم الحكمة من الأوامر، فإن تبينت الحكمة فذلك مما يزيد في اليقين والطمأنينة، لكن التنفيذ سابق على ذلك بدافع من الإيمان القوي الذي يسير بصاحبه نحو بلوغ الهدف الأعلى، وهو الوصول إلى رضوان الله تعالى واجتناب سخطه.

من مواقف سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه:

أخرج الإمام الطبراني من خبر عامر بن سعد قال: بينما سعد [يعني ابن أبى وقاص رضي الله عنه] يمشي إذ مرَّ برجل وهو يشتم عليّا وطلحة والزبير، فقال له سعد: إنك تشتم أقوامًا قد سبق لهم من الله ما سبق، والله لتكفَّنَّ عن شتمهم أو لأدعوَنَّ الله عز وجل عليك، قال: يخوفني كأنه نبي! فقال سعد: اللهم إن كان يشتم أقوامًا قد سبق لهم منك ما سبق فاجعله اليوم نكالا. فجاءته بُختيَّة[1] فأفرج الناس لها فتخبَّطته، فرأيت الناس يتبعون سعدا يقولون: استجاب الله لك يا أبا إسحاق.

ذكره الحافظ الهيثمي وقال: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح[2].

فهذا موقف محمود من سعد رضي الله عنه في الدفاع عن إخوانه الصحابة رضي الله عنهم، والدفاع عن الغائبين دليل على قوة الإيمان خصوصًا إذا كانوا قد غادروا هذه الحياة، لأن الذي يدافع عن إخوة له قد توفاهم الله عز وجل لا ينتظر منهم أن يقابلوه فيلوموه على التقصير في حقهم، ولا أن يشكروه على الدفاع عنهم، فالباعث على الدفاع عنهم -والحال هذه- هو الخوف من الله تعالى ورجاء ما عنده، وفي هذا تهوين من شأن الدنيا وتعظيم من شأن الآخرة، لأن كل عامل ينال جزاءه على نيته من إرادة الدنيا أو الآخرة.

(١) أي ناقة. (٢) مجمع الزوائد ٩/ ١٥٤.

من مواقف أُبيّ بن كعب رضي الله عنه:

ذكر الحافظ ابن الجوزي من خبر أبي العالية، عن أُبيّ بن كعب قال: عليكم بالسبيل والسنّة فإنه ليس من عبدٍ على سبيل وسنّة ذكر الرحمن ففاضت عيناه من خشية الله فتمسَّه النار، وليس من عبد على سبيل وسنة ذكر الرحمن فاقشعرّ جلده من خشية الله إلا كان مثله كمثل شجرة يبس ورقُها فبينما هي كذلك إذ أصابتها الريح فتحاتَّ عنها ورقها، إلا تحاتت عنه ذنوبه كما تحاتَّ عن هذه الشجرة ورقُها، وإن اقتصادًا في سبيل وسنَّة خيرٌ من اجتهاد في خلافٍ من سبيل وسنة[1].

فهذا تنبيه مهم من عالم كبير وصفه أمير المؤمنين عمر بأنه سيد المسلمين، يعني في العلم رضي الله عنهما، فقد أوصى أبي بن كعب بتحقيق الركن الثاني من أركان العمل الصالح، وهو اتباع منهج رسول الله ﷺ وسنته، فإذا اجتمع مع ذلك الركن الأول وهو الإخلاص لله تعالى كان العمل صالحا.

ولعل أبي بن كعب لاحظ في بعض التابعين ميلا إلى التعبد على غير سنة رسول الله ﷺ فبين لهم أنه وإن ظهرت عليهم علامات الإخلاص من البكاء والقشعريرة من خشية الله تعالى فإن أثر ذلك في محو الذنوب والوقاية من النار مترتب على لزوم السنة.

ثم يبين أن العمل القليل مع لزوم السنة خير من العمل الكثير مع مخالفتها، لأن ذلك العمل القليل قد توافرت فيه عناصر القبول، بينما تخلف من ذلك العمل الكثير عنصر مهم وهو اتباع السنة النبوية.

من مواقف أبي أمامة رضي الله عنه:

من ذلك ما ذكر ابن الجوزي من خبر رجاء بن حيوة عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: أنشأ رسول الله ﷺ غزوا فأتيته فقلت: يا رسول الله ادع الله لي بالشهادة، فقال: اللهم سلِّمهم وغنمهم، قال: فغزونا وسلمنا وغنمنا.

ثم أتيته بعد ذلك فقلت: يا رسول الله مرني بعمل آخذه عنك ينفعني الله عز وجل به. قال: عليك بالصوم فإنه لا مثل له.

(١) صفة الصفوة ١/ ٤٧٦.

قال: فكان أبو أمامة وامرأته وخادمه لا يُـلقون إلا صياما فإذا رأوا نارًا أو دخانًا بالنهار في منزلهم عرفوا أنه قد اعتراهم ضيف.

قال: ثم أتيته بعد ذلك فقلت: يـا رسول إنك قد أمرتني بأمرٍ وأرجو أن يكون الله عز وجل قد نفـعني به، فمُرني بأمر آخر ينفـعني الله عز وجل به. قال: **اعلم أنك لا تسجـد لله عز وجل سـجدةً إلا رفع الله عـز وجل لك بها درجةً أو حط بـها عنك خطيئة**[1].

فهـذه سلسلة من الأعمـال الصالحة يقـوم بها هذا الصـحابي الجليل أبو أمـامة صُـدَيّ بن عجـلان البـاهلي رضي الله عنه ابتـغاء رضـوان الله تعـالى والسعـادة الأخروية، فهـو حينما أدرك أن أقرب طريق للوصول إلى هذا الهـدف هو الشهادة طلب من النبي ﷺ أن يدعو له بهـا، لكنه دعا له ولرفقتـه بالسلامة، فلمـا فاتته الشهادة طلب من النبي ﷺ أن يدله على عمل يحـقق له ذلك الهدف فأرشده إلى الصوم، ثم طلب منه مرة أخرى فأرشـده إلى الصلاة، ولقد حقق ذلك كله رضي الله عنه.

من مواقف ربيعة بن كعب رضي الله عنه:

أخرج الإمام أحمد من حديث ربيعة بن كعب الأسلمي قال: كنت أخدم رسول الله ﷺ وأقوم له في حـوائجه نهـاري أجمع حـتى يصلى رسول الله ﷺ العـشاء الآخرة، فأجلس ببابه إذا دخل بيته أقول: لعلها أن تحدث لرسول الله ﷺ حاجة، فما أزال أسمعه يقول رسول الله ﷺ: **سبحان الله، سبحان الله، سبحان الله وبحمده،** حتى أمَلَّ فأرجع، أو تغلبني عيني فأرقد، قال: فقال لي يوما -لِمَا يرى من خفتي له وخدمتي إياه-: **سلني يا ربيعة أُعطك،** قال فقلت: أنظرُ في أمري يا رسول الله ثم أُعلمُك ذلك، قال: ففكرت في نفسي فعرفت أن الدنيا منقطعة زائلة، وأن لي فيها رزقًـا سيكفيني ويأتيني، قال فقلت: أسـأل رسول الله ﷺ لآخرتي فإنه من الله عز وجل بالمنزل الـذي هو به، قال: فجـئته فـقال: **ما فـعلت يا ربيـعة،** قال فقلت: نعم يا رسـول الله أسألك أن تشفع لي إلى ربك فـيعتـقني من النار، قال فقال: **من أمرك بهذا يـا ربيعة؟** قال فقلت: لا والله الذي بعـثك بالحق ما أمرني به

(١) صفة الصفوة ١/ ٧٣٣-٧٣٤.

أحـد، ولكنك لما قلت: سلني أعطك وكـنت من الله تعالـى بالمنزل الذي أنت به نظرت في أمري وعـرفت أن الدنيا منقطعـة وزائلة، وأن لي فيـها رزقا سـيأتيني، فقلت: أسأل رسول الله ﷺ لآخرتي، قال: فصمَتَ رسول الله ﷺ طويلا ثم قال لي: **إني فاعل فأعني على نفسك بكثرة السجود**[1].

وقبل أن أذكر موقف ربيعة فإنه لابد من الإشارة إلى ما ذكره من استغراق النبي ﷺ بذكر الله تعالى حيث يردد التسبيح كثيرا ولا يمل من ذلك، وهذا يعني حضور القلب مع الله تعالى حضورًا كاملا.

إن الذى يكون حاضـر القلب مع الله جل وعلا يعيش في جو روحـانى رفيع، وينسى الدنيا وما فيها من خير أو شر، فلذلك لا يسأم من تكرار صيغة واحدة من الدعاء مـائة مرة أو أكثـر، لأن انشغال قلبـه بتصور عظمـة من يناجي جل جلاله يجعله يستمر في الذكر، بدون انقطاع، وهو يشعر بمتعة روحية عالية، يعجز البيان عن تصويرها، ومن ذلك جـاء توجيه النبي ﷺ بتكـرار الذكر كالأذكار المشـروعة عقب الصلـوات المفروضة وكـقول لا إله إلا الله وحده لا شـريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير مائة مرة.

أما موقف ربيـعة بن كعب الأسلمى رضي الله عنه فإنه مـثل من اليقين والوعي الديني، حيث عـرف حقيقـة الدنيا في ضآلتـها وانقطاعهـا، فقدَّرها بما يناسبـها، وعـرف قدر الآخـرة العظيم فادَّخـر لهـا هذه المسألة العـظيمـة، ولو سأل الدنيـا لأعطيها، ثم زالت وزال.

وهكذا رأينا هذا الشـاب لم يفكر بمستـقبله الدنيـوي، مع أنه بحاجـة إلى بناء البيت والزواج وتكوين الأسرة ونحـو ذلك من مطالب الدنيا ولكنه -وهو في سنٍّ مبكرة- فكر بمستقبله الأخروي، وهذا من توفـيق الله إياه، كما أنه يُعدُّ مثالا على أن الذي يهيمن على تفكير أبناء ذلك المجتـمع الصالح هو التخطيط لما بعد الموت، فإن ما قدره الله تعـالى من الرزق كائن لا محالة، والسعيـد هو الذي يتخفف من أعباء الدنيا ليتفرغ كثيرًا لعمل الآخرة.

(١) مسند أحمد ٤/ ٥٩، وأخرجه الإمام مسلم مختصرًا، رقم ٤٨٩، الصلاة (ص ٣٥٣).

من مواقف عبدالله بن عمر رضي الله عنهما:

من ذلك ما أخرجه المؤرخ أبو زيد عمر بن شبَّة النميري من خبر مجاهد بن جبر قال: مرَّت بابن عمر رضي الله عنهما رفقة فقال: مَن القوم؟ فقال حادي ابن عمر: قريش، فقال ابن عمر: قريش قريش!! نحن المهاجرون[1].

فهذه ملاحظة جليلة من عبدالله بن عمر رضي الله عنهما، أراد أن يلفت النظر فيها إلى أن مِنْ واجب المسلم أن يعتزَّ بإسلامه، فينتمي إلى الاسم المنبثق من الإسلام، فالمسلمون من قريش الذين هاجروا إلى المدينة أصبح اسمهم الإسلامى المهاجرين، فهم لهذا يعتزون بأنهم مهاجرون ولا يُلقون بالاً لكونهم من قريش مع أن قريشًا أعلى قبائل العرب نسبًا.

وبهذه النظرة الإسلامية التي ضخمت من شأن الانتماء الإسلامي، وأضعفت من شأن الانتماء القبلى كان اتحاد قلوب الصحابة رضي الله عنهم وقوتهم على أعدائهم، ومن يوم أن وُجد الانتماء القبلي والوطني بعد ذلك ضعف المسلمون وتمكن منهم أعداؤهم، لأن ذلك الانتماء كان له أثر في تفريق المسلمين.

من مواقف القاسم بن محمد رحمه الله:

من الأمثلة الجيدة على خُلُق السماحة ما روي عن الإمام القاسم بن محمد أحد فقهاء المدينة في عهد التابعين، يقول الإمام مالك بن أنس: وكان يكون بينه وبين الرجل المداراة في الشيء فيقول له القاسم: هذا الذي تريد أن تخاصمني فيه هو لك، فإن كان حقًا فهو لك فخذه ولا تحمدني عليه، وإن كان لي فأنت منه في حل وهو لك[2].

وبهذا يضرب هذا العالم الرباني مثلاً عاليا في السماحة والبعد عن الخلاف والمراء، وهذا الخلق الكريم ينطبق عليه الثواب الجزيل الذي ذكره رسول الله ﷺ بقوله «**أنا زعيم ببيت في رَبَض الجنة[3] لمن ترك المراء وإن كان محقا**» أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجة[4].

---

(١) تاريخ المدينة المنورة / ٤٨٨.

(٢) سير أعلام النبلاء ٥/ ٥٧.

(٣) أى في أدناها.

(٤) سنن أبي داود، رقم ٤٨٠٠، الأدب (٥/ ١٥٠)، سنن الترمذي، رقم ١٩٩٣، البر (٤/ ٣٥٨) وقال: هذا حديث حسن، سنن ابن ماجة رقم ٥١ (١/ ١٨) وربض الجنة أدناها.

وهذا الخلق الكريم مبـني على الزهد في الدنيا والتجـرد من حظ النفس، ومن نتائجه الطيبة قطع أسباب النزاع والشقاق، وتقوية المودة والأخوة بين المؤمنين.

من مواقف عبدالله بن عون رحمه الله:

من المواقف العاليـة في العمل الصـالح وتطبيق العلم الديني مـا ذكره بكَّار بن محمد السِّيريني عن الإمام الرباني عبدالله بن عون قال: وكان إذا جاءه إخوانه كأنما على رؤوسهم الطيـر، لهم خشـوع وخضوع، ومـا رأيته مازح أحـدًا، ولا ينشد شعرا، كان مشـغولا بنفسه، وما سمعـته ذاكرًا بلال بن أبي بردة بشيء قط، ولقد بلغني أن قومًا قالوا له: يا أبا عون بلال فعل كذا، فقال: إن الرجل يكون مظلومًا فلا يزال يقول حتى يكون ظالما، ما أظن أحدا منكم أشد على بلال مني.

قال: وكان بلال ضربه بالسياط لكونه تزوج امرأة عربية[1].

فهذا مثل على عفة اللسان والتـورع عن قيل وقال، فقد نهى هذا الإمام الجليل عبـدالله بن عون أصحابـه عن الكلام في الأمير بلال بن أبي بردة مع أنه كـان قد أساء إليه وضربه بالسياط.

وهذا نموذج من العمل الصالح الذي كان ثـمرة العلم النافع، ومن أبرز ما أفاده ابن عون أن المظلـوم إذا تكلم في عرض ظالمه فـإنه يشاركه في الظلـم ما لم يكن ذلك على سبيـل التبليغ عن منكر لمن يستطيع إنكاره، إضافـة إلى أن المظلوم يُهدِرُ ثوابه بالتظلم وعدم الصبر على الأذى ويكتسب إثمًا باغتياب ظالمه.

هذا وإن ما قام به الأمـير ابن أبي بردة من عقوبة الإمـام ابن عون على زواجه بامرأة عـربية يُعدُّ من الـتعصب الممـقوت المبني على الجهل بـأحكام الدين، وكان الواجب عليه أن يتـأدب مع العلماء وأن يأخذ الفتوى فـي هذا الأمر من ابن عون وأمثاله.

ولقد كـان هذا العالم الرباني قـد جمع بين أنواع من العمل الـصالح تدل على شمـول فهمـه للإسلام، فلقد كـان من أبرز المجاهدين في سبـيل الله تعالى، إلى جانب بروزه في علوم الدين وتفوقه في العبادات الخاصة كما تقدم.

(١) سير أعلام النبلاء ٦/ ٣٧٠.

من مواقف سفيان الثوري رحمه الله:

هذا وإن أخبار الإحسان والرحمة لم تقتصر على الإنسان وإنما شملت حتى الحيوان، ومن الأخبار الجيدة التي جاءت في ذلك ما روي عن الإمام الرباني سفيان الثوري ورحمته بالطائر، فقد أخرج أبو نعيم من حديث عارم قال: أتيت أبا منصور أعوده فقال لي: بات سفيان في هذا البيت، وكان هنا بلبل لابني، فقال: ما بال هذا محبوسا؟ لو خُلِّي عنه، قلت: هُوَ لابني وهو يهبه لك، قال: لا ولكن أعطيه دينارًا، فأخذه فخلَّى عنه، فكان يذهب ويرعى فيجيء بالعَشِيّ فيكون في ناحية البيت، فلما مات سفيان تبع جنازته فكان يضطرب على قبره، ثم اختلف بعد ذلك ليالي إلى قبره فكان ربما بات عليه، وربما رجع إلى البيت، ثم وجدوه ميتا عند قبره، فدفن عنده.

قال الذهبي: أبو منصور هو بسر بن منصور السَّليمي كان سفيان مختفيًا عنده بالبصرة بعد أن خرج من دار عبدالرحمن بن مهدي، قاله الطبراني[1].

وهكذا أدركت رحمة هذا العالم الرباني ذلك الطير المحبوس، وساءه تقييد حريته، وهذا ثمرة من ثمرات العلم النافع، وهذا يعني أن شعوره بمشاعر إخوانه المسلمين أعظم من ذلك بكثير.

ولقد كان هذا الإمام مُربِّيا ناجحا، خبيرًا بأحاسيس النفوس وآلامها وآمالها، فحينما عرض عليه والد الطفل ذلك الطير هدية ليطلقه أَبى أن يقبل ذلك، فهو ليس ممن تدركه الرحمة بالحيوان وينسى أحاسيس الإنسان، فالطفل متعلق بطيره، ولو ذهب منه بدون مقابل لأصابه الحزن ولتأثرت نفسه بذلك، ولكن حينما تتم مواساته ويعوض عنه بما يحب فإنه لن يحصل له شيء من التأثر، وسيظل محبا لذلك الشيخ الذي جبر قلبه وقدَّر مشاعره.

وإن ما جرى من ذلك الطائر من تعلقه بالشيخ حال حياته وبعد وفاته حدث عجيب، وإنه يعطى مثلا حيا على مدى الألفة والانجذاب بين الإنسان والحيوان.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٧/ ٢٦٦.

من مواقف بعض المجاهدين رحمهم الله:

أخـرج أبو نعيم بإسناده عن حـاتم الأصم قال: كـنا مع شقـيق البلخي ونحن مصافُّو الترك في يوم لا أرى فيه إلا رؤوسا تندر، وسيوفا تقطع، ورماحا تقصف، فقال لي شـقيق ونحن بين الصفين: كيف ترى نفـسك يا حاتم في هذا اليوم؟ تراه مـثله في الليلة التى زُفَّتْ إليك امـرأتك؟ قلت: لا والله، قـال: ولكني والله أرى نفسي في هذا اليوم مثله في الليلة التي زفت فيها امرأتي، قال: ثم نام بين الصفين ودَرَقته تحت رأسه حتى سمعت غطيطه.

قال حـاتم: ورأيت رجلا من أصحـابنا في ذلك اليوم يبكي، فـقلت: مالك؟ قال: قُتل أخي، قـلت: حظ أخيك صار إلى الله وإلى رضوانه، قـال: فقال لي: اسكت، ما أبكي أسفًا عليه ولا على قتله، ولكني أبكي أسفًا أن أكون دريت كيف كان صبره لله عند وقوع السيف به.

قال حـاتم: فأخذني في ذلك اليـوم تركي فأضجـعني للذبح فلم يكن قلبي به مشـغولا، كـان قلبي بالله مشـغولا، أنظر مـاذا يأذن الله له فيّ، فبـينا هو يطلب السكين من خفِّه إذ جاء سهم عائرٍ فذبحه فألقاه عني[1].

ففي هذا الخبر يصـور شقيق رحمه الله شعوره نحو الجهـاد في سبيل الله تعالى وقد التقى الصفَّان، وبرزت الأهوال، فـيصف هول ذلك اليوم بأنه يشبه في جلب السعادة للنفس ونشوة الفرح دخوله على زوجته ليلة عرسه.

إن هذه الصـورة المشرقـة من المشاعـر قد لا يتـصورها بعض النـاس، وقد لا يصدقونهـا عند سماعها لِبُعْـدِ ما بين الصورتين: صورة الظفر بسـبب مشروع من أسباب الوصـول إلى قمة اللذة الجسمـانية، وصورة التوغل في سـبب من أسباب الهلاك وانقطاع كل اللذات الجسـمانية، ولكن هذه الصورة وإن كان فيـها التعرض للأذى الجسمانـي وقطع كل اللذات الجسمانية فإن تلك اللحظات التـي يمارس فيها المجاهد الإثخـان في العدو والتـعرض لأنواع الأذى والهـلاك تُعدُّ قمـة في متـعة الروح، فالوصـول إلى كسر شـوكة الأعداء والنكاية فـيهم متعـة روحية عـالية لا يماثلها إلا لذة مناجاة الله تعالى، وخاصة في جوف الليل.

(١) حلية الأولياء ٨/ ٦٤، سير أعلام النبلاء ٩/ ٣١٤. وسهم عائرٍ أي لا يعرف راميه.

والشوق إلى الشهادة في سبيل الله تعالى متعة عالية تجعل الروح تحلِّق بأحلامها بين جنبات الجنة وفي أحضان حورها العين.

فلا غرابة إذًا أن يتصور هذا العالم الرباني المجاهد التماثل بين قمة الوصول إلى لذة الجسد وقمة الوصول إلى متعة الروح.

إن هذا التصوير المقارن مجردُ تمثيل للتقـريب بين صورة مُحَسَّة معروفة لدى كل الناس وصورة متـخيلة في الذهن لدى الكثيرين، ومُـحَسَّة معـروفة لدى القلائل، وإلا فإن بُعْـدَ ما بين الصورتين كبـير، لأن متـعة الروح لا يماثلها شيء من متـعة الجسم.

ولقد صور خالد بن الوليد رضي الله عنه هذا المعنى بتعبير أبلغ حيث يقول: ما من ليلة يُهدى إلي فيها عروس أنا لها مـحب أحب إلي من ليلة شديدة البرد كثيرة الجليد وأنا في سرية أصبِّحُ فيها العدو[1].

وفي المقطع الثـاني من الخبر نجـد حاتما الأصم يصف حـال رجل يبكي لأنه لا يدري كيف كان صبر أخيه عند وقوع السيف به، فهو لا يبكي أسفًا على فقد أخيه ولكن يبكي إشفاقًا منه على أخيه أن لا يكون قد حاز درجة عالية من الصبر ساعة مواجهته سلاح العدو، وهذا مثل رفـيع من صدق التصور وعلو الهمة حيث يكون الفكر منحصرا في كيفية بلوغ رضوان الله تعالي والدرجات العُلَى في الجنة.

وفي المقطع الثالث من الخـبر يصور حاتم الأصم شـعوره حال مواجهـته الذبح على يد ذلك الرجل فقد كـان قلبه حاضرا مع الله تعالى، حيث كـان فكره مترددًا بين أن يكتب الله تعـالى له الشهـادة أو يُمدَّه بنصـر من عنده فينقـذه من بين يدي ذلك العدو، وقـد أنقذه الله جل وعلا بذلك السـهم الذي لا يدري من أين أتَى، وإن ارتباط الفكر في تلك الساعة بالله تعالى دليل على قوة الإيمان وعمق اليقين.

من مواقف أبي عبد الرحمن عبدان الأزدي رحمه الله:

رُوي عن الإمام الحـافظ أبي عبـد الرحمن عبـد الله بن عثـمان الأزدي بالولاء المروزي المعروف بـ«عـبدان» أنه قال في بذل المعـروف والإحسان: ما سـألني أحد

(١) سير أعلام النبلاء ١/ ٣٧٥.

حاجة إلا قمت له بنفسي، فإن تم وإلا قمت له بمالي، فإن تم وإلا استعنت بالإخوان فإن تم وإلا استعنت بالسلطان[1].

فلقد عبر عبدان بهذا القول عن وجوه الإحسان الممكنة، فالإحسان يكون ببذل النفس ويكون ببذل المال، وقد ينشط بعض الناس للإحسان ببذل النفس ولا ينشط لبذل المال، وقد يكون الأمر بضد ذلك فينشط لبذل المال ولا ينشط لبذل النفس.

والإحسان يكون بعد ذلك بالاستعانة بالإخوان، ثم يكون بعد ذلك بالاستعانة بالسلطان.

وقد يقف بعض الناس عند الإحسان ببذل المعروف بالنفس والمال، ثم يرى أنه قد أعذر وفعل ما يُطلب منه، لكن الذين يملكون أنفسًا وثابة نحو المعالي لا يقفون عند هذا الحد، فإذا عجزوا عن فعل المعروف بأنفسهم وأموالهم استعانوا على ذلك بإخوانهم، ولا يرون في ذلك غضاضة، لأن الهدف الذي يكون ماثلا أمام أعينهم هو النجاح في القضية التي دخلوا فيها، وليس مجرد الحصول على العذر والرضى ممن تصدوا لحل قضيته، وذلك من منطلق أن المعروف عمل صالح، وإذا كان لا يتم إلا بالاستعانة بالإخوان فليسهموا في ذلك.

وقد تُقضى الحاجة بذلك، ولكنها قد يَتعسر قضاؤها إلا عن طريق السلطان، وهنا يأتي بذل الجاه عند السلطان لقضاء حاجة المحتاجين، وهو باب من أبواب العمل الصالح يلج فيه من يُقدِّرون هذا العمل كما كان يصنع الإمام عبدان رحمه الله تعالى.

وكما كان هذا الإمام مشهورًا ببذل جاهه فقد كان مشهورًا ببذل ماله كما قال أحمد بن عبدة الآملي: تصدق عبدان في حياته بألف ألف درهم[2].

من مواقف أبي جعفر المنصور رحمه الله:

من ذلك ما أخرجه الإمام محمد بن جرير الطبري من خبر أحمد بن خالد الفقيمي، أن عدة من بني هاشم حدثوه: أن المنصور كان شُغلُه في صدر نهاره بالأمر والنهي في الولايات والعزل وشحن الثغور والأطراف وأمن السبل، والنظر في الخراج والنفقات ومصلحة معاش الرعية، لطرح عالتهم والتلطف لسكونهم

(١) سير أعلام النبلاء ١٠/ ٢٧٠.
(٢) سير أعلام النبلاء ١٠/ ٢٧١

وهدوئهم، فإذا صلى العصر جلس لأهل بيته إلا من أحب أن يسامره، فإذا صلى العشاء الآخرة نظر فيما ورد عليه من كتب الثغور والأطراف والآفاق وشاور سُمَّاره من ذلك فيما أَرَبَ، فإذا مضى ثلث الليل قام إلى فراشه وانصرف سُمَّاره، فإذا مضى الثلث الثاني قام من فراشه فأسبغ وضوءه، وصفَّ في محرابه حتى طلع الفجر، ثم يخرج فيصلي بالناس، ثم يدخل فيجلس في إيوانه[1].

فهذا مثل من البراعة في تنظيم الوقت، والمقدرة الفائقة على القيام بمجموعة من الأعمال الجليلة في يوم واحد، فمع أن أمير المؤمنين أبا جعفر المنصور يحكم دولة تمتد من حدود الصين شرقًا إلى المحيط الأطلسي غربًا فإنه قد وجد وقتًا لعبادة الله تعالى بقيام الليل، حيث خصص ثلث الليل الأخير للصلاة، ومن المعلوم أن مقدرته العالية على القيام بمسؤولية أعظم دولة في العالم وتغلُّبه على جميع المناوئين له كان من أثر صلاته بالليل، حيث إن الصلاة تزوِّد المسلم بطاقة عالية في العمل ومقدرة كبيرة على التحمل والصبر وتحدي المشكلات والخروج من المآزق، وإننا لنفهم هذا من قول الله تعالى لنبيه ﷺ ﴿**يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً (٢) نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً (٤) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً**﴾ [المزمل: ١ - ٥]، فبعد أن أمره الله جل وعلا بصلاة الليل أخبره بعِظَم المسؤولية التي بعثه تعالى بها ليكون له من مناجاته لله تعالى وتصور عظمته زاد قوي يجابه به المخالفين ويصبر على أذاهم.

من مواقف أبي عثمان الحيري رحمه الله:

قال الحافظ ابن كثير في ترجمة أبي عثمان سعيد بن إسماعيل الحيري من خبر عبد الكريم بن هوازن سمعت أبا عثمان يقول: منذ أربعين سنة ما أقامني الله تعالى في حالة فكرهتها ولا نقلني إلى غيرها فسخطتها[2].

فهذا تعبير بليغ عن الرضى بقضاء الله تعالى وقدره، وهذا مقام عالٍ في التوحيد لا يبلغه إلا أقوياء الإيمان، والذي يعين على بلوغ هذا المقام التجرد من حظ النفس والتسليم الكامل لله تعالى.

---

(١) تاريخ الطبري ٨/ ٧٠، وانظر البداية والنهاية ١٠/ ١٢٨.

(٢) البداية والنهاية ١١/ ١٢٢.

والرضى بقضاء الله جل وعلا منزلة أعلى من منزلة الصبر، وقد جاء في كتاب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنهما: أما بعد فإن الخير كله في الرضى، فإن استطعت أن ترضى وإلا فاصبر[1].

وقال الإمام ابن القيم في حقيقة الرضى: وليس من شرط الرضى أن لا يحسَّ بالألم والمَكاره، بل أنْ لا يعترض على الحكم ولا يتسخطه، ولهذا أشكل على بعض الناس الرضى بالمكروه وطعنوا فيه، وقالوا: هذا ممتنع على الطبيعة وإنما هو الصبر، وإلا فكيف يجتمع الرضى والكراهة وهما ضدان؟

قال: والصواب أنه لا تناقض بينهما، وأن وجود التألم وكراهة النفس له لا ينافي الرِّضى، كرِضَى المريض بشرب الدواء الكريه، ورضى الصائم في اليوم الشديد الحر بما يناله من ألم الجوع والظمإ، ورضى المجاهد بما يحصل له في سبيل الله تعالى من ألم الجراح وغيرها[2].

قال الحافظ ابن كثير: وكان أبو عثمان [يعني الحيري] يُنشد:

أسأتُ ولم أحسن وجئتك هاربًا وأين لعبد عن مواليه مهرب

يؤمِّل غفرانًا فإن خاب ظنه فما أحدٌ منه على الأرض أخيب[3]

وهذا مثل من الأدب الإسلامي، حيث سخر هذا العالم موهبته الشعرية في التعبير عن اعترافه بالتقصير ولجوئه إلى الله جل وعلا وطلب المغفرة منه، ويشبِّه نفسه في فراره إلى الله تعالى بالعبيد المملوكين في الدنيا الذين لا يستطيعون الفرار من مواليهم، وإن كان المشبه به لا يُعدُّ شيئًا في مقارنته بالمشبه لأن الخالق جل وعلا لا يقارن بالمخلوق، ولكنه أراد أن يقول: إذا كان العبد لا يستطيع الفرار من مواليه فمن باب أولى أني لا أستطيع الفرار من ربي إلا إليه جل وعلا.

قال الحافظ ابن كثير: وروى الخطيب أنه [يعني أبا عثمان الحيري] سئل: أي أعمالك أرجى عندك؟ قال: إني لما ترعرعت وأنا بالرَّيّ - وكانوا يريدونني على التزويج فأمتنع - فجاءتني امرأة فقالت: يا أبا عثمان قد أحببتك حبًا أذهب نومي

(١) مدارج السالكين ٢/ ١٧٧.
(٢) مدارج السالكين ٢/ ١٧٥.
(٣) البداية والنهاية ١١/ ١٢٢.

وقراري، وأنا أسألك بمقلب القلوب وأتوسل به إليك إلا تزوجتني، فقلت: ألك والد؟ فقالت: نعم، فأحضرتْه فاستدعى الشهود فتزوجتها، فلما خلوت بها إذا هي عوراء عرجاء شوهاء مشوهة الخلق، فقلت: اللهم لك الحمد على ما قدرته لي، وكان أهل بيتي يلومونني على تزويجي بها، فكنت أزيدها برّا وإكرامًا، وربما احتبستني عندها ومنعتني من الحضور إلى بعض المجالس، وكأني كنت في بعض أوقاتي على الجمر وأنا لا أبدي لها من ذلك شيئًا، فمكثت كذلك خمس عشرة سنة، فما شيء أرجى عندي من حفظي عليها ما كان في قلبها من جهتي[1].

فهذا مثل جليل في الصبر على المكروه والرضى بقضاء الله وقدره جل وعلا، وفي صبره هذا تقدير عظيم للعمل الصالح والثواب الأخروي.

إن الذي يتحمل المشقة في سبيل إسعاد الآخرين قد بلغ مستوًى عاليًا في مكارم الأخلاق، حيث اتصف بخلق الإيثار الذي هو من صفات الكمال.

وإن في هذا الخبر موعظةً للذين يرون من زوجاتهم ما يكرهون، فإنهم يثابون على الصبر على ذلك ماداموا قد رضوا عن زوجاتهم من ناحية الاستقامة على أمور الدين.

وإنهم بذلك يطبقون ما جاء في توجيه النبي ﷺ حيث يقول: «**لاَ يَفْرَكْ(٢) مؤمن مؤمنة، إن كره منها خلقًا رضي منها آخر**» رواه الإمام مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه[3].

من مواقف هُدْبَة بن خالد رحمه الله:

من ذلك ما ذكره الحافظ ابن كثير من خبر المحدِّث هُدْبَة بن خالد القيسي مع أمير المؤمنين المأمون، قال: وحضر عند المأمون هدبة بن خالد ليتغدى عنده، فلما رُفعت المائدة جعل هدبة يلتقط ما تناثر منها من اللباب وغيره، فقال له المأمون: أما شبعت يا شيخ؟ فقال: بلى، حدثني حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس أن

(١) البداية والنهاية ١١/ ١٢٢ - ١٢٣.
(٢) أي لا يبغض.
(٣) صحيح مسلم، رقم ١٤٦٩، كتاب الرضاع (ص ١٠٩١).

رسول الله ﷺ قال: «**من أكل ما تحت مائدتـه أمِنَ من الفقر**»، قال: فأمر له المأمون بألف دينار[1].

فهـذا مثل من شكر النعمـة والوعي الجيد للعلم والتـطبيق الدقيق للسنة يقـدمه العالم المحدث هدبة بن خالد القيسي، وقد حاز بذلك إعجاب أمير المؤمنين المأمون بعدما أنكر عليه ذلك العمل.

وهكذا ينبغي للعالم أن يكون واعـيًا بعلمه، مستحضـرًا له عند المناسبات، وأن يطبقه عمليًا ليكون قدوة لغيره.

من مواقف أمير المؤمنين المعتضد بالله رحمه الله:

قال الحـافظ ابن كثيـر في ترجمة أمـير المؤمنين المعـتضد بالله أحـمد بن الموفق العباسي: وذكر الوزير عبيد الله بن سليمان بن وهب قال: كنت يومًا عند المعتضد وخادمٌ واقف على رأسه يذبُّ عنه بمذبَّة[2] في يديه، إذ حركها فجاءت في قلنسوة الخليفة فسقطت عن رأسـه، فأعظمتُ أنا ذلك جدًا وخفت من هول ما وقع، ولم يكتـرث الخليفة لـذلك، بل أخذ قلنسـوته فوضـعها علـى رأسه، ثم قال لـبعض الخدم: مُـرْ هذا البائس ليـذهب لراحتـه فإنه قد نعس، وزيدوا فـي عِدَّة من يذبُّ بالنوبة، قال الوزير: فأخذنا في الثناء على الخليـفة والشكر له على حِلمه، فقال: إن هذا البائس لم يتعـمد ما وقع منه وإنما نعس، وليس العتـاب والمعاتبة إلا على المتعمد، لا على المخطئ والساهي[3].

فهـذا مثل من أخلاق أمـير المؤمنين المعتـضد بالله العـالية، حيث كـان يتصف بالحلم والسماحة مع ما كان يتـصف به من الشجاعة والحزم والشدة، وهذا يبين أن شدته كـانت على المتجـبرين الظالمين، والمفـرطين الذين كانوا يتـعمـدون الإهمال والتقصير، وكان يقصد من وراء ذلك تحقيق مـصالح رعيته، أما الضعفاء فإنه كان رحيمًا بهم، يحلم عن جاهلهم ويغفر زلة مخطئهم.

قال الحـافظ ابن كثيـر: ورفع [يعني عبـيد الله بن سلمان] إلى المعـتضد قـومًا يجتمعون على المعـصية فاستشار وزيره في أمرهم فقـال: ينبغي أن يُصلب بعضهم

---

(١) البداية والنهاية ١٠/ ٢٩٠.

(٢) أي بمروحة.

(٣) البداية والنهاية ١١/ ٩٧ - ٩٨.

ويحرق بعضهم، فقال: وَيحك لقد برَّدتَ لهب غضبي عليهم بقسوتك، أما علمت أن الرعية وديعة الله عند سلطانها، وأنه سائله عنها؟ ولم يقابلهم بما قال الوزير[1].

وهذا أيضًا مثل من رحمة المعتضد بالله وعدله، فالعقوبات إذا كان فيها حكم شرعي فإنه لا يجوز للوالي مخالفته، أما إذا كانت من باب التعزيرات فإنه لا يجوز للوالي أن يتجاوز بها حدود الاعتدال، لأن ذلك من الظلم، وهو مفسد للعلاقات بين الراعي والرعية.

من مواقف الوزير علي بن الجراح رحمه الله:

من ذلك ما ذكره الحافظ ابن كثير في ترجمة أبي الحسن علي بن عيسى بن الجراح وزير الخليفتين المقتدر والقاهر قال: كان ثقة نبيلاً فاضلاً عفيفًا، كثير التلاوة والصلاة والصيام يحب أهل العلم ويكثر مجالستهم.

قال: ورُوي عنه أنه قال: كسبت سبعمائة ألف دينار، أنفقت منها في وجوه الخير ستمائة ألف وثمانين ألفًا.

قال: ولما دخل مكة حين نُفِيَ من بغداد طاف بالبيت وبالصفا والمروة في حرٍّ شديد، ثم جاء إلى منزله فألقى نفسه وقال: أشتهي على الله شربة ثلج، فقال له أصحابه: هذا لا يتهيأ هنا، فقال: أعرف ولكن سيأتي به الله إذا شاء، وأصبر إلى المساء، فلما كان في أثناء النهار جاءت سحابة فأمطرت، وسقط منها بَرَدٌ شديد كثير، فجمع له صاحبه من ذلك البرد شيئًا كثيرًا وخبأه له، وكان الوزير صائمًا، فلما أمسى جاء به، فلما جاء المسجد أقبل إليه صاحبه بأنواع الأشربة وكلها ثلج، فجعل الوزير يسقيه لمن حواليه من الصوفية والمجاورين، ولم يشرب هو منه شيئًا، فلما رجع إلى المنزل جئته بشيء من ذلك الشراب كنا خبأناه له، وأقسمت عليه ليشربنَّه فشربه بعد جهد جهيد، وقال: أشتهي لو كنت تمنيت المغفرة، رحمه الله وغفر له[2].

---

(١) البداية والنهاية ١١/ ٩٨.

(٢) البداية والنهاية ١١/ ٢٣١.

ففي هذا الخبر مثل جليل في البـذل والإنفاق في سبيل الله تعالى، وهذا العطاء الكثير من هذا الوزير المحـسن يدل على قوة إيمانه وشدة استحضـاره للحياة الآخرة التي يكون فيها الثواب الجزيل على الأعمال الصالحة.

وكان من عاجل البشرى له في الدنيا أن اسـتجاب الله تعالى له فحقق له وجود ما تمناه من الثلج في مكة التي لا يمكن وجود الثلج فيها لبعدها الشاسع عن الجبال التي ينقل منها الثلج، حيث نزل ذلك المطر المشتمل على البَرَد فـتوافر له ما اشتهاه من الثلج، ولكنه بعدما حصل له ما اشـتهاه ندم على تمني ذلك واشتهى أن يكون تمنى المغفـرة، لأن الله جل وعلا حقق له مراده فـأحبّ أن يكون ما خطر على باله هو مغفرة ذنوبه ليكون هذا الأمر محقَّـقًا، وهذا دليل على تعظيمه لله تعالى وشدة استحضاره ثوابه وعقابه.

وإن ما حـصل له من استجابة دعـائه دليل على إخلاصه في عـمله لله تعالى، خاصة ما كان من إنفاقه الكثير من ماله في سبل الخير، رحمه الله تعالى.

من مواقف أبي بكر الباقلاني رحمه الله:

من ذلك ما ذكره الحافظ ابن كثير في ترجـمته قال: ذكر الخطيب وغيره عنه أن عضد الدولة بعثه في رسالة إلى ملك الروم، فلما انتهى إليه إذا هو لا يدخل عليه أحد إلا من باب قصيـر كهيئة الراكع، ففهم البـاقلاني أن مراده أن ينحني الداخل عليه كهيئة الراكع لله عز وجل، فدار بقفاه إلى الملك ودخل الباب بظهره يمشي إليه القهقرى، فلـما وصل إليه انفتل فسلم عليه، فـعرف الملك ذكاءه ومكانه من العلم والفهم فعظمه.

قال: ويقال إن الملك أحضر بين يديه آلة الطرب المسمـاة بالأرغل، ليستفز عقله بها، فلما سـمعها البـاقلاني خاف على نفسه أن يظهـر منه حركة ناقصـة بحضرة الملك، فجـعل لا يألو[1] جـهدًا أن جـرح رجله حتى خـرج منهـا الدم الكثيـر، فاشتغل بالألم عن الطرب، ولم يظهر عليه شيء من النقص والخفة، فعجب الملك من ذلك، ثم إن الملك اسـتكشف الأمر فـإذا هو قـد جرح نفـسه بما أشـغله عن

(١) أي لا يقصر.

الطرب، فتحقق الملك وفور همته وعلو عـزيمته، فإن هذه الآلة لا يسمعها أحد إلا طرب شاء أم أبى.

قال: وقد سأله أحد الأساقفة بحضرة ملكهم فقال: ما فعلتْ زوجة نبيكم؟ وما كان من أمرها بما رُميت به من الإفك؟ فقال الباقـلاني مجيبًا له على البديهة: هما امرأتان ذُكرتا بسـوء: مريم وعائشة، فـبرأهما الله عز وجل، وكـانت عائشة ذات زوج ولم تأت بولد، وأتت مـريم بولد ولم يكن لها زوج - يعني أن عـائشة أولى بالبراءة من مـريم - وكلاهمـا بريئة مما قيـل فيهـا، فإنْ تطرق في الذهن الفـاسد احتمـال ريبة إلى هذه فهو إلى تلك أسـرع، وهما بحمد الله منزهتـان مبرأتان من السماء بوحي الله عز وجل، عليهما السلام[1].

ففي هذا الخبـر فهم ثاقب وعلم غزير وقوة في الدين، حـيث فهم القاضي أبو بكر الباقلاني مقصود ملك الروم في مـحاولة إذلال علماء المسلمين، فتفادى ذلك بتلك الحـركة الجيـدة، حيث دخل ذلك الـباب على قفـاه، ثم استـدار إلى الملك ففوَّت عليه مراده من الدخول عليـه على هيئة الركوع له، وفي هذا السلوك العالي إعزاز للإسلام وأهله وإذلال للكفر وأهله.

وحينما أراد ملك الروم أن يستفز عقل الباقلاني بتلك الآلة حتى يطرب - وهو يعلم أن المسلمين المتـقين لا يفعلون ذلك - تخلص من ذلك الموقف بإقـدامه على جرح نفـسه ليـشغله الألم عن التأثر بـتلك الآلة الموسيقـية، وهذا مـثل من الحزم الشديد والعـقل الرشيـد والإيمان الراسخ والصبر القـوي، وبهذا التـصرف الحكيم فوَّت هذا العـالم على ذلك الملك الفرصـة في استفـزازه وتحطيم معنويتـه، وكان بذلك محل إعجاب ذلك الملك وتقديره.

ثم يظهر علم الباقلاني وفهمه ونباهته في جوابه لذلك الأسقُفْ الذي أراد إهانة النبي ﷺ بلمْز عـائشة رضي الله عنها، حيث دافع عنهـا بجواب مُسكت مـحيِّر، وذلك بأن قرن ذكرها بذكر مريم عليها السلام التي يعظمها النصارى، ثم ذكر تبرئة الله جل وعلا لهما.

---

(١) البداية والنهاية ١١/ ٣٧٤.

وهكذا ينبغي أن يُختار وفود المسلمين إلى زعماء الكفار حتى يظهروا عظمة الإسلام والمسلمين.

موقف لأبي مسلم أحمد الأبَّار رحمه الله:

من الأمثلة الجيدة على حرص العلماء على تطبيق التكاليف الشرعية ما ذكره جعفر الخُلْدِي عن الإمام الرباني أبي مسلم أحمد بن علي الأبَّار، قال: كان الأبَّار من أزهد الناس، استأذن أمه في الرحلة إلى قتيبة فلم تأذن له، ثم ماتت فخرج إلى خراسان، ثم وصل إلى بَلْخ وقد مات قتيبة، فكانوا يعزُّونه على هذا، فقال: هذا ثمرة العلم، إني اخترت رضى الوالدة[1].

فهذا فقه عميق من هذا الإمام، فإن أهم شيء يُطلب له العلم هو العمل الصالح، وإن من أزكى الأعمال الصالحة برَّ الوالدين، فلئن فاته عُلوُّ الإسناد في بعض الأحاديث فلقد أدرك ما هو أهم من ذلك وهو ثمرة العلم النافع، وهذا مثل من الاعتدال في طلب العلم، فلا ينبغي أن يكون عائقًا عن أداء الواجبات الدينية، ولا أن يُهمل بأن تقدَّم عليه النوافل التي هي أقل أهميةً، فضلاً عن أن تقدَّم عليه مطالب الدنيا وشواغلها.

من مواقف بقيّ بن مخلَّد الأندلسي رحمه الله:

ومن نماذج الإحسان ما روي عن الإمام بقيٍّ بن مخلَّد عالم الأندلس، أن امرأة جاءت إليه فقالت: إن ابني في الأسر ولا حيلة لي فيه، فلو أشرت إلى من يفديه فإني والهة، قال: نعم، انْصَرِفي حتى أنظر في أمره، ثم أطرق وحرك شفتيه، ثم بعد مدة جاءت المرأة بابنها، فقال: كنت في يد ملك فبينا أنا في العمل سقط قَيدي، قال: فذكر اليوم والساعة، فوافق وقت دعاء الشيخ، قال: فصاح عليَّ المُرَسَّم بنا، ثم نظر وتحير، ثم أحضر الحداد وقيَّدني، فلما [فرغ منه] ومشيت سقط القَيد، فبُهِتوا ودعوا رهبانهم، فقالوا: ألك والدة؟ قلت: نعم، قالوا وافق دعاءها الإجابة.

ثم قالوا: قد أطلقك الله فلا يمكننا أن نقيدك، فزودوني وبعثوا بي[2].

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٣/ ٤٤٣.

(٢) سير أعلام النبلاء ١٣/ ٢٩٠.

فهذا مثـل من بذل المعروف والإحسان عن طريق الدعاء الصالح، فـقد قام هذا العالم الرباني بما يستطيعه من تلبية طلب تلك المرأة، حيث توجه إلى الله تعالى أن يخلِّص ابنهـا من الأسر، وهذا دليل عـلى اهتمـامه بأمـر تلك المرأة وابنها، وقـد أجاب الله تعالى دعاءه بأن نزع من تلك القيود فعاليـتها فأصبحت تسقط ولا تثبت على ذلك الرجل رغم محاولتهم تثبيتها، فأدرك رهبانهم أن وراء ذلك الرجل دعاء صالح قـد اخترق حجب الغـيب وسقط معه مـفعول الوسائل والأسـباب المادية، فأطلقوا ذلك الأسير وأكرموه.

وهذه من خوارق العادات التي أكرم الله تعالى بها ذلك الولي الصالح فاستجاب دعاءه.

من مواقف ظهير الدين الأهوازي رحمه الله:

من ذلك ما ذكـره الحافظ ابن كثـير في ترجمـة الوزير أبي شجاع ظهـير الدين محمد بن الحـسين الأهوازي، حيث قال عنه: كان من خيار الوزراء كثـير الصدقة والإحسان إلى العلماء والفقهاء، وسـمع الحديث من الشيخ أبي إسحاق الشيرازي وغيـره، وصنف كـتبًـا منها كـتابه الذي ذيَّله على تجـارب الأمم، وَوَزَر للخليـفة المقتدي، وكان يملك ستمائة ألف دينار فأنفقها في سبيل الخيرات والصدقات.

قال له رجل: إلى جانبنا أرملة لها أربعة أولاد وهم عـراة وجياع، فبعث إليهم مع رجل من خاصته نفقة وكسـوة وطعامًا، ونزع عنه ثيابه في البرد الشديد وقال: والله لا ألبسها حتى ترجع إليَّ بخبرهم، فذهب الرجل مسرعًا بما أرسله على يديه إليهم، ثم رجع إليه فأخبرهم أنهم فـرحوا بذلك ودعوا للوزير، فسُرَّ بذلك ولبس ثيابه.

قال: وجئ إليه مرة بقطائف سكرية فلما وُضعت بين يديه تنغَّص عليه بمن لا يقدر عليها، فأرسلها كلها إلى المساجد، وكانت كثيرة جدًا فأطعمها الفقراء والعميان.

قال: وكـان لا يجلس في الديوان إلا وعنده الفقـهاء، فإذا وقع له أمـر مشكل سألهم فحكم بما يفتونه، وكان كثير التواضع مع الناس خاصتهم وعامتهم[1].

(١) البداية والنهاية ١٢/ ١٦٠ - ١٦١.

فهذه أخلاق عاليـة من الوزير أبي شجاع، فقد كان متصـفًا بالتواضع والرحمة والعدل، وكونه يخلع ثيابه في ذلك اليوم الشديد البرد حتى يتأكد من وصول نفقته إلى المحتاجين دليل على شعوره البالغ بمآسي رعيـته، ورغبته في مواساتهم، وكأنه أراد بتعـرضه للبـرد أن يعاتب نفسـه على تقصـيره في تفقـد أمور الفـقراء الذين يتعـرضون لقسوة البـرد، ليكون بإحساسـه بألم البرد أقدر على تذكر آلام الفـقراء وتحقيق آمالهم.

وحينما وُضع بين يدي هذا الـوزير ذلك الطعام الفاخر تذكر من لا يسـتطيعون الحصول عليه من رعيته فـزهد فيه وآثر به الفقراء على نفسه، وهذا نوع من الزهد الرفيـع، حيث يتم كـبح النفس عن شهـوتها مع كـمال القـدرة على تحقـيقـها، وإحسـاسٌ دقيق بأحـقية المحـرومين الذين لم يخطر ببالهم أن يحـصلوا على تلك النعم.

من مواقف أبي علي حسان بن سعيد الخالدي رحمه الله:

ومن الذين اشتهروا ببذل المعروف والإحسان، الشيخ الجليل أبو علي حسان بن سعيد الخالدي المخزومي المنيعي، وهو ينتسب إلى خالد بن الوليد رضي الله عنه.

قـال عنه المؤرخ عبـد الغافـر: هو الرئيس أبو علي الحـاجي[1] شيـخ الإسلام المحمود بالخصـال السنيَّة، عم الآفاق بخيره وبرِّه، وكان في شـبابه تاجرًا، ثم عَظُم حتى كان من المخـاطبين من مجالس السلاطين، لم يسـتغنوا عن رأيه، فرغب إلى الخيرات، وأناب إلى التقوى، وبنى المسـاجد والرباطات، وجامعَ مرو الروز، يكسُو في الشتاء نحوًا من ألف نفس، وسعى في إبطال الأعشار عن بلده، ورَفَع الوظائف عن القرى، واستدعى صدقةً عامـة عن أهل البلد، غنيِّهم وفقيرهم، فتُدفع إلى كل واحد منهم خمسةُ دراهم، وتم ذلك بعده، وكان ذا تهجد وصيام واجتهاد[2].

فهذا مثل على الاهتمام الكبيـر ببذل المعروف والإحسان، وقد تعددت أنواع بر هذا الشيخ الجليل فشملت مواساة الفقراء، والإحسان إلى جميع أهل بلده بما يشبه

(١) الحاجي بلغة العجم الذي حج بيت الله الحرام.
(٢) سير أعلام النبلاء ١٨/٢٦٦ - ٢٦٧.

العطاء المعمولَ به في عصر صدر الإسلام، وبناءَ المساجد والمساكن للمحتاجين، إلى جانب سعيه في إزالة الضرائب عن أهل بلده.

فلقد كان يعمل بعمل عدد من المحسنين، وإذا عظم الدافع الإيماني واليقين القلبي أتى صاحبه بالعجائب من الأعمال الجليلة.

قال الإمام الذهبي: وقيل: إن امرأة أتته بثوب لينفق ثمنه في بناء الجامع، يساوي نصف دينار، فاشتراه منها بألف دينار، وسلَّمت المال إلى الخازن لإنفاقه، وخبَّأَ الثوب كفنًا له[1].

فهذا موقف كبير في السماحة والسخاء، حيث دفع هذا الشيخ الجليل ألف دينار ثمنًا لذلك الثوب ليكون هذا المبلغ في بناء المسجد.

وإحساس مرهف نحو الحياة الآخرة، وذلك في اهتمامه بذلك الثوب الذي قد يكون هو كل ما تملكه تلك المرأة ثم جادت به لله تعالى، وجاد هو بألف دينار ليكون كفنا له بعد الموت.

فما أبلغ اهتمام هذا الشيخ بدينه ومستقبله بعد الموت!

من مواقف عماد الدين إبراهيم المقدسي رحمه الله:

ومن مواقف العلماء في العمل الصالح والإحسان إلى الناس ما ذكره الشيخ ضياء الدين المقدسي من أخبار الشيخ عماد الدين إبراهيم بن عبد الواحد المقدسي، فمنها ما ذكره عن عباس بن عبد الدايم المصري الكناني قال: كنا يومًا نمشي مع الشيخ العماد إلى دعوة فلقي في السوق رجلاً أعمى يسأل، فقال: يا فلان تعال معنا، قال: فاستحيَى الضرير كثيرًا من أجل سؤاله، قال: فلما دخلنا إلى البيت انبسط الشيخ مع الضرير وقال: يا فلان كلُّنا سُؤَّال، وما زال يقول له حتى زال ما كان عنده من الحياء[2].

فهذا سلوك نبيل من هذا الشيخ الجليل في مواساة الفقراء والرفع من معنويتهم، وقد جمع الشيخ العماد في هذا بين المواساة المادية والمعنوية، فحينما رأى ذلك

(١) سير أعلام النبلاء ١٨/ ٢٦٦ - ٢٦٧.

(٢) طبقات الحنابلة ٤/ ٩٨.

السائل قد انكسرت نفسه وغلبه الحياء صار يلاطفه حتى زال ما خطر في نفسه وارتفعت معنويته.

وقد ذكر له الشيخ الضياء أخبارًا في بذل المعروف، فمن ذلك ما ذكره الحافظ ابن رجب في ترجمته قال: ثم ذكر الضياء من كرمه وحسن عشرته أن بعض أصحابه كانت تكون له الحاجة إليه فيمضي إلى بيته فيقيم عنده اليوم واليومين، قال: وما رأيته يشكي من ذلك شيئًا قال: وما أظن أني دخلت عليه قط إلا عرض علي الطعام.

قال: ولم يزل هذا دأبه من وقت ما عقلنا، وكان يتفقد الناس ويسأل عن أحوالهم كثيرًا، وربما بعث إلى الناس نفقةً سرًا.

وذكر أنه كان إذا غاب أحد من إخوانه أرسل إلى بيته النفقة وغيرها، وربما جاء بنفسه إليهم، قال: وربما كان بعض الناس يرسل إليه يشتري له حاجة فربما زاد على ثمنها من عنده ولا يُعلمه بذلك وكان يَلْقى الناس بالبشر الدائم[1].

من مواقف الوزير جمال الدين محمد بن أبي منصور[2]:

قال المؤرخ أبو شامة: قال ابن الأثير: كان جمال الدين رحمه الله أسخى الناس وأكثرهم عطاء وبذلاً للمال، رحيمًا بالنَّاس، متعطفًا عليهم، عادلاً فيهم، فمن أعماله الحسنة أنه جدَّد بناء مسجد الخَيْف بمِنى، وغرم عليه أموالاً عظيمة، وبنى الحجر بجانب الكعبة ورأيت اسمه عليه، ثم غُيِّر وبُني غيره سنة ست وسبعين وخمس مئة، وزخرف الكعبة بالذهب والنُّقْرة[3]، فكل ما فيها من ذلك فهو عمله إلى سنة تسع وستمائة. ولما أراد ذلك أرسل إلى الإمام المقتفي لأمر الله هدية جليلة حتى أذن له فيه، وأرسل إلى أمير مكة عيسى بن أبي هاشم خِلَعًا سنية وهدية كثيرة حتى مكّنه منه. وعمر أيضًا المسجد الذي على جبل عرفات، وعمل الدرج التي يُصْعَدُ فيها إليه، وكان النَّاس يلقون شدة في صعودهم، وعمل بعرفات

(١) طبقات الحنابلة ٤/ ٩٧.

(٢) هو جمال الدين محمد بن علي بن أبي منصور، كان وزيرًا للسلطان عماد الدين زنكي ثم لولديه سيف الدين وقطب الدين في الموصل، توفي سنة تسع وخمسين وخمسمائة رحمه الله تعالى.

(٣) الفضة. انظر «قاموس الفارسية»: ٧٤٧، و«معجم متن اللغة»: ٥/ ٥٢٧. ذكره محقق الكتاب.

مصانع للماء، وأجرى الماء إليها من نَعْمان[1] في طريق معمولة تحت الجبل مبنيَّة بالكلس، فغرم على ذلك مالاً كثيرًا. وكان يعطي أهل نَعْمان كُلَّ سنة مالاً كثيرًا ليتركوا الماء يجري إلى المصانع أيام مقام الحُجَّاج بعرفات، فكان الناس يجدون به راحةً عظيمة.

قال: ومن أعظم الأعمال التي عملها نفعًا أنه بنى سورًا على مدينة النبي عليه السلام، فإنها كانت بغير سور ينهبها الأعراب، وكان أهلها في ضَنْك وضُرٍّ معهم. رأيت بالمدينة إنسانًا يصلي الجمعة، فلما فرغ ترحَّم على جمال الدين ودعا له، فسألناه عن سبب ذلك، فقال: يجب على كل من بالمدينة أن يدعوَ له، لأنا كُنا في ضرٍّ وضيق ونكد عيش مع العرب، لا يتركون لأحدنا ما يواريه ويشبع جَوْعته، فبنى علينا سورًا احتمينا به ممن يريدنا بسوء، فاستغنينا، فكيف لا ندعو له!

قال: وكان الخطيبُ بالمدينة يقول في خطبته: اللهم صُنْ حريم من صان حرم نبيك بالسُّور، محمد بن علي بن أبي منصور. قال: فلو لم يكن له إلا هذه المكرمة لكفاه فخرًا، فكيف وقد كانت صدقاته تجوب شرق الأرض وغربها! وسمعتُ عن مُتولِّي ديوان صدقاته التي يخرجها على باب داره للفقراء، سوى الإدرارات والتعهُّدات، قال: كان له كل يوم مئة دينار أميرية يتصدَّق بها على باب داره.

قال: ومن أبنيته العجيبة التي لم ير الناسُ مثلها الجسر الذي بناه على دجْلة عند جزيرة ابن عمر بالحجر المنحوت والحديد والرَّصاص والكلْس، إلا أنه لم يفرغ لأنه قُبض قبل فراغه. وبنى أيضًا جسرًا على نهر الأرياز عند الجزيرة أيضًا. وبنى الرُّبط بالمَوْصِل، وسِنجار، ونَصيبين، وغيرها، وقصده الناس من أقطار الأرض. ويكفيه أن صدر الدين الخُجَنْدي، رئيس أصحاب الشَّافعي، رضي الله عنه، بأصبهان، وابن الكافي قاضي قضاة هَمَذَان، قصداه، فأخرج عليهما مالاً جزيلاً، وكذلك غيرهما من الصُّدُور والعلماء ومشايخ الصُّوفية، وصارت المَوْصلُ في أيامه مقصدًا وملجأ.

(١) واد بين مكة والطائف ويبعد عن مكة حوالي ٤٠ كيلاً.

وكان أحبَّ الأشياء إليه إخراجُ المال في الصَّدَقات، وكان يضيِّق على نفسه وبيته ليتـصدَّق. حكى لي والدي قال: كنتُ يـومًا عنده وقد أُحـضر بين يديه قُنْدُز[1]، ليُعمل على وبر ليلبـسه بخمسة دنانيـر، فقال: هذا الثمن كثيـر، اشتروا لي قُنْدُزًا بدينارين وتصدَّقوا بثلاثة دنانير. قال: فراجعناه غير مرة فلم يفعل.

قال: وحكى لي من أثق إليه من العدول بالمَوْصل أن الأقوات تعذَّرت في بعض السنين بها وغَلَت الأسعار، وكان بالمَوْصل رجل من الصـالحين يقال له الشيخ عمر المَلاء، فأحـضره جـمال الدين وسلَّم إليـه مالاً، وقال له: تخـرج هذا المال على مستـحقه، وكلما فرغ أرسلْ إليَّ لأنفـذ غيره، فلم تمض إلا أيام يسيـرة حتى فرغ ذلك المال لكثرة المحتاجين، فأنفذ له شيئًا آخر ففني، ثم أرسل يطلب ما يخرجه، فقال جمال الدين للرسـول: والله ما عندي شيء، ولكن خذ هذه المحافر التي في داري فبيـعوها وتصدَّقوا بثـمنها إلى أن يأتينا شيء آخر فنرسله إلى الشـيخ عمر. فبيعت المحافر وتصدَّقوا بثمنها.

قال: وحكى لي بعضُ الصُّـوفية ممن كان يصـحب الشيخ عمر النَّسَـائي، شيخ الشيوخ بالمَوْصل قـال: أحضرني الشيخ فقال لي: انطلق إلى مـسجد الوزير، وهو بظاهر الموصل، واقـعـد هناك، فـإذا أتاك شيء فاحـفظه إلى أن أحـضـر عندك. ففعلت، وإذا قد أقبل جمع كثير من الحمَّالين يحملون أحمالاً من النَّصافي والخام، وإذا قد جاء نائبُ جمال الدين مع الشيخ ومعهمـا قماشٌ كثير، وثمانية عشر ألف دينار، وعِدَّة كثيرة من الجمال. فقال لي: تأخذ هذه الأحمال، وتسير إلى الرَّحبة، فتوصل هذه الرِّزْمة وهذا الكتاب إلى متوليـها فلان، فإذا أحضر لك فلانًا العربي، فتوصل إليه هذا الرِّزْمة الأخرى وهذا الكتـاب وتسير معه، فإذا أوصلك إلى فلان العربي، فـتوصل إليه هذه الرزمـة وهذا الكتاب، وهكذا إلى المدينة على سـاكنها السَّلام، توصِّل إلى وكـيلي فلان هذه الأحـمال وهذه الكسوات والمـال الذي عليه اسم المدينة ليخـرجها بمقتـضى هذه الجريدة، ثم تأخذ البـاقي الذي عليه اسم مكة وتسير إليها فيتصدَّق به وكيلي بها بموجب الجريدة الأخرى. قال: فسرنا كذلك إلى

(١) هو القندس، ثعلب الماء، تتخذ من جلده فـراء فاخرة يلبسها السلاطين. انظر «الألفاظ الفـارسية المعربة» ١٢٩ - ١٣٠. ذكره محقق الكتاب.

وادي القُرى، فرأينا به نحـو مئة جمل تحمل الطعام إلى المدينة وقـد منعهم خوفُ الطريق، فلمـا رأونا ساروا معنا إلـيها، فـوصلناها والحنطة بها كل صـاعين بدينار مصري، والصاع خمسة عشـر رطلاً بالبغدادي، فلما رأوا الطعام والمال اشتروا كل سبعة آصع بدينار. فانقلبت المدينة بالدُّعاء له. ثم سرنا إلى مكة ففعلنا ما أَمَرَنا.

قال: وحكى لي والدي قال: رأيتُ جمال الدين وقد حضر عنده رجلٌ فقيه قبل أن يصيـر وزيرًا، فطلب منه شيئًـا، وتردَّد إليه عدَّة أيام، ثم انقطع، فـسأل عنه، فـقيل: إنه سـافر. فـشقَّ ذلك عليـه، ثم قـال: هكذا تنصرف الأحـرار عن دور الكلاب. ورَدَّد ذلك غير مـرة، ثم سأل عنه فقيل: إنه سار نحـو ماردين. فأرسل إليه خلْعةً ونفقة إلى ماردين.

قال: ولو رُمتُ شرح مفردات أعماله لأطلتُ وأضجرت، وهي ظاهرة لا تحتاج إلى بيان، فلهذا تركنا أكثرها.

قلت: وقد ذكره الأمير مؤيد الدولة أسامة بن منقـذ في كتاب «الاعتبار» فقال: اجتمعتُ بجـمال الدين في الموصل سنة خمس وخمسين وخمسمـائة، وأنا متوجِّه إلى الحج، وكانت بيني وبينه مـودة قديمة وعشرة ومؤانسة، فـعرض عليَّ الدخول إلى دار في الموصل، فامتنعت، ونزلتُ بخيـمتي على الشط، فكان مدة مقامي كل يوم يركب يجوز على الجسر نحو نينوَى، وأتابك قد ركب إلى المَيدان[1] وينفذ إلي يقول: اركب، فأنا واقف أنتظرك. فأركب فأسير أنا وهو فنتحدث. فوجدتُ يومًا منا خلوة من أصحابي، فقلتُ له: في نفسي شيء يتردَّدُ من حيث اجتمعنا أشتهي أن أقوله لك، وما يتفق لي خلوة، وقد خلونا الساعة. قال: قل. قلت: أقول لك ما قاله الشريف الرضي:

ما ناصَـحَتْك خفـايا الودِّ من أحدٍ ... مـا لم يُصِـبْك بمكروهٍ من العَـذَل

مـودَّتي لك تأبـى أن تُسَـامـحني ... بـأن أراكَ علـى شيءٍ مـنَ الزّلـلِ

وقـد بسطتَ يدَك في إنـفـاق المال في الصَّـدقـات ووجـوه البـرّ والمعـروف، والسلاطين مـا يحتملون إخراج المال، ولا تصـبر نفوسهم عليـه، ولو أن الإنسان

(١) «أتابك» لقب يطلق على السلطان عماد الدين زنكي.

يخرجه من ميراثه، وهذا الذي أهلك البرامكة، فانظر لنفسك كيف المخرج مما قد دخلت فيه. فأطرق ساعة وقال: جزاك الله خيرًا، لكن الأمر قد عَبَر عما تخافه. ففارقتُه وسرت إلى الحجاز، وعدت من مكة على طريق الشَّام، ونُكب جمال الدين ومات في الحبس[1].

من مواقف السلطان نور الدين رحمه الله:

كانت لهذا السلطان العادل مشاريع خيرية كثيرة وأعمال إصلاحية فائقة، ولقد ذكر المؤرخ أبو شامة بعض هذه الأعمال الإصلاحية حيث يقول: وبنى الجوامع في جميع البلاد، فجامعهُ في المَوْصل إليه النهاية في الحُسْن والإتقان، ومن أحسن ما عمل فيه أنه فوَّض أمر عمارته والخرج عليه إلى الشيخ عمر المَلاء[2] رحمه الله، وهو رجل من الصالحين، فقيل له: إن هذا لا يصلح لمثل هذا العمل. فقال: إذا ولَّيت العمل بعض أصحابي من الأجناد والكُتَّاب أعلم أنه يَظلم في بعض الأوقات، ولا يفي الجامعُ بظُلْم رجل مسلم، وإذا ولَّيت هذا الشيخ غلب على ظني أنه لا يظلم، فإذا ظَلَمَ كان الإثم عليه لا عليَّ. قال: وهذا هو الفقه في الخلاص من الظلم. وبنى أيضًا بمدينة حماة جامعًا على نهر العاصي من أحسن الجوامع وأنزهها، وجدَّد في غيرها من عمارة الجوامع ما كان قد تهدم، إما بزَلْزلة أو غيرها، وبنى البيمارَسْتانات في البلاد[3]، ومن أعظمها البيمارَسْتان الذي بناه بدمشق، فإنه عظيم كثير الخرج جدّا بلغني أنه لم يجعله وقفًا على الفقراء حسب، بل على كافة المسلمين من غنيٍّ وفقير.

قلت: وقد وقفتُ على كتاب وَقْفه فلم أره مشعرًا بذلك، وإنما هذا كلامٌ شاع على ألسنة العامة، ليَقع ما قدَّره الله تعالى من مزاحمة الأغنياء للفقراء فيه، والله المستعان. وإنما صرَّح بأن ما يعزُّ وجوده من الأدوية الكبار وغيرها لا يُمنع منه من احتاج إليه من الأغنياء والفقراء. فخصَّ ذلك بذلك، فلا ينبغي أن يتعدَّى إلى غيره، لا سيما وقد صرَّح قبل ذلك بأنه وَقْف على الفقراء والمنقطعين، وقال بعد

(١) كتاب الروضتين ١/ ٤٢٨.

(٢) هو عمر بن محمد بن خضر الإربلي الموصلي، أبو حفص، معين الدين، يعرف بعمر المَلاَّء، لأنه كان يملأ تنانير الجص بأجرة يتقوت بها. ذكر ذلك المعلق.

(٣) يعني المستشفيات.

ذلك: من جاء إليه مستوصفًا لمرضه أُعطي. ورُوي أن نور الدين رحمه الله، شرب من شراب البيمارَسْتَان فيه، وذلك موافق لقوله في كتاب الوقف: من جاء إليه مستوصفًا لمرضه أُعطي، والله أعلم.

وبلغني في أصل بنائه نادرة، وهي أن نور الدين رحمه الله وقع في أسره بعضُ أكابر الملوك من الفرنج، خذلهم الله تعالى، فقطع على نفسه في فدائه مالاً عظيمًا، فشاور نورُ الدين أمراءه، فكلٌّ أشار بعدم إطلاقه لما كان فيه من الضرر على المسلمين، ومال نور الدين إلى الفداء بعدما استخار الله تعالى، فأطلقه ليلاً لئلا يعلم أصحابه، وتسلَّم المال، فلما بلغ الفرنجي مأمنه مات، وبلغ نور الدين خبره، فأعلم أصحابه، فتعجبوا من لطف الله تعالى بالمسلمين، حيث جمع لهم الحُسنَيين، وهما الفداء وموت ذلك اللعين. فبنى نور الدين رحمه الله بذلك المال هذا البيمارَسْتان، ومنعَ المال الأمراء، لأنه لم يكن عن إرادتهم كان.

وقال ابن الأثير: وبنى أيضًا الخانات في الطريق، فأَمنَ الناس وحُفظَتْ أموالُهم، وباتوا في الشتاء في كِنٍّ[1] من البرد والمطر. وبنى أيضًا الأبراج على الطُّرُق بين المسلمين والفرنج، وجعل فيها من يحفظها ومعهم الطيور الهوادي، فإذا رأَوْا من العدوِّ أحدًا أرسلوا الطيور، فأخذ الناس حِذْرهم، واحتاطوا لأنفسهم، فلم يبلغ العدو منهم غرضًا، وكان هذا من ألطف الفِكَر وأكثرها نفعًا.

قال: وبنى الرُّبط والخانقاهات في جميع البلاد للصُّوفية، ووقف عليها الوقوف الكثيرة وأدر عليهم الإدرارات الصالحة وكان يحضر مشايخهم عنده ويقرِّبُهُمْ، ويدنيهم ويبسطهم، ويتواضع لهم، وإذا أقبل أحدهم إليه يقوم له مُذْ تقع عينه عليه، ويعتنقه ويجلسُهُ معه على سَجَّادته، ويُقبلُ عليه بحديثه. وكذلك كان أيضًا يفعل بالعلماء من التعظيم والتوقير والاحترام، ويجمعهم عند البحث والنَّظَر، فقصدوه من البلاد الشَّاسعة، من خُرَاسان وغيرها. وبالجملة كان أهل الدين عنده في أعلى محل وأعظمه، وكان أمراؤه يحسدونهم على ذلك، وكانوا يقعون عنده فيهم فينهاهم، وإذا نقلوا عن إنسان عيبًا يقول: ومن المعصوم؟! وإنما الكامل من تُعدُّ ذنوبه.

(١) أى في ستر «اللسان» (كنن). ذكره محقق الكتاب.

قال: وبلغني أن بعض أكابر الأمراء حسد قُطْب الدين النيْسَابوري، الفقيه الشافعي، وكان قد استقدَمه من خُرَاسان، وبالغ في إكرامه والإحسان إليه، فحسده ذلك الأمير، فنال منه يومًا عند نور الدين. فقال له: يا هذا، إن صَحَّ ما تقول فله حسنةٌ تغفر كل زَلَّة تذكرها، وهي العلم والدين، وأما أنت وأصحابك، ففيكم أضعاف ما ذكرت، وليست لكم حسنة تغفرها، ولو عَقَلْت لشغلك عَيْبُك عن غيرك، وأنا أحتمل سيئاتكم مع عدم حسناتكم، أفلا أحمل سيئةَ هذا -إن صحَّتْ- مع وجود حسنته! على أنني والله لا أصدِّقك فيما تقول، وإن عدتَ ذكرته أو غيره بسوء لأؤدِّبَنَّك، فكُفَّ عنه.

قال ابن الأثير: هذا والله هو الإحسان والفعل الذي ينبغي أن يكتب على العيون بماء الذهب[1].

ثم ذكر المؤرخ أبو شامة عن العماد الكاتب أنه قال: وحَضرَ صبيٌّ وبكى عند الملك العادل، وذكر أن أباه محبوسٌ على أُجرة حُجْرة من حُجَر الوقف. فسأل عن حاله. فقالوا: هذا الصبي ابن الشيخ أبي سعد الصُّوفي، وهو رجلٌ زاهد قاعد في حجرة الوقف، وليس له قدرة على الأجرة، وقد حبسه وكيل الوقف لأنه اجتمع عليه أجرة سنة. قال الملك العادل: كم أجرة السنة؟ فقالوا: مئة وخمسون قرطاسًا. وذكروا سيرته وطريقته وفقره. فَرَقَّ له وأنعم عليه وقال: نحن نعطيه كل سنة هذا القدر ليصرفه إلى الأجرة ويقعد فيها. وتقدَّم بذلك، وبإخراجه من الحبس، فوصل إلى قلب كل واحد من الحاضرين الفرح حتى كأن الإنعام كان في حقه[2].

من مواقف السلطان صلاح الدين رحمه الله:

قال المؤرخ أبو شامة: قال العماد [يعني الكاتب]: ومن جملة ما أغفلته ذكر ما أسقطه السلطان من مكس مكة- شَرَّفها الله تعالى- عن الحاجِّ، وتعويض أميرها بجلاب غَلَّة تُحمل إليه في كُلِّ سنة، وتعيين ضياع موقوفة عليها بالأعمال المصرية.

(١) كتاب الروضتين ١/ ٤٥.
(٢) كتاب الروضتين

كان الرسم بمكة أن يؤخذ من حاج المغرب على عدد الرؤوس ما ينسب إلى الضَّرائب والمكوس، فإذا دخل حاجٌّ حُبِسَ حتى يؤديَ مَكْسَه، ويَفُكَّ بما يطلبونه منه نَفْسَه، وإذا كان فقيرًا لا يملك، فهو يحبس ولا يُترك، وتفوته الوقفة بعَرَفة ولا تُدْرَك. فقال السُّلْطان: نريد أن نُعوِّض أميرَ مكَّة عن هذا المكس بمال، ونغنيه عنه بنوال، وإن أعطيناه ضياعًا استوعبها ارتفاعًا وانتفاعًا، فلا يكونُ لأهل مكَّة فيها نصيب. فقرَّر معه أن يحمل إليه في كل سنة مبلغ ثمانية آلاف إرْدَبّ[1] قمح إلى ساحل جُدَّة، فإن الأمير بها يحتاج إلى بيعها للانتفاع بأثمانها، ويثق أهل الحرمين من الدَّوْلة بدوام إحسانها. وقرَّر أيضًا حمل الغلات إلى المجاورين بالحرمين والفقراء، ومَنْ هناك من الشرفاء، ووقف لها وقوفًا، وخلَّد بها إلى قيام الساعة معروفًا، فسقطت المكوس، واغتبطت النفوس، وزاد البِشْرُ وزال العُبوس، واستمرت النُّعمى ومرَّ البوس، وذلك في سنة اثنتين وسبعين [يعني وخمسمائة][2].

من مواقف شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

من مواقف بذل المعروف والإحسان ما كان من شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، وقد ذكر الحافظ ابن حجر في ترجمة الأمير قطلوبك المنصوري: أن ابن تيمية دخل عليه مع تاجر يشفع له في قضاء حقه فقال له قطلوبك: إذا رأيتَ الأمير بباب الفقير فنعم الأمير ونعم الفقير، وإذا رأيت الفقير بباب الأمير فبئس الأمير وبئس الفقير[3]، فقال له ابن تيمية: كان فرعون أنحس منك وموسى خيرًا مني، وكان يأتي إلى بابه كل يوم يأمره بالإيمان، وأنا آمرك أن تدفع لهذا حقه، فلم يسَعْه إلا امتثال أمره ووفّى الرجل حقه [4].

فهذا موقف جليل من الإمام ابن تيمية حيث بذل جاهه لصاحب الحق وشفع له عند السلطان، ولَمَّا استشهد ذلك السلطان بالقول المذكور الذي لم يكن موافقًا

---

(١) الإِردب: كيل لأهل مصر يسع أربعة وعشرين صاعًا بصاع النبي ﷺ، يزن اليوم ٣٩,٥٨٨ كيلاً، انظر «معجم متن اللغة»: ٢/ ٥٦٩. ذكره محقق الكتاب.

(٢) كتاب الرضوتين ١/ ٩.

(٣) المراد بالفقير العالم، وذلك على اصطلاح الصوفية حيث كانوا يسمون أنفسهم الفقراء.

(٤) الدرر الكامنة ٣/ ٢٥٣.

للحكمة نبـهه ابن تيميـة إلى أن الأمر ليس على إطلاقه بل إن مـجيء العالم إلى الأمير لموعظتـه أو الشفاعة لأهل الحقوق أمـر مطلوب شرعًا، وقد كان ابن تيـمية رحمه الله موفقًا للأسلوب المؤثر حينما ضرب المثل بموسى عليه السلام وفرعون.

من مواقف أبي الحسين ابن سمعون رحمه الله:

من موقف العلماء في الحرص على تطبيق الأحكام الشـرعية ما ذُكِرَ عن العالم أبي الحسين مـحمد بن أحـمد البغدادى، المـعروف بابن سمعـون، يقول صاحـبه أبومحمـد السُّنِّي: كان ابن سمـعون في أول أمره ينسخ بالأجرة وينفق على نـفسه وأمه، فقال لها يومًا: أحب أن أحج، قـالت: وكيف يمكنك؟ فغلب عليها النوم، فنامت وانتبهت بعد سـاعة وقالت: يا ولدي حُجَّ، رأيت رسول الله ﷺ في النوم يقول: دَعـيه يحج فـإن الخير له في حـجه، ففـرح وباع دفاتره، ودفع إليـها من ثمنها، وخرج مع الوفد، فأخذت العرب الوفـد، قال: فبقيت عريانًا، فجعلتُ إذا غلب عليّ الجوع ووجـدت قومًا من الحـجاج يأكلون وقفت فـيدفعون إليّ كـسرة فأقتنع بها، ووجدت مع رجل عباءة فقلت: هَبْهَا لي أستتر بها فأعطانيها فأحرمت بها ورجعت.

قال: وكان الخليفـة قد حرَّم جارية وأراد إخراجها مـن الدار، قال السُّنِّي: فقال الخليفة: اطلبـوا رجلاً مستورًا يصلح أن نُزوِّج هذه الجارية به، فـقيل: قد جاء ابن سمعون، فاستصوب الخليفة ذلك وزوجه بها.

فكان يعظ ويقول: خـرجت حاجًا.. ويشرح حاله. ويقـول: ها أنا اليوم عليَّ من الثياب ما ترون!!

قال الذهبي: كان فاخر الملبوس[1].

فهذا الخبر يبين حرص أهل العلم والإيمان على أداء الفروض والواجبات حتى ما كان منها مقيدًا بالاستطاعة كالحج، فهذا العالم الجليل ابن سمعون كان يعيش فقيرًا مع أمه، ومع ذلك فـإن نفسه تطمح إلى الحج، وقـد تعجبت أمـه من طلبه ذلك لأنهما لا يملكان أكثر من القـوت الضروري، ولكن الله تعالى سخر له تلك الرؤيا

(١) سير أعلام النبلاء ١٦/٥٠٦ - ٥٠٧.

التي رأتها أمـه، فكانت مقنعـة لها بالسـماح له بالحج، فبـاع وسيلة رزقـها وهي الدفاتر ليتمكن من نفقة الحج.

ويُبْتَلَى هذا العالم فَـيَسْلُبَ ما معه قطَّاعُ الطريق ويبـقى بدون ثياب ولا طعام، ومع ذلك يواصل طريقه إلى الحـج، ثم يقارن بين حاله تلك وحـاله بعد أن أنعم الله تعالى عليه ليشكر ربه جل وعلا، وليجعل من حـياته عبرة للآخرين في الصبر عند البلاء والشكر عند الرخاء.

إن الاهتمام بالعمل الصالح - وخاصة أداء الواجبات- دليل على ارتفاع مستوى الإيمان، ويكون الإيمان أعظم رسـوخًا وقوة حـينما لا تتيـسر أسبـاب أداء العمل، فيبيع الإنسان ما يملك من أجل أداء هذا العمل كمـا فعل الإمام ابن سمعون رحمه الله تعالى.

***

توجيهات ومواقف
في
مجال العبادة

سيتم بإذن الله تعالى بيان شيء من مواقف سلف هذه الأمة في مجال العبادة.

وإنما أدخلت هذا المجال في المواقف الإسلامية لأنه نوع من جهاد النفس، فالذي يصبر على السهر الطويل والجوع والعطش يومًا بعد يوم لا شك أنه رجل عظيم، وأنه شديد القوة حينما ملك هوى نفسه، ثم إن الإنسان العابد يُعدُّ داعية إلى الله تعالى بالقدوة الحسنة، ومن هذا الباب تحوَّل كثير من الموالي في تلك العصور الذين كانوا مماليك إلى رجال صالحين أتقياء، وبرز منهم عدد كبير في العلم، وذلك لأنهم نشأوافي أحضان أسر مسلمة صالحة، وأصبحوا يشاهدون أرباب الأسر وهم يقومون في الليل ويصومون في النهار كثيرا، ويعاملونهم بالمواساة ومكارم الأخلاق، فاقتدوا بهم في هذه الصالحات.

ومما ينبغي أن نلاحظ أننا حينما نطلق لفظ العبادات على الشعائر التعبدية كالصلاة والصيام فإن هذا لا يعني أن غير هذه من الأعمال الصالحة لا يدخل فاعله تحت دائرة العبادة، فالعبادة تشمل كل أمر مشروع أراد به فاعله وجه الله تعالى، سواء فيما أمر الله به من الواجبات والمستحبات، أو في ترك ما نهى عنه من المحرمات والمكروهات، أو فيما أذن به من المباحات، فالمواقف الإسلامية التي مرت معنا في مجال الجهاد والعلم والأخلاق وغير ذلك داخلة في المفهوم الشامل للعبادة.

ومما يدل على المفهوم الشامل للعبادة قول الله تبارك وتعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾ [الذاريات: ٥٦]، فالعبادة هنا ليست الشعائر التعبدية وحدها، وإنما تشمل جميع تكاليف الدين، وكذلك قول الرسول ﷺ: «**يا أبا هريرة كن ورعا تكن أعبد الناس**»[(١)] وقوله ﷺ: «**ما من مسلم ينظر إلى محاسن امرأة أولَ مرة ثم يغض بصره إلا أحدث الله له عبادة يجد حلاوتها**»[(٢)] وقوله: «**قال الله عز وجل: أحب ما تعبدني به عبدي النصح لي**»[(٣)].

(١) أخرجه ابن ماجة وقال البوصيري: إسناده حسن- سنن ابن ماجة، رقم ٤٢١٧، كتاب الزهد.
(٢) أخرجه الإمام أحمد- مسند أحمد ٥/ ٢٦٤.
(٣) أخرجه الإمام أحمد- مسند أحمد ٥/ ٢٥٤.

وإنما أردت بالعبادات هنا الشعائر التعبدية، وسرتْ في تسميتها على ما سار عليه العلماء من إطلاق لفظ العبادات عليها بناءً على المصطلحات العلمية التي ميَّزوا بها بين العلوم الدينية.

نماذج من عبادة النبي ﷺ:

يجدر بنا أن نبدأ بذكر نماذج من عبادة النبي ﷺ على سبيل التمثيل، فمن ذلك ما أخرجه الإمام مسلم رحمه الله تعالى من حديث عروة بن الزبير رحمه الله تعالى عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا صلى قام حتى تفطر[1] رجلاه، قالت عائشة: يا رسول الله أتصنع هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «**يا عائشة أفلا أكون عبدا شكورا!**»[2].

فهذا الخبر يصور لنا شدة اجتهاد النبي ﷺ في العبادة، حيث كان يقوم من الليل يصلي ويطيل الصلاة حتى تشققت قدماه من طول القيام، وحينما تعجبت عائشة رضي الله عنها من هذا الاجتهاد في العبادة من رسول الله ﷺ، الذي بلغ إلى حد الإجهاد مع أن الله تعالى قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر أجابها بأن هناك دافعًا إلى العبادة أعظم من مغفرة الذنوب، ألا وهو شكر المنعم جلا وعلا على نعمه العظمى التي أجلُّها الهداية إلى الحق وهداية الأمة إليه.

إنه بقدر إيمان العبد بالله تعالى تكون عظمته جل وعلا في قلبه، ولا أحد أقوى إيمانا من رسول الله ﷺ، وبالتالي كان شكره لله تعالى بأمور منها هذه العبادةُ الطويلة الشاقة، وإن النبي ﷺ إذ يتقرب إلى الله تعالى بهذه العبادة شكرًا له فإنما يسن لأمته شكر الله تعالى على نعمه بالأعمال الصالحة.

ومما جاء في بيان طول صلاة النبي ﷺ كما أخرجه الإمامان البخاري ومسلم – واللفظ له– من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: صليت مع النبي ﷺ فأطال حتى هممت بأمر سوء، قيل: وما هممت به؟ قال: هممت أن أجلس وأدعه[3].

---

(١) أي تتشقق وأصله تتفطر فحذفت التاء.

(٢) صحيح مسلم، كتاب المنافقين، رقم ٢٨٢٠ ص ٢١٧٢ صحيح البخاري، التهجد، رقم ١١٣٠ (٣/ ١٤).

(٣) صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين، رقم ٧٧٣، ص ٥٣٧ صحيح البخاري، التهجد، رقم ١١٣٥ (٣/ ١٩)

فهذا الخبر يبين طول صلاة النبي ﷺ في الليل، فعبد الله بن مسعود كان في شبابه وكان قوي الإيمان، ومع ذلك همَّ بالقعود، وهذا دليل على أن قيام النبي ﷺ غير مقدور عليه لأفراد الناس إلا بمشقة بالغة.

ولهذا الطول العظيم في صلاته ﷺ كانت ركعاته لا تزيد عن إحدى أو ثلاث عشرة ركعة.

وهذه الصلاة الطويلة العظيمة إنما يغذِّيها ويسهلها ويشوق إليها الحب الكبير العميق لله تعالى، والخضوع الكامل لعظمته، وحضور القلب التام مع جلاله وكبريائه جل وعلا.

ولقد كان ﷺ قدوة عليا للصالحين من بعده، الذين ترسَّموا خطاه وساروا على منهاجه.

ولقد كان ﷺ لعظمة طموحه وشدة شوقه لطول مناجاة ربه، والتغني بتلاوة كتابه لاتحمله رجلاه أحيانًا من شدة التعب فيصلى بعض صلاة الليل قاعدا، كما أخرج الإمام الترمذي من حديث عبدالله بن شقيق قال: سألت عائشة رضي الله عنها عن صلاة النبي ﷺ، عن تطوعه فقالت: كان يصلي ليلا طويلا قائما، وليلا طويلا قاعدا، فإذا قرأ وهو قائم ركع وسجد وهو قائم، وإذا قرأ وهو جالس ركع وسجد وهو جالس[1].

ومما ورد في خشوع النبي ﷺ في الصلاة ما أخرجه ابن حبان في صحيحه عن عُبَيد بن عمير أنه قال لعائشة رضي الله عنها: أخبرينا بأعجب شيء رأيته من رسول الله ﷺ، قال: فسكتَتْ ثم قالت: لما كان ليلةً من الليالي قال: **يا عائشة ذريني أتعبد الليلة لربي**، قلت: والله إني أحب قربك وأحب ما يسرك، قالت: فقام فتطهر ثم قام يصلى، قالت: فلم يزل يبكي ﷺ حتى بلَّ لحيته، قالت: ثم بكى حتى بلَّ الأرض، فجاء بلال يُؤْذنه بالصلاة فلما رآه يبكي قال: يا رسول الله تبكي وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟! قال: **أفلا أكون عبدا شكورا؟! لقد نزلت عليَّ الليلة آية ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ**

(١) مختصر الشمائل المحمدية رقم ٢٣٦ ص ١٥٢، وصححه الشيخ الألباني.

السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤][(١)].

وهكذا رأينا مظهراً من مظاهر المثل الأعلى لرسوخ الإيمان وقوة حضور القلب مع الله تعالى تمثَّل في بكاء النبي ﷺ من خشيته جل وعلا عند مناجاته وتلاوة كتابه.

إنه حينما يتلو كتاب الله تعالى يتذكر هيمنة الملك الجبار جل شأنه، ويحلِّق فكره بين جنبات الأفق الأعلى، حيث الملائكة المقربون والحياة الآخرة بما فيها من نعيم وعذاب.

وإذا مرَّ بقصص الأمم الماضية انطلق فكره في تأمُّل مسيرة معركة الحق مع الباطل على أيدى من اصطفاهم الله تعالى لرسالته، وما يَعْقب ذلك من مصارع الأمم الضالة، ثم يُلقي نظرة على الحائرين التائهين من حوله وهم يكررون ملحمة الطغاة السابقين، وينتظرون مصيرهم ومصير تابعيهم المحزن إن لم يثوبوا إلى رشدهم.

وهكذا كانت الصلاة منتهى سعادة النبي ﷺ كما قال: «**وجُعِلَ قرة عيني في الصلاة**»[(٢)] وكما قال: «**أرحنا بالصلاة يا بلال**»[(٣)].

وكان ﷺ لا يترك صلاة الليل حتى في السفر وفي ليالي الجهاد، وكان إذا جَدَّ به السير في الليل صلى على راحلته قاعدا، وإذا نزل صلى في مكانه الذي ينزل فيه.

ومما جاء في ذلك ما أخرجه الإمام الترمذي من حديث زيد بن خالد الجهني قال: «لأَرْمُقَنَّ صلاة النبي ﷺ فتوسَّدت عتبته -أو فسطاطه- فصلى رسول الله ﷺ ركعتين خفيفتين، ثم صلى ركعتين طويلتين طويلتين طويلتين، ثم صلى

(١) الترغيب والترهيب ٣/ ٣٢.
(٢) مسند أحمد ٣/ ١٢٨.
(٣) مسند أحمد ٥/ ٣٦٤.

ركعتين وهمـا دون اللتين قبلهما، ثم صلـى ركعتين وهما دون اللتين قبـلهما، ثم أوتر فذلك ثلاث عشرة ركعة»[1].

من أخبار أبي بكر الصِّديق رضي الله عنه،:

من ذلك ما أخرجه الإمام البخارى من حديث عائشة رضي الله. عنها في خبرٍ عن أبيـها الصديـق أبي بكر رضي الله عنه يوم أن كان في مكة في بـداية الإسلام وقد جـاء فيه «ثم بدا لأبي بكر فابتنى مـسجدا بفناء داره وبرز، فكان يصلي فـيه ويقرأ القرآن فيـتقصَّف عليه نساء المشركين وأبناؤهم يعجـبون وينظرون إليه، وكان أبو بكر رجلا بكاءً لا يملك دمعه حين يقرأ القـرآن، فأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين»[2].

وهكذا كان أبو بكر رضي الله عنه يبكى عند تلاوة كتاب الله تعالى، وهذا يدل على رسوخ يقينه وقوة حضـور قلبه مع الله تعالى ومع معاني الآيات التي يتلوها، والبكاء مبـعثه قـوة التأثر إما بحـزن شديد أو فرح غـامر، والمؤمن الحق يظل بين الفرح بهداية الله تعـالى إلى الصراط المستقيم، والإشفـاق من الانحراف قليلا عن هذا الصراط، وإذا كـان صاحب إحساس حيّ وفكـر يَقِظ كأبى بكر رضي الله عنه فإن هذا القـرآن يذكِّره بعظمة الله تعالى وهيـمنته العظمى على خلقه، كـما يذكِّره بالحياة الآخرة ومـا فيها من حساب وعقاب أو ثواب، فـيظهر أثر ذلك في خشوع الجسم وانسكاب العبـرات، وهذا المظهر يؤثر كثيـرا على من شاهده، ولذلك فزع المشـركون من مظهـر أبي بكر المؤثر وخَـشُوا على نسـائهم وأبنائهم أن يتـأثروا به فيدخلوا في الإسلام.

من أخبار عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

ومما جاء في خـشوع أمير المؤمنين عـمر رضي الله عنه ما أخرجـه أبو نعيم من حديث عبدالله بن عـمر رضي الله عنهما قال: صليت خلف عمـر فسمعت حنينه من وراء ثلاثة صفوف[3].

(١) مختصر الشمائل المحمدية ص ١٤٨، وصححه الشيخ الألباني.
(٢) صحيح البخاري رقم ٢٢٩٧، ٣٩٠٥.
(٣) حلية الأولياء ١/ ٥٢.

وهذا دليل على خشوع قلبه واستحضاره الجيد لمعاني الآيات التي يتلوها، وهذا من أهم ما يُطلب من القراء وخاصة الأئمة منهم.

من أخبار عثمان بن عفان رضي الله عنه:

أخرج الحافظ أبو نعيم من خبر عثمان بن عبدالرحمن التيمي قال: قال أبي[1]: لأغلبن الليلة على المقام، قال: فلما صليت العتمة تخلصت إلى المقام حتى قمت فيه، قال: فبينا أنا قائم إذا رجل وضع يده بين كتفي، فإذا هو عثمان بن عفان، قال: فبدأ بأم القرآن فقرأ حتى ختم القرآن، فركع وسجد، ثم أخذ نعليه، فلا أدرى أصلى قبل ذلك شيئا أم لا.

وأخرج من خبر محمد بن سيرين قال: قالت امرأة عثمان بن عفان حين أطافوا به يريدون قتله: إن تقتلوه أو تتركوه فإنه كان يحيى الليل كله في ركعة يجمع فيها القرآن[2].

ففي هذين الخبرين شيء من اجتهاد أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه في العبادة، وكونه يقرأ القرآن كله في ركعة يدل على مقدرة فائقة على طول الوقوف في الصلاة، لأن ذلك يعني أنه قد وقف طوال الليل، مع أنه كان كبير السن، حيث جاء في رواية أخرجها ابن عساكر أن ذلك كان يومئذ وهو أمير[3] وهذا لا يتأتى لأحد إلا مع طول المران بكثرة الصلاة.

وأخرج الحافظ ابن عساكر من خبر الحسن بن أبي الحسن البصرى قال: قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان: لو أن قلوبنا طهرت ما شبعنا من كلام ربنا، وإني لأكره أن يأتى علي يوم لا أنظر في المصحف، قال: وما مات عثمان حتى خرق مصحفه من كثرة ما كان يديم النظر فيه[4].

فهذا تذكير من أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه بأهمية تلاوة القرآن في المصحف، فهو مع أنه يحفظ القرآن جيدًا فإنه لا يأتي يوم إلا وهو ينظر في

(١) أبوه هو عبدالرحمن بن عثمان بن عبيد الله التيمي وهو صحابي رضي الله عنه، وهو ابن أخي طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه.

(٢) حلية الأولياء ١/ ٥٦-٥٧.

(٣) تاريخ دمشق ٣٩/ ٢٣٢.

(٤) تاريخ دمشق ٣٩/ ٢٣٢.

المصحف، وقد بين أن سبب الإعراض عن تلاوة القرآن هو ما تشتمل عليه القلوب من الانصراف إلى ما هو أدنى، وهذا نوع من فساد القلوب.

وصف علي لعبادة الصحابة رضي الله عنهم:

أخرج الحافظ أبو نعيم من خبر أبي أراكه قال: صلى علي الغداة ثم لبث في مجلسه حتى ارتفعت الشمس قيد رمح كأن عليه كآبة، ثم قال: لقد رأيت أثرا من أصحاب رسول الله ﷺ فما أرى أحدا يشبههم، والله إن كانوا ليصبحون شعثا غبرا صفرا بين أعينهم مثل ركب المعزى[1]، قد باتوا يتلون كتاب الله تعالى، يراوحون بين أقدامهم وجباههم، إذا ذكر الله جل وعلا مادوا كما تميد الشجرة في يوم ريح، فانهملت أعينهم حتى تبل والله ثيابهم، والله لكأن القوم باتوا غافلين[2].

فهذا وصف دقيق لعبادة الصحابة رضي الله عنهم، وعلي رضي الله عنه من أول من يدخل في هذا الوصف، فقد وصفهم في إخباتهم وخشوعهم لله تعالى، وقد تذكرهم لما عاشر خلَفَهم فوجد الفارق الكبير بين المجتمعين.

ونجد عليًا رضي الله عنه وقد عاشر أخلاطا من التابعين في أيام خلافته يجد بعض الوحشة من ذلك المجتمع الذي غلب على بعض أفراده اختلاط النية فظهر عليهم إرادة الدنيا فيذكِّره ذلك بمجتمع الصحابة رضي الله عنهم فيصفهم هذا الوصف الدقيق، حيث أشار إلى العوامل المؤثرة في استقامة سلوكهم، وذلك بالمحافظة على قيام الليل وبذل الجهد في العبادة ومداومة ذكر الله تعالى مع التأثر بذلك، ويقارن بينهم وبين أناس عاصروه يقومون من نومهم مبتهجين باستقبال دنياهم، فيصفهم بالغفلة لأنهم شغلوا بالدنيا الفانية وغفلوا عن الإعداد للآخرة الباقية.

ولا شك أن التابعين يوجد فيهم من يتصف بصفات الصحابة المذكورة، بل إن عصرهم هو أفضل العصور بعد عصر الصحابة رضي الله عنهم ولكنه أراد نسبة الكل إلى الكل، فإذا نسب عموم التابعين إلى عموم الصحابة تبين الفرق، خاصة وأن الذين يبرزون عند الفتن هم أهل الدنيا، وقد كان عصر علي رضي الله عنه مليئًا بالفتن.

---

(١) بكسر الميم يعني الغنم.

(٢) حلية الأولياء ١/ ٧٦.

من أخبار أبي موسى الأشعري رضي الله عنه:

من أخبار اجتـهاده في العبادة ما رواه صالح بن مـوسى الطلحي عن أبيه قال: اجتهد الأشعـري قبل موته اجتهادا شديدا فقـيل له: لو أمَسْكتَ ورفقت بنفسك، قال: إن الخيل إذا أُرسلت فقاربت رأس مجراها أخرجت جميع ما عندها، والذي بقي من أجلي أقل من ذلك[1].

فهذا فقـه من أبي موسى عبدالله بن قيس الأشـعري رضي الله عنه حيث تنامَي شعوره بلزوم رفع رصيـده من الحسنات مع تقدم سِنِّه فاجتهـد في العبادة وضَعُفَ تعلقه بالدنيا، وهذا من علامات التوفيق.

ورَوَى ثابت البناني عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قَدِمنا البصرة مع أبي موسى فقام من الليل يتهجد، فلما أصبح قيل له: أصلح الله الأمير، لو رأيت إلى نسوتك وقـرابتك وهم يستـمعـون لقراءتك، فـقال: لو علمت لزيَّنت كـتاب الله بصوتي ولحبَّرته تحبيرا[2].

فهـذا اهتمام مـن أبي موسى الأشعـري رضي الله عنه بحسن تلاوة كـتاب الله تعالى، وهذا يدل على قوة تأثره به، وكلما كان القلب حاضرا أثناء التلاوة متذكِّرا معاني كتاب الله عز وجل يكون التأثر أقوى ويكون تفاعل الإنسان مع القرآن أعظم فيظهر الخشوع على تلاوته.

وعن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري عـن أبيه رضي الله عنه قال: غزونا في البحر فسـرنا حتى إذا كنا في لجَّة البحر سمعنا مناديا ينادي: يا أهل السـفينة قِفُوا أخبركم، فقمت، فنظرت يمينا وشمالا فلم أر شـيئا حتى نادى سبع مرار، فقلت: ألا ترى في أي مكان نحن، إنا لا نسـتطيع أن نقف، فـقال: ألا أخـبرك بقـضاء قضى الله على نفـسه: إنه من عَطَّش نفسـه لله في يوم حار كان حـقًا على الله أن يرويه يوم القيامة، قال: وكان أبو موسى لاتكاد تلقاه في يوم حارّ إلا صائما[3].

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢/ ٣٩٣.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢/ ٣٩٢.

(٣) سير أعلام النبلاء ٢/ ٣٩٢.

فهـذه بشرى عظيـمة للصائمين الـذين لا يمنعهم اشتـداد الحرّ من مـواصلة ما اعتادوا عليه من الصيام، وقد كـان أبو موسى الأشعريُّ من الذين يتقربون إلى الله تعالى في صيام الأيام الحارة، وهذا دليل على اهتمامه الكبير بعبادة الله تعالى.

من أخبار أبي هريرة رضي الله عنه :

من أمثلة اهتمامـه بعمران بيته بعبادة الله تعالى ما رُوي عـن أبي عثمان النهدي قال: تضـيَّفت أبا هريرة سبْـعًا، فكان هو وامرأته وخادمـه يعتقـبون الليل أثلاثا: يصلي هذا، ثم يوقظ هذا، ويصلي هذا ثم يوقظ هذا[1].

فهذا بيت حيّ عامر بالصلاة طوال الليل، فأين تجد الشياطين لها مكانا في هذا البيت؟!

إنها تربية عاليـة على التقوى والعمل الصالح من الحافظ الكبـير والعالم الرباني أبي هريرة رضي الله عنه، واسـتجابةٌ كـريمة من امرأة طاهرة زكـية وخـادم صالح مطيع.

إن أبناء الدنيا حينما يكلِّفون خدمهم بعمل كـبير فإنما يكلفونهم بأعمال الدنيا، ويرون أنه لا مصلحة لهم بتكليفهم بعمل الآخـرة، أما أبناء الآخرة فإنه من كمال سرورهم أن يروا خدمهم يجتهدون في أعـمال الآخرة، لأنهم يكسبون بذلك أجرا على حسن توجيههم.

من أخبار شداد بن أوس رضي الله عنه:

من ذلك مـا رُوِي عنه رضي الله عنه: أنه كـان إذا دخل الفـراش يتـقلب على فراشه، لا يأتيه النوم فيقول: اللهم إن النار أذهبَتْ مني النوم، فيقوم فيصلي حتى يصبح[2].

فهـذه يقظة حيـة وإحساس قـوي من شداد بن أوس رضي الله عنه، فـقد مَنَع تذكرُ النار عنه الرقاد.

ولك أن تقارن هذا بمن حمل همَّاً كبيرا من هموم الدنيـا فأقضَّ مضجعه وأسهر ليله، فإنَّ من عُمِرت قلوبهم بتذكر الآخرة أعظم من ذلك.

(١) سير أعلام النبلاء ٢/ ٦٠٩.
(٢) سير أعلام النبلاء ٢/ ٤٦٦.

من أخبار ابن عباس رضي الله عنهما:

من ذلك ما رواه ابن أبي مليكة قال: صحبت ابن عباس من مكة إلى المدينة، فكان يصلي ركعتين[1]، فإذا نزل قام شطر الليل ويرتِّل القرآن حرفا حرفا، ويكثر في ذلك من النشيج والنحيب[2].

وعن أبي رجاء قال: رأيت ابن عباس وأسفلُ مِنْ عينيه مثل الشِّراك من البكاء[3].

فهذا يبين لنا ما كان يتصف به حبر الأمة عبدالله بن عباس رضي الله عنهما من الخشوع وخضوع القلب مع الله تعالى واستحضار عظمته وجلاله وتذكُّر الحياة الآخرة، فكل ذلك يؤثر في النفس تأثيرا قويا يبعث صاحبها على البكاء المتواصل.

من أخبار أنس بن مالك رضي الله عنه:

من ذلك ما رواه ثابت البناني عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ما رأيت أحدًا أشبه بصلاة رسول الله ﷺ من ابن أم سُلَيم -يعني أنسا-[4].

وقال أنس بن سيرين: كان أنس بن مالك أحسن الناس صلاة في السفر والحضر[5].

وعن ثمامة قال: كان أنس يصلي حتى تفطَّر قدماه دمًا مما يطيل القيام رضي الله عنه[6].

فهذه الأخبار تبين لنا حُسْنَ صلاة أنس بن مالك رضي الله عنه من ناحية التمام والإتقان، وأن صلاته تشبه صلاة رسول الله ﷺ، ولا غرابة في ذلك فقد خدمه عشر سنين فهو حَرِيٌّ بأن يتأسَّى به، كما تُبيِّن كثرة صلاته في الليل وطولَها إلى الحد الذي أثر على قدميه، وهذا دليل على قوة إيمانه ورغبته الصادقة في بلوغ رضوان الله تعالى ورفعة الدرجات في الجنة.

ولقد كان من أثر هذا الإيمان القوي والعمل الصالح أنه كان مُجَاب الدعوة كما في خبرٍ رواه ثابت البناني قال: جاء قَيِّمُ أرض أنس فقال: عطشت أرَضُوك،

(١) يعني يقصر الصلاة الرباعية فيصليها ركعتين.
(٢) (٣) سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٥٢.
(٤) (٥) (٦) سير أعلام النبلاء ٣/ ٤٠٠.

فتردَّى أنس[1]، ثم خرج إلى الـبَرِّيَة، ثم صلى ودعا، فـثارت سـحابة وغـشيت أرضه ومطـرت، حتى ملأت صـهريجـه وذلك في الصيف، فـأرسل بعض أهله فقال: انظر أين بلغَتْ؟ فإذا هي لم تَعْدُ أرضه إلا يسيرا[2].

وهكذا يستجيب الله تعالى دعاء أوليائه في الضراء، تكريمًا لهم لأنهم كانوا معه في السراء بالشكر والدعاء والعبادة.

ومن أمثلة اهتمامه رضي الله عنه بالعـبادة ما روى الجريري قال: أحرم أنس بن مالك من ذات عرق، قال: فما سمعناه متكلمًا إلا بذكر الله تعالى حتى حلَّ، قال فقال له: يا ابن أخي هكذا الإحرام[3].

فهذا مثل من حضور القلب مع الله تعالى أثناء العبادة، وكون أنس بن مالك لم يُسمَع متكلِّما منذ أحرم حتى حلَّ إلا بذكر الله تعالى يُعدُّ من الصبر العظيم، وهذا الخبر يُعدُّ نموذجًا للحج الكامل، كما أنه يبين فهم الصحابة العالي لأحكام الشريعة ودقتهم في تطبيقها.

من أخبار أسامة بن زيد رضي الله عنهما:

من أخبـار اجتهاده رضي الله عنه في العـبادة ما روي عن مولى أسـامة بن زيد رضي الله عنهما قال: كان أسامة يركب إلى مالٍ له بوادي القرى[4] فيصوم الإثنين والخميـس في الطريق، فقلت له: تصوم الإثنين والخمـيس في السفر وقـد كبرت وضعفت -أو رققت- فقال: إن رسول الله ﷺ كان يصوم الإثنين والخميس وقال: «**إن أعمال الناس تعرض يوم الإثنين والخميس**»[5].

فـفي هذا الخبـر بيان اهتـمام أسـامة البـالغ باتبـاع السنة حيث يصـوم الإثنين والخمـيس مع كِبَر سنِّه ومع أن الله تعالى أبـاح الفطر في السفر لمن صام رمـضان فكيف بصـيـام النفل، وهذا دليـل على حـرص الصـحابة رضـي الله عنهم على الأعمال الصالحة وإن تعرضوا لمشقة في سبيل ذلك.

---

(١) أي لبس رداءه.
(٢) سير أعلام النبلاء ٣/ ٤٠٠.
(٣) طبقات ابن سعد ٧/ ٢٢.
(٤) المقصود بالمال البستان.
(٥) سير أعلام النبلاء ٢/ ٥٠٦.

من أخبار ابن عمر رضي الله عنهما:

من أخباره في الخشوع وحضور القلب مع الله تعالى أثناء أداء العبادة ما رُوِي عن عروة بن الزبير قال: خطبتُ إلى ابن عمر ابنته ونحن في الطواف، فسكت ولم يجبني بكلمة فقلت: لو رضي لأجابني والله لا أراجعه بكلمة، فقدِّر له أنه صدر إلى المدينة قبلي، ثم قدمت فدخلت مسجد الرسول ﷺ، فسلمت عليه وأدَّيت من حقه ما هو أهله وأتيته فرحب بي وقال: متى قدمت؟ قلت هذا حين قدومي، فقال: كنتَ ذكرت لي سودة بنت عبدالله ونحن في الطواف نتخايل الله بين أعيننا، وكنتَ قادرًا أن تلقاني في غير ذلك الموطن، فقلت: كان أمرًا قدِّر، فقال: ما رأيك اليوم؟ قلت: أحرص ما كنت قط، فدعا ابنيه سالما وعبدالله فزوجني[1].

فهذا تذكير بليغ من عبد الله بن عمر رضي الله عنهما بما يجب أن يكون عليه المسلم في أثناء أدائه العبادة، فالطواف صلاة إلا أن الله تعالى أباح فيه الكلام، ولكن إباحة الكلام لا تعني أن ينصرف الطائف عن موضوع الطواف ويتحدث في أمور الدنيا، بل إنما يباح الكلام للحاجة الطارئة.

وفي هذا الخبر بيان ما كان يتصف به عبدالله بن عمر رضي الله عنهما من الخشوع في العبادة وحضور القلب مع الله تعالى.

وكان عبدالله بن عمر من المكثرين من صلاة الليل كما رَوَى مولاه نافع عنه أنه كان يجي الليل صلاة، ثم يقول: يا نافع أسْحَرْنا؟ فأقول: لا، فيعاود الصلاة إلى أن أقول: نعم، فيقعد ويستغفر ويدعو حتى يصبح[2].

والمقصود بقوله «كان يحيي الله صلاةً» أنه كان يقوم أكثر الليل، لأن النبي ﷺ نهى عن قيام الليل كله، كما في خبر الثلاثة الذين قال أحدهم، أما أنا فأنا أصلي الليل أبدا وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا، فجاء رسول الله ﷺ فقال: «**أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني**»[3].

(١) حلية الأولياء ١/ ٣٠٩.
(٢) سير أعلام النبلاء ٣/ ٢٣٥.
(٣) صحيح البخاري، كتاب النكاح رقم ٥٠٦٣. صحيح مسلم، كتاب النكاح رقم ١٤٠١.

ويستثنى من ذلك العشر الأواخر من رمضان لأن النبي ﷺ أحياها بالصلاة كلها.

واهتمام ابن عمر بالاستغفار فى السحر يُعدُّ تطبيقا لقول الله تعالى ﴿**وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ**﴾ [الذاريات: ١٨].

ومن ذلك ما رواه نافع مولى عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: أن ابن عمر كان إذا فاتته العشاء في جماعة أحْيَى ليلته[١].

فهو بهذا يرى أنه لا يكفِّر هذا التقصير إلا إحياء الليل كله بالصلاة، أخذًا بقول الله تعالى ﴿**إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ**﴾ [هود: ١١٤].

من أخبار الحسن بن علي رضي الله عنهما:

من ذلك ما رواه عبدالله بن عبيد بن عمير قال قال ابن عباس: ما ندمت على شيء فاتني في شبابي إلا أني لم أحج ماشيا، ولقد حج الحسن بن علي خمسًا وعشرين حَجَّة ماشيًا وإن النجائب لَتُقَادُ معه، ولقد قاسم الله مالَه ثلاث مرات، حتى إنه يعطى الخف ويُمسك النعل[٢].

فهذا مثل من لزوم مالا يلزم شرعا يقوم به الحسن بن علي رضي الله عنهما، حيث لازم الحج ماشيًا خمسًا وعشرين حَجَّة، وهذا يدل على فضيلة المشي في الحج كما يؤيد ذلك ندم ابن عباس رضي الله عنهما على عدم قيامه بذلك أيام شبابه، ومداومة الحسن على ذلك مع ما فيه من مشقة تدل على قوة إيمانه ورغبته الصادقة في المزيد من الأعمال الصالحة، والمقصود بالمشي في الحج من مكة إلى عرفة ثم من عرفة إلى مكة، وليس المقصود أن يحج الحاج ماشيا من بلده.

من أخبار ابن الزبير رضي الله عنهما:

من أخبار عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما في الخشوع في الصلاة ما روي عن ثابت البناني قال: كنت أمُرُّ بابن الزبير وهو خلف المقام يصلي كأنه خشبة منصوبة لا تتحرك[٣].

---

(١) سير أعلام النبلاء ٣/ ٢٣٥.
(٢) سير أعلام النبلاء ٣/ ٢٦٠.
(٣) سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٦٩.

وقال عمرو بن دينار: كان ابن الـزبير يصلي في الحِجْر والمنجنيق يصب توبه[1] فما يلتفت -يعني لَّما حاصروه-[2].

وعن عمـر بن قيس عن أمه أنهـا دخلت على ابن الزبير بيتـه فإذا هو يصلي، فـسقطت حـية على ابنه هاشـم فصـاحوا: الحـية الحـية، ثم رمـوها، فمـا قطع صلاته[3].

فهـذه الأخبـار تدل على اهتمام عـبدالله بن الزبيـر رضي الله عنهمـا بالصلاة واستغراقه التام في صلاته من غيـر التفات إلى ما حوله ولا تفكير في أمور دنياه، وقد كان مشهوراً بالعبادة إلى جانب شهرته بالشجاعة والفصاحة.

ومن أخبار اهتمامه بالعبادة ما رُوي عن مجاهد أنه قال: ما كان بابٌ من العبادة يعـجـز عنه الناس إلا تكلَّـفه ابـن الزبيـر، ولقـد جـاء سيـل طبق البـيت فطاف سباحة[4].

وهذا من حرصه على مداومة القيام بالعمل الصالح حتى لو كان في ذلك مشقة عليه.

ولقد كان ابن الزبير بسبب هذا الاجتهاد في العـبادة موفقًا في دنياه، يقول عمر ابن قيس: كان لابن الزبيـر مئة غلام يكلم كل غلام منـهم بلغة أخرى، فكنت إذا نظرت إليـه في أمر آخـرته قلت: هذا رجل لم يُرِد الدنيا طرفـة عين، وإذا نظرت إليه في أمر دنياه قلت: هذا رجل لم يرد الله طرفة عين [5].

هذا فـضل الله يؤتيه من يشـاء، ولا غرابة في ذلك فـإن من أهم آثار العـبادة بالصلاة والصيام أنها تمنح فاعلها قوة كبرى على أمور الدنيا..

إن المسلم بقدر ما يتـضرع إلى ربه بالعبادة في الليل يمنحـه القوة في النهار على تحمل أعباء الحياة ومصاعبها.

---

(١) التوب حجر المنجنيق.
(٢) سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٦٩.
(٣) سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٧٠.
(٤) سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٧٠.
(٥) سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٦٨.

من أخبار عبد الله بن عمرو رضي الله عنه:

من الذين اشتهروا بالإكثار من العبادة من الصحابة عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، ومن أخباره في ذلك ما أخرجه الإمام البخاري من حديث عبدالله بن عمرو أنّ النبي ﷺ قال له: **كيف تصوم؟** قال قلت: كل يوم، قال: وكيف تختم؟ قلت: كل ليلة، فقال: **صم كل شهر ثلاثة أيام واقرأ القرآن في كل شهر**، قال قلت: فإني أطيق أكثر من ذلك، قال: **صم ثلاثة أيام في الجمعة** قال قلت: أطيق أكثر من ذلك، قال: **أفطر يومين وصم يومًا**، قال قلت: أطيق أكثر من ذلك، قال: **صم أفضل الصوم صوم داود عليه السلام، صيامَ يوم وإفطار يوم، واقرأ في كل سبع ليال مرة**[1][2].

فهذه همة عالية وطموح كبير من عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما لكنه زاد عن حدود الاعتدال الذي ينتج عنه الإخلال بواجبات الإسلام الأخرى فأعاده النبي ﷺ إلى حدود الاعتدال في الصلاة والصيام.

من أخبار عبد الله بن مسعود رضي الله عنه:

من أخباره رضي الله عنه في الخشوع في الصلاة والبكاء من خشية الله تعالى ما ذكره الذهبي من حديث عبيد الله بن عبد الله قال: كان عبد الله [يعني ابن مسعود رضي الله عنه] إذا هدأت العيون قام فسمعتُ له دويّا كدوي النحل.

وكذلك ما ذكره من حديث زيد بن وهب قال: رأيت بعينَيْ عبد الله أثرين أسودين من البكاء[3].

وهذا يدل على كثرة بكاء ابن مسعود رضي الله عنه من خشية الله تعالى.

من أخبار أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه:

وكان بعضهم يوقظ أهله لصلاة الليل كما ذكر الإمام الذهبي عن أبي برزة الأسلمي نَضْلَة بن عبيد رضي الله عنه أنه كان يقوم إلى صلاة الليل فيتوضأ ويوقظ أهله، وكان يقرأ بالستين إلى المائة[4].

يعني أنه يقرأ في الركعة ما بين ستين آية إلى مائة.

(١) يعني أن يختم القرآن كل أسبوع.
(٢) صحيح البخاري، كتاب الصوم، رقم ١٩٧٥.
(٣) سير أعلام النبلاء ١/ ٤٩٤ -٤٩٥.
(٤) سير أعلام النبلاء ٣/ ٤٢.

من أخبار مسروق بن الأجدع رحمه الله:

من أخباره في طول القيام ما روُي عن أنس بن سيرين عن امرأة مسروق قالت: كان مسروقُ يصلي حتى تورم قدماه، فربما جلست أبكي مما أراه يصنع بنفسه.

ومسروق هو ابن الأجدع الوادعي الهمداني من أكابر علماء التابعين، وكما كان مجتهدًا في الصلاة فإنه كان كذلك في الصيام، كما رُوي عن الشعبي قال: غُشِيَ على مسروق في يوم صائف، وكانت عائشة رضي الله عنها قد تَبنَّته، فسمَّى بنته عائشة، وكان لا يعصى ابنته شيئًا، قال: فنزلَتْ إليه فقالت: يا أبتاه أفطر واشرب، قال: ما أردتِ بي يا بنية؟ قالت: الرِّفق، قال: يا بنية إنما طلبت الرفق لنفسي في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة[1].

وهكذا كان هذا العالم الرباني قد جمع بين العلم والعبادة بالصلاة والصيام، إضافة إلى الجهاد في سبيل الله تعالى، فقدل شلَّت يده يوم القادسية وأُصيب في رأسه، ولا غرابة في ذلك فقد تربَّى تحت رعاية أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وهكذا كان الصحابة والتابعون يجمعون في باب النوافل بين مختلف الأعمال الصالحة ويؤدونها بتكامل واتِّزان.

من أخبار الأحنف بن قيس رحمه الله:

ومن أخبار التابعين في هذا المجال ما ذكره الإمام الذهبي عن الأحنف بن قيس التميمي رحمه الله تعالى أنه قيل له: إنك كبير والصوم يضعفك، قال: إني أعده لسفر طويل، وقيل: كانت عامة صلاة الأحنف بالليل[2]، وكان يضع إصبعه على المصباح ثم يقول: حَس [3]، ويقول: ما حملك يا أحنف على أن صنعت كذا يوم كذا؟ [4].

فهذا الخبر يبين لنا شدة إحساس الأحنف بن قيس بالحياة الآخرة وما فيها من نعيم وأهوال وعذاب، ولقد كان مشهورًا بالشجاعة وحسن الإدارة في السلم والحرب، والتخلق بمكارم الأخلاق، وقد أضاف إلى هذه الفضائل اهتمامه بصلاة

(١) سير أعلام النبلاء ٤/٦٧- ٦٨.
(٢) يعني النوافل المطلقة التي لم تحدد بزمن
(٣) حَس كلمة تقال عند الألم.
(٤) سير أعلام النبلاء ٤/ ٩١ -٩٢.

الليل وصيام النفل، وهذا دليل على قوة إيمانه وحضور قلبه مع الله تعالى والحياة الآخرة.

من أخبار همام النخعي رحمه الله:

من ذلك ما رُوي عن الفقيه همام بن الحارث النخعي أنه كان يدعو: اللهم اشفني من النوم اليسير، وارزقني سهرًا في طاعتك، فكان لا ينام إلا هنيهة وهو قاعد[1].

وهكذا استجاب الله تعالى دعاء هذا الولي الصادق الذي غلب عليه الشوق إلى مناجاة الله تعالى والتضرع إليه أطول وقت ممكن، وفضَّل العمل للآخرة على راحة النفس، فأصبح يكفيه اليسير من النوم، واغتنم هذه الفرصة لمضاعفة العمل الصالح.

من أخبار سعيد بن المسيب رحمه الله:

من ذلك ما أخرجه محمد بن سعد من خبر عمران بن عبد الله قال عن سعيد ابن المسيب: ما فاتته صلاة الجماعة منذ أربعين سنة، ولا نظر في أقفائهم[2].

وهذا مثال على حرصه على اكتساب الحسنات ورفعة الدرجات، حيث إن صلاة الجماعة تعادل سبعًا وعشرين صلاة من صلاة الفرد.

وقوله «ولا نظر في أقفائهم» يعني أنه دائمًا في الصف الأول، فليس أمامه مصلون.

من أخبار زبيد بن الحارث رحمه الله:

من الذين كانوا يحيون بيوتهم بالتهجد طوال الليل الحافظ زُبَيْد بن الحارث اليامي الكوفي، قال ابن شبرمة: كان زبيد يجزِّئ الليل ثلاثة أجزاء: جزءًا عليه وجزءًا على ابنه وجزءًا على ابنه الآخر، فكان هو يصلي ثم يقول لأحدهما: قم، فإن تكاسل صلى جزءه، ثم يقول للآخر: قم، فإن تكاسل صلى جزءه فيصلي الليل كله[3].

---

(١) سير أعلام النبلاء ٤/ ٢٨٤.

(٢) طبقات ابن سعد ٥/ ١٣١

(٣) سير أعلام النبلاء ٥/ ٢٩٦.

فهذا عمل جليل من زبيد بن الحارث في تـنوير بيته بالإيمان، وإحيائه بالصلاة، وله أسوة في ذلك بأبي هريرة رضي عنه الذي كان يقـسم الليل أثلاثًا، يقوم ثلثه، وتقوم زوجته ثلثه، ويقوم خادمه ثلثه كما تقدم.

من أخبار أيوب السختياني رحمه الله:

ومن الذين كانوا يحيون الليل بالتهجد الحافظ أبو بكر أيوب بن أبي تميمة كيسان السختياني: يقول سلام بن مسكين: كان أيوب السختياني يقوم الليل كله، فيخفي ذلك، فإذا كان عند الصبح رفع صوته كأنه قام تلك الساعة[1].

وكون هذا العالم الرباني وأمثاله يقومون الليل كله مع أن ذلك خلاف السنة كما تقـدم، مـحـمـول على أنهم واثقـون من أن ذلك لا يمنعـهم مـن أداء التكاليف الشرعية، وأنهم مع ذلك قد استطاعوا أن يعملوا توازنًا بين مطالب الشريعة.

من أخبار سليمان التيمي رحمه الله:

وممن اجتهد كثـيرًا في الصلاة والصيام أبو المعتمر سليـمان بن طرخان التيمي، وفي ذلك يقول محمد بن عبد الأعلى: قـال لي معتمر بن سليمان: لولا أنك من أهلي ما حـدثتك، مكث أبي أربعين سنة يصوم يومًا ويفطر يومًـا، ويصلي صلاة الفجر بوضُوء العشاء الآخرة.

ويقول معاذ بن معاذ: ما كنت أشبِّه عـبادة سليمان التيمي إلا بعبادة الشاب أول ما يدخل في تلك الشِّدة والحِدَّة [2].

فهذا الذي طبقه العالم سليمان التيمي يُعـدُّ مثالاً لبذل الجهد الكبير في العبادة، والصبر على ذلك هذه المدة الطويلة من غير كسل ولا وهن، وهذا العمل لا يقوى عليه إلا من زهد في الدنيا وعظم نظره في الآخرة.

ومـا جاء في الخـبر الثـاني من وصف عـبادته بعـبـادة الشاب في هدايتـه إلى الاستقامة يدل على صلاح المجتمع، حيث يتوجَّه الشباب إلى بذل الجهد الكبير في العبادة.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٦/ ١٧.

(٢) سير أعلام النبلاء ٦/ ١٩٧ -١٩٨.

من أخبار أبي العالية وأصحابه رحمهم الله [1]:

من أخبارهم في إحياء الليل بالعبادة ما أخرجه ابن سعد من حديث أبي خلْدة خالد بن دينار قال: سمعت أبا العالية يقول: كنا عبيدًا مملوكين، منَّا من يؤدِّي الضرائب ومنَّا من يخدم أهله، فكنا نختم كل ليلة مرة، فشقَّ ذلك علينا فجعلنا نختم كل ليلتين مرة، فشقَّ ذلك علينا فجعلنا نختم كل ثلاث ليال مرة، حتى شكا بعضنا إلى بعض، فلقينا أصحاب رسول الله ﷺ فعلَّمونا أن نختم كل جمعة - أو قال: كل سبع- فصلَّينا ونمنا ولم يشقَّ علينا[2].

وهذا طموح كبير وهمة عالية من هؤلاء الشباب مع أنهم آنذاك ما زالوا مملوكين، وهذا دليل واضح على صلاح مجتمع التابعين، وأن الذين كانوا يحيون جزءًا من الليل بالصلاة عدد كبير حيث أصبحت صلاة الليل ظاهرة عامة جعلَت المملوكين يتأسَّون بسادتهم ومَنْ حولهم من الصالحين.

من أخبار الربيع بن خُثَيم رحمه الله:

ومن الذين كانوا يحيون الليل العالم الرباني أبو يزيد الربيع بن خُثَيم الثوري، وكان من تلاميذ أبي عبد الرحمن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وكان يحبه ويُكبره، حتى إنه قال له يومًا: يا أبا يزيد لو رآك رسول الله ﷺ لأحبَّك، وما رأيتك إلا ذكرتُ المخبتين[3].

وكان الربيع من العبَّاد المكثرين من العبادة، وكان لا ينام في الليل، حتى أشفقت عليه ابنته فكانت تقول له: يا أبتاه ألا تنام؟! فيقول كيف ينام من يخاف البيَات[4].

وهكذا كان ذكر الموت ملازمًا له، وكان ذلك يمنعه من الراحة ويحول بينه وبين النوم، فلقد شبَّه نفسه في ترقبه الموت بمن يترقب هجوم العدو عليه في الليل.

من أخبار الإمام أبي حنيفة رحمه الله:

ومن الذين اشتهروا بإحياء الليل بالتهجد الإمام الفقيه أبو حنيفة النعمان بن ثابت صاحب المذهب المشهور في الفقه.

---

(١) أبو العالية هو رُفَيع بن مهران الرياحي.

(٢) طبقات ابن سعد ٧/ ١١٣.

(٣) ، (٤) سير أعلام النبلاء ٤/ ٢٥٨، ٢٦٠.

رُوي عن القاضي أبي يوسف قال: بينما أنا أمشي مع أبي حنيفة إذ سمعت رجلاً يقول لآخر: هذا أبو حنيفة لا ينام الليل، فقال أبو حنيفة والله لا يُتَحدَّث عني بما لم أفعل، فكان يحيي الليل صلاة وتضرعًا ودعاء[1].

فها أمر عجيب من هذا الإمام الذي بذل نفسه لتعليم الناس وفتواهم، ومع ذلك يقوم بهذا الجهد الكبير في إحياء الليل بالعبادة، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء، ولعل علمه العميق ومقدرته على تلبية طلبات طلاب العلم والعامة كان من بركة قيامه في الليل.

من أخبار الحسن بن صالح وأخيه علي رحمهما الله:

من أخبار العالم الحسن بن صالح بن حيّ الهمداني وأخيه ما ذكره الحافظ وكيع الرؤاسي قال: كان الحسن بن صالح وأخوه وأمهما قد جزَّؤوا الليل ثلاثة أجزاء، فكل واحد يقوم ثلثا، فماتت أمهما فاقتسما الليل، ثم مات علي فقام الحسن الليل كله[2].

وأخوه هو الإمام علي بن صالح، وهكذا كانت الأسرة المباركة تحيي الليل مجزَّءًا بين أفرادها، إلى أن بقي الإمام الحسن بن صالح وحده فأحيا الليل كله، وفي هذا إشارة إلى أنهم كانوا يستحبُّون أن تُحْيَى بيوتهم بالعبادة.

من أخبار داود الطائي رحمه الله:

ومن هؤلاء العالم الفقيه داود بن نصير الطائي، قال إسحاق السلولي: حدثتني أم سعيد بن علقمة - وكان سعيد من نُسَّاك النَّخَع وكانت أمه طائية- قالت: كان بيننا وبين داود الطائي جدار قصير، فكنت أسمع حنينه عامة الليل لا يهدأ، قالت: ولربما سمعته في جوف الليل يقول: اللهم همُّك عطَّل عليّ الهموم، وحالَ بيني وبين السُّهاد، وشوقي إلى النظر إليك منع مني اللذات والشهوات، فأنا في سجنك أيها الكريم مطلوب.

قالت: ولربَّما ترنَّم في السَّحَر بشيء من القرآن فأرى أن جميع نعيم الدنيا جُمِع في ترنُّمه تلك الساعة.

(١) سير أعلام النبلاء ٦/ ٣٩٩.

(٢) سير أعلام النبلاء ٧/ ٣٦٩.

قالت: وكان يكون في الدار وحده، وكان لا يصبح- تعني لا يسرج-[1].

وهكذا كان هذا العابد الرباني وأمثاله مصابيح هداية وقدوةً حسنة لمن كانوا حولهم، وقد وصفت هذه المرأة ترنُّم داود بالقرآن بوصف بليغ يدل على صلاحها وتأثرها بما سمعَتْ، حيث عَدَّت سماعها لتلاوته أفضل من جميع نعيم الدنيا.

من أخبار محمد بن واسع رحمه الله:

ومن العبَّاد الإمام الرباني محمد بن واسع الأزدي أحد الأعلام في العلم والعبادة والجهاد وسائر الأعمال الصالحة، يقول عنه أبو الطيب موسي بن يسار: صحبت محمد بن واسع إلى مكة فكان يصلي الليل أجمعه، يصلي في المحمل جالسًا ويومئ[2].

وهكذا كانوا يستمرون على ما ألفوه من العبادة حتى في السفر.

من أخبار عبيد الله القواريري رحمه الله:

ومن هؤلاء العبَّاد العالم عبيد الله بن عمر القواريري، رُوي عنه أنه قال: لم تكن تكاد تفوتني صلاة العتمة في جماعة [3]. فنزل بي ضيف فشغلت به فخرجت أطلب الصلاة في قبائل البصرة، فإذا الناس قد صلوا، فقلت في نفسي: يُروَى عن النبي ﷺ أنه قال: «**صلاة الجميع تفضل على صلاة الفذ إحدى وعشرين درجة**» ورُوِي «**خمسًا وعشرين**» وروي «**سبعًا وعشرين**»[4] فانقلبت إلى منزلي فصليت العتمة سبعًا وعشرين مرة، ثم رقدت فرأيتني مع قوم راكبي أفراس وأنا راكب، ونحن نتجارى وأفراسهم تسبق فرسي فجعلت أضربه لألحقهم، فالتفت إليَّ آخرهم فقال: لا تُجْهِدْ فرسك فلست بلاحقِنا قال: فقلت: ولِمَ؟ قال: لأنا صلينا العَتَمة في جماعة[5].

(١) أي لا يوقد السراج، حلية الأولياء ٧/ ٣٥٦ -٣٥٧.

(٢) سير أعلام النبلاء ٦/ ١٢٠. (٣) أي صلاة العشاء.

(٤) في رواية البخاري ومسلم «صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة»- صحيح البخاري، رقم ٦٤٥، الأذان (٢/ ١٣١)، صحيح مسلم، رقم ٢٤٩، المساجد (ص٤٥٠).

(٥) سير أعلام النبلاء ١١/ ٤٤٤.

فهذا اجتهاد بالغ من هذا العالم الرباني في تدارك صلاة العشاء التي فاتته، فقد دار على مساجد البصرة ليدركها فلم يحصل له ذلك، ثم اجتهد فصلى سبعًا وعشرين مرة ليحصل على فضيلة الجماعة، فما أعظم هذا الحرص على درجات الثواب من هذا العالم! وكم قضى من الوقت والجهد في هذه الصلوات من أجل تدارك ما فاته من مضاعفة الأجر بصلاة الجماعة!

ولكنه مع ذلك رأى تلك الرؤيا العجيبة المباركة التي تدل على أن المسلم وإن كرَّر الصلاة سبعًا وعشرين مرة في بيته فلن يلحق بالثواب من حضروا صلاة الجماعة، وهذا دليل على أهمية الصلاة مع الجماعة في المساجد وعِظَم منزلتها في الدين.

فكم يخسر الذين يصلون الصلوات الخمس أو بعضها في بيوتهم! وكم أضاعوا من درجات من الثواب عالية تُعَدُّ بالألوف والملايين!

إن في هذا الخبر لتذكرة للغافلين واستنهاضًا لِهِمَم المتكاسلين، وقُرَّة عين للفائزين السابقين.

من أخبار عبد الله بن عون رحمه الله:

ومن أخبار الاجتهاد في العبادة ما ذُكِر عن الإمام أبي عون عبد الله بن عون البصري، قال بكار بن محمد السيِّريني: كان ابن عون يصوم يومًا ويفطر يومًا، وقال: وكان له سُبُع يقرؤه كل ليلة، فإذا لم يقرأه أتمَّهُ بالنهار، وكان يغزو على ناقته إلى الشام فإذا صار إلى الشام ركب الخيل، وقد بارز روميًا فقتل الرومي[1].

فهذا العالم الرباني كان يسير في صلاة الليل وصيام النفل على توجيه النبي ﷺ لعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، ومع بذل هذا الجهد فإن كان متفوقًا في الجهاد، حيث كان يخرج للغزو ويشارك في أشد فنون القتال وهو المبارزة، وهذا هو المنهج الذي كان يسير عليه الصحابة رضي الله عنهم.

من أخبار الإمام الأوزاعي رحمه الله:

وممن اشتهر بكثرة العبادة الإمام أبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي عالم أهل الشام، وفي عبادته يقول الوليد بن مَزْيَد: كان الأوزاعي من العبادة على شيء ما سمعنا بأحد قَوِيَ عليه، ما أتي عليه زوالٌ قطّ إلا وهو قائم يصلي.

(١) سير أعلام النبلاء ٦/ ٣٦٦، ٣٧٠

ويقول ضَـمُرة بن ربيعة: حـججنا مع الأوزاعي سنة خـمسين ومائة فمـا رأيته مضطجعًـا في المحمل في ليل ولا نهار قط، كان يصلي فـإذا غلبه النوم استَنَد إلى القَتَبْ.

ويقول أبو مسهر عن الأوزاعي: كان يحيي الليل صلاة وقرآنا وبكاء، وأخبرني بعض إخواني من أهل بيـروت أن أمه كانت تدخل منزل الأوزاعي وتتفـقَّد موضع مصلاه فتجده رطبًا من دموعه في الليل[1].

وإنا لنجد من آثار هذه العبادة ما اشتهر عنه من القوة في أمر الله تعالى والشدة في الإنكار على المخالفين، حيث كان رفيع القدر عند الناس مرهوب الجانب.

من أخبار الإمام سفيان الثوري رحمه الله:

ومن الأئمة الذين اشـتهروا بالعبـادة أبو عبد الله سفـيان بن سعيـد بن مسروق الثوري، الإمـام الكبيـر في العلم والزهد والورع والعـبادة، الذي حـاز كثـيرًا من صفـات الكمال، ومن أخـباره في العبـادة ما ذكـره على بن الفضـيل قال: رأيت الثوري ساجدًا فطفت سبعة أسابيع قبل أن يرفع رأسه[2].

أي أنه طاف سبع مرات كاملة والثوري لـم يرفع رأسه من السجود، وهذا مثل عالٍ في الخـشوع المبنـي على حضـور القلب مع الله تعالى وجـمع الفكر كله في هدف الصلاة.

وقال ابن مهدي: كنت لا أستطيع سماع قراءة سفيان من كثرة بكائه[3].

وبهذا الإمام وأمـثاله كان صلاح كـثير من أبناء المجتمـع الإسلامي، لأن رؤيته واللقاء به وسـماع كـلامه وتلاوته.. كل ذلك يذكِّر بالله تـعالى والحيـاة الآخرة، وينفِّر من اللهو بالدنيا والاغترار بها.

من أخبار سعيد التنوخي رحمه الله:

ومن العلمـاء الذين اشتـهروا بالخـشوع سـعيـد بن عبـد العزيز بن أبي يحـيى التنوخي، يقول أبو عـبد الرحمن الأسدي: قلت لسـعيد بن عبد الـعزيز: ما هذا

---

(١) سير أعلام النبلاء ٧/ ١١٩ - ١٢٠.

(٢)، (٣) سير أعلام النبلاء ٧/ ٢٧٧.

البكاء الذي يعرض لك في الصلاة؟ فقال: يا ابن أخي وما سؤالك عن ذلك؟ قلت: لعل الله أن ينفعني به، فقال: ما قمت إلى صلاة إلا مُثِّلَتْ لي جهنم[1].

وهذا الخبر يكشف لنا سرًا من أسرار خشوع أولئك الصالحين واستغراقهم في الصلاة الطويلة وعدم شعور بعضهم بما يكون حولهم، وكثرة بكائهم.

ويقول محمد بن المبارك عن سعيد بن عبد العزيز: كان سعيد إذا فاتته صلاة الجماعة بكى[2].

وهذا دليل على شدة خشيته من الله تعالى.

من أخبار عبد الله بن إدريس رحمه الله:

ومن هؤلاء العلماء عبد الله بن إدريس الأودي الحافظ المقرئ، قال حسين العنقزي: لما نزل بابن إدريس الموت بكَتْ بنته، فقال: لا تبكي بابنية فقد ختمْتُ القرآن في هذا البيت أربعة آلاف ختمة[3].

وهذا شاهد على كثرة تلاوته وعبادته، وكونه رد على ابنته لما بكت بهذا الرد دليل على فقهه لأن الذي يُبكَى عليه هو الذي فرط في أمره، وقَدِم على ربه بمعصية أو ترك واجب، أما الذي قد عمر بيته بالصلاة والتلاوة ولم يرتكب مأثما فلا أسف على فقده لأنها آجال مكتوبة وفراق محدود، ثم يلتقي المؤمنون في دار خالدة لا يفترقون فيها أبدا.

من أخبار وكيع بن الجراح رحمه الله:

ومنهم العالم الحافظ أبو سفيان وكيع بن الجراح الرؤاسي، قال يحيى بن أيوب: حدثني بعض أصحاب وكيع الذين كانوا يلزمونه أن وكيعًا كان لا ينام حتى يقرأ جزءه من كل ليلة ثلث القرآن، ثم يقوم في آخر الليل فيقرأ المفصل، ثم يجلس فيأخذ في الاستغفار حتى يطلع الفجر.

وقال أحمد بن سنان: رأيت وكيعًا إذا قام في الصلاة لا يتحرك منه شيء، لا يزول ولا يميل على رجل دون أخرى[4].

---

(١)، (٢) سير أعلام النبلاء ٨/ ٣١.

(٢) تاريخ بغداد ٩/ ٤٢١.

(٤) سير أعلام النبلاء ٩/ ١٤٨، ١٥٧.

فهذا دليل على كثـرة صلاته وعلى خشوعه، ومع هذا السهـر في الليل للعبادة فإنه يجلس في النهار لطلاب العلم ويَروي لهم ما حفظ من السنن والآثار، وذلك من توفيق الله تعالى لهذا العالم الرباني وأمثاله.

من أخبار الفُضَيْل بن عياض رحمه الله:

ومن المجتهدين في العبادة العالم الرباني الفضيْل بن عياض التميمي اليربوَعي، قال عنه إسحاق بن إبراهيم الطبري: مـا رأيت أحدا أخوف على نفسه، ولا أرجى للناس من الفضيل، كانت قراءته حزينة شهيَّة بطيئة مترسلة، كأنه يخاطب إنسانا، وكان إذا مر بآية فيها ذكر الجنة يُردِّد فيـها ويسأل، وكانت صلاته بالليل أكثر ذلك قاعدا، يُلقَى له الحـصير في مسجـده فيصلِّي من أول الليلة ساعـة، ثم تغلبه عينه فَيلقِي نفسه علـى الحصير فينام قليلا ثم يقوم، فـإذا غلبه النوم نام ثم يقوم، هكذا حتى يصبح، وكان دأبه إذا نعس أن ينام، ويقال: أشد العبادة ما كان هكذا[1].

هذا الخبـر فيه نموذج من صـلاة الصالحين وهي تشتـمل على الصفات التـالية: الترسل والتأني في القراءة، وظهـور الحزن في صوت القارئ، وترديد الآيات التي فيها ذكر الجنة مع الدعاء بالظفر بها.

ومن هذا الخبر يتبين لنا قـوة إحساس الفضيل واهتمامه بالصـلاة، فهو إذا غلبه النوم نام قليلا، ثم قام وعاد إلى الصلاة، ولم تكن الساعات الـمُنَبِّهة موجودة في ذلك الوقت، ولكن دقة إحساس الفضيل وأمثاله تفوق أثر كل الساعات المنبهة.

من أخبار العابد أحمد بن حرب رحمه الله:

ومن ذلك ما ذكر عن أبي عبد الله أحمد بـن حرب النيسابوري، قال أبو عمرو محمد بن يحيى: مَرَّ أحمد بن حرب بصبـيان يلعبون، فقال أحدهم: أمسكوا فإن هذا أحمد بن حرب الذي لا ينام الليل، فقبض على لحيته وقال: الصبيان يهابونك وأنت تنام؟ فأحْيَي الليل بعد ذلك حتى مات[2].

ففي هذا الخبر مثل من اهتـمامات الصبيان في ذلك العصر فـقد وصفوا العالم أحمـد بن حرب بأنه لا ينام الليل، وكان وصـفهم على سبيل المدح، وكـان لهذا

(١) سير الأعلام النبلاء ٨/ ٣٧٧.
(٢) سير أعلام النبلاء ١١/ ٣٣.

مهيبًا عندهم، وهذا دليل على صلاح المجتمع آنذاك حيث يُعِزُّ أفراده أهل الاجتهاد في العبادة.

وليس المراد بقول أحمد بن حرب عن نفسه «وأنت تنام» أنه كان ينام الليل كله، بل كان ينام بعضه، فلما سمع مقالة الصبي علم أنْ قد طارت له في المجتمع شائعة بأنه لكثرة صلاته بالليل لا ينام، فعزَّ عليه أن تكون سمعته عند الناس أعلى من واقع عبادته فكان بعد ذلك يُحيى الليل كله ولا ينام.

من أخبار الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله:

ومن العلماء الذين اشتهروا بالعبادة الإمام أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، وفي ذلك يقول المروذي: رأيت أبا عبد الله يقوم لورده قريبًا من نصف الليل حتى يقارب السحر، ورأيته يركع فيما بين المغرب والعشاء.

وقال ابنه عبد الله: ربما سمعت أبي في السحر يدعو لأقوام بأسمائهم، وكان يكثر الدعاء ويخفيه، ويصلي بين العشاءين، فإذا صلى عشاء الآخرة ركع ركعات صالحة، ثم يوتر وينام نومة خفيفة، ثم يقوم فيصلي وكانت قراءته ليِّنة ربما لم أفهم بعضها، وكان يصوم ويُدْمِن ثم يفطر ما شاء الله، ولا يترك صوم الإثنين والخميس وأيام البيض، فلما رجع من العسكر أدمن الصوم إلى أن مات.

وقال المروذي: سمعت أبا عبد الله يقول: حججت على قدمي حَجتين وكفاني إلى مكة أربعة عشر درهما[1].

في هذه الأخبار وصف لعبادة الإمام أحمد في الصلاة والصيام والحج، وكونه يشغل أكثر الليل بالصلاة مع اشتغاله بالنهار بتعليم العلم والفتوى ومقابلة الوافدين يعدُّ من البركة التي منَّ الله تعالى بها عليه.

ويقول عاصم بن عصام البيهقي: بت ليلة عند أحمد بن حنبل فجاء بماء فوضعه، فلما أصبح نظر إلى الماء بحاله فقال: سبحان الله! رَجُلٌ يطلب العلم لا يكون له ورد بالليل[2].

(١) سير أعلام النبلاء ١١/ ٢٢٣.

(٢) سير أعلام النبلاء ١١/ ٢٩٨.

وهكذا تعـجَّب الإمام أحمـد من ذلك الشاب الذي بات عنده كـيف ينام الليل كله وهو يطلب العلم! إنَّ طلـب العلم لابد أن يرافقـه العمل، وكـيف يمرُّ طالب العلم بالأحاديث المرغِّبة في قيام الليل ثم لا يطبق ما جاء فيها!

إن طلاب العلم عند الإمام أحـمد ينبغـي أن يكون لهم سماتٌ خـاصة ومنهج خاص، من جملته أن يبادروا إلى التـسابق في أداء النوافل، وأن لا يكتفوا بالقليل منها الذي يطيقه عامة الناس.

وبهذا المنهج التربوي الذي كان العلمـاء يأخذون به طلابهم كان الصلاح يغلب على طلاب العلم في تلك العصور.

من أخبار محمد بن أسلم رحمه الله:

ومن الذين عُـرفوا بالاجـتهاد في الـعبادة العـالم أبو الحسـن محمـد بن أسلم الخراساني، يقول مـحمد بن القاسم الطوسي: صحبت محـمد بن أسلم أكثر من عشرين سنة لم أره يصلي حيث أراه ركعتين من التطوع إلا يوم الجـمعة، وسمعته كذا وكذا مـرة يحلف: لو قدرت أن أتطوع حيث لا يراني ملكاي لفـعلت، خوفًا من الرياء، وكان يدخل بـيتًا له ويُغلق بابه ولم أدر مـا يصنع حتى سـمعت ابنًا له صغيرا يحـكي بكاءه، فنهته أمه، فقلت لها: مـا هذا؟ قالت: إن أبا الحسن يدخل هذا البيت فيـقرأ ويبكي، فيسمعـه الصبي فيحكيه، وكـان إذا أراد أن يخرج غسل وجهه واكتحل فلا يُرى عليه أثر البكاء.

وكان يَصِل قومًـا ويكسوهم ويقول للرسول: انظر أن لا يعلمـوا مَنْ بعثه، ولا أعلم منذ صحبته وصل أحدًا بأقل من مائة درهم إلا أن لا يمكنه ذلك[1].

فهـذا خبر رائع يشـتمل على مـواقف عالية في العـبادة من العـالم أبي الحسن محمد بن أسلم الخراساني، فـهو لا يكاد يصلي في المسجد إلا الفرائض بعدًا عن الرياء، ولكنه يحيى بيته بصلاة الليل، ويبكي من خـشية الله تعالى بكاءً يُسمع من خارج الغرفة التي أقفل بابها، ويبذل جهده في إخفاء آثار البكاء، ولكن ذلك ظهر على لسان ذلك الطفل الذي أصبح يحكي بكاءه ليكون في سـيرته عبرةٌ للناس في عصره وبعد ذلك.

(١) سير أعلام النبلاء ١٢/ ٢٠٠ - ٢٠١.

ولقد كان لخلوته لعبادة ربه في الليل أثر كبير في رسوخ إيمانه وقوة شخصيته، حيث أصبح قَوَّالاً بالحق آمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر داعيًا إلى الله تعالى لا يخشى في الله لومة لائم، ولما مات صلى عليه أكثر من ألف ألف.

قيل للإمام أحمد بن نصر: يا أبا عبد الله صلى عليه ألف ألف وقال بعضهم: ألف ألف ومائة ألف من الناس، يقول صالحهم وطالحهم: لم نعرف لهذا الرجل نظيرا، فقال أحمد بن نصر: يا قوم أصلحوا سرائركم بينكم وبين الله، ألا ترون رجلا دخل بيته بطوس فأصلح سره بينه وبين الله، ثم نقله الله إلينا فأصلح الله على يديه ألف ألف ومائة ألف من الناس![1].

وهكذا أدرك العالم الرباني أحمد بن نصر أثر العبادة الخفية في صقل النفوس وتطهيرها وتقْوِيتها على قول الحق وإصلاح الناس.

من أخبار الإمام البخاري رحمه الله:

من أخبار اهتمام الإمام البخاري بالصلاة ما ذكره كاتبه محمد بن أبي حاتم قال: دُعي محمد بن إسماعيل إلى بستان بعض أصحابه، فلما صلى الظهر قام للتطوع فأطال القيام، فلما فرغ من صلاته رفع ذيل قميصه فقال لبعض من معه: انظر هل ترى تحت قميصي شيئًا؟ فإذا زنبور قد أَبَره في ستة عشر أو سبعة عشر موضعا، وقد تَوَرَّم من ذلك جسده وكان آثار الزنبور في جسده ظاهرة، فقال له بعضهم: كيف لم تخرج من الصلاة في أول ما أَبَرَك؟ قال: كنت في سورة فأحببت أن أتمها[2].

فهذا اهتمام كبير من أبي عبد الله البخاري بالصلاة حيث تحمل لسع الزنبور المتواصل حتى تورم جسده ولم يقطع صلاته أو يسرع فيها، لأنه كان قد بدأ في سورة فأحب أن يتمها.

وقد أشبه في ذلك عَبَّاد بن بشر رضي الله عنه يوم أن كان هو وعمار بن ياسر رضي الله عنه يحرسان جيش المسلمين، وكان عباد يصلي في نوبته فأصابه أحد

(١) حلية الأولياء ٩/ ٢٤٠ - ٢٤١.

(٢) تاريخ بغداد ٢/ ١٢ - ١٣.

الأعداء بثلاثة أسهم فلم يقطع صلاته، وحينما عاتبه في ذلك عمار قال: كنت في سورة أقرؤها فلم أحب أن أقطعها حتى أنفذها[1].

من أخبار محمد بن نصر رحمه الله:

ومن أمثلة الخشوع في الصلاة ما ذكره محمد بن يعقوب بن الأخرم قال: ما رأيت أحسن صلاة من محمد بن نصر، كان الذباب[2] يقع على أذنه فيسيل الدم ولا يَذبُّه عن نفسه، ولقد كنا نتعجب من حسن صلاته وخشوعه وهيئته للصلاة، كان يضع ذقنه على صدره فينتصب كأنه خشبة منصوبة[3].

فهذا مثل من الخشوع في الصلاة إلى الحد الذي يترك فيه العالم الرباني محمد ابن نصر المروزي ما أباحه الله له من إزالة تلك الحشرة المؤذية، وهذا يُعدُّ من المبالغة في احترام الصلاة وتعظيم قدرها، كيف لا وهو صاحب الكتاب النفيس «تعظيم قدر الصلاة»؟

من أخبار محمد بن خفيف رحمه الله:

ذكر الإمام الذهبي في ترجمة أبي عبد الله محمد بن خفيف أنه كان به وجع الخاصرة فكان إذا أصابه أقعده عن الحركة، فكان إذا نودي بالصلاة يُحمل على ظهر رجل، فقيل له: لو خففت على نفسك؟ قال: إذا سمعتم حيَّ على الصلاة ولم تروني في الصف فاطلبوني في المقبرة[4].

فهذا اهتمام كبير من هذا العالم الجليل بالصلاة مع الجماعة في المسجد، فهو معذور بمرضه لو صلى في بيته، ولكنه يكلف من يحمله إلى المسجد لأداء الصلاة حتى لا يفوته الأجر المضاعف لمن أدى الصلاة مع الجماعة في المسجد.

وهو في هذا يطبق قول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: حافظوا على هذه الصلوات الخمس حيث يُنادَى بهن فإنهن من سنن الهدى، وإنكم لو صلَّيتم في بيوتكم كما يصلي هذا المتخلف في بيته لخالفتم سنة نبيكم، ولو خالفتم سنة نبيكم

(١) تقدم هذا الخبر في غزوة ذات الرقاع.
(٢) يعني الزنبور.
(٣) سير أعلام النبلاء ١٤/ ٣٦ - ٣٧.
(٤) سير أعلام النبلاء ١٦/ ٣٤٦.

لضللتم، ولقد رأيتُنَا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق، حتى إن الرجل ليُوْتَى به يُهادَى بين الرجلين حتى يقام في الصف.

وفي قول ابن خفيف: «إذا سمعتم حيَّ على الصلاة ولم تروني في الصف فاطلبوني في المقبرة» تعبير بليغ عن أهمية صلاة الجماعة في المسجد، حيث عَدَّ المانع منها هو الموت، وهو محمول على الأمراض التي يستطيع صاحبها الوصول إلى المسجد ولو بواسطة، أما مع عدم الاستطاعة فلا يكلف الله نفسا إلا وسعها، وقد قال الله تعالى ﴿**اتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ**﴾ [التغابن: ١٦]. وقال رسول الله ﷺ: «**إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم**»[(١)].

وإذا كان هذا العالم وأمثاله يكلفون أنفسهم الوصول إلى المسجد مع المشقة فكيف بالمقصرين الذين يتركون الصلاة في المسجد وهم يتمتَّعون بنعمتي الصحة والأمن؟!

من أخبار ابن دقيق العيد وتلميذه رحمهما الله:

قال الحافظ ابن حجر العسقلاني: وقرأت بخط محمد بن عبد الله العثماني قاضي صفد: أخبرني الأمير سيف الدين بلبان الحسامي قال: خرجت يومًا إلى الصحراء فوجدت ابن دقيق العيد في الجبَّانة واقفًا يقرأ ويدعو ويبكي، فسألته فقال: صاحب هذا القبر كان من أصحابي وكان يقرأ علي، فمات فرأيته البارحة، فسألته عن حاله فقال: لما وضعتموني في القبر جاءني كلب أبقع[(٢)] كالسبع وجعل يروعني فارتعبت، فجاء شخص لطيف في هيئة حسنة فطرده وجلس عندي يؤنسني، فقلت: من أنت؟ فقال: أنا ثواب قراءتك سورة الكهف يوم الجمعة[(٣)].

فهذه رؤيا صالحة رآها العالم الفقيه محمد بن علي المنفلوطي المعروف بابن دقيق العيد، والرؤى الصالحة بين الأحياء والأموات تكررت كثيرًا في محيط العلماء وطلاب العلم، وذلك يعبر عن قوة العلاقة القلبية بين من رأى الرؤيا ومن رؤُيت

(١) صحيح البخاري، رقم ٧٠٨٧، الاعتصام (١٣/ ٢٥١)، صحيح مسلم، رقم (١٣٣٧)، الحج (ص٩٧٥).

(٢) أي لونه سواد في بياض.

(٣) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ٤/ ٩٥-٩٦.

له، فإذا فقد المحب حبيبه وكـان من أهل الصلاح والتقوى وشعر بشيء من الوجد والإشفـاق عليه فإن الله تعالى يقـدر له أن يراه في المنام ليخفف مما في نفـسه من الهم ونحوه.

والشيء الذي يلفت النظر ويحقق العـبرة في هذه الرؤيا بيان فـضل قراءة سورة الكهف يوم الجمعـة، حيث تجسم هذا الثواب بصورة رجل لطيف في هيـئة حسنة فأزال المكروه عن صاحب ذلك الثواب وأدخل عليه السرور والأنس.

من أخبار العالم العابد جلال الدين التبريزي رحمه الله:

قال الشيخ عـبد الحي الندوي: سافر إلى بغـداد وصحب الشيخ الكبيـر شهاب الدين عمر السهروردي مدة طويلة حتى بلغ رتبة الكمال، وقدم الهند مرافقًا للشيخ بهاء الدين أبي محمد زكريا الملتاني فأقام ببدايون برهة من الزمان.

ثم ارتحل إلى بنكاله، هو ممن أدركـه الشيخ محـمد بن بطوطة المغـربي الرحالة الذي قدم الهند عام أربع وأربعين وسبعمائة.

وأدركه الشيخ ابـن بطوطة في جبال كامَرُ -بـلدة بينها وبين سد كانوان مـسيرة شهر- وهي جبال متسعة متصلة بالصين وتتصل ببلاد التبت.

قال ابن بطوطة في كتـابه: إن هذا الشيخ من كبار الأوليـاء وأفراد الرجال، له الكرامات الشـهيرة والمآثر العظيمة، وهـو من المعمرين، أخبرني أنـه أدرك الخليفة المستعصم بالله العباسي ببغداد وكان بها حين قتله التتر.

قال: وأخبرني أصحابه بعد هذه المدة أنـه مات ابن مائة وخمسين وأنه كان نحو أربعين سنة يسـرد الصوم ولا يفطر إلا بعـد مواصلة عـشر، وكانت له بقـرة يفطر على حليبها ويقوم الليل كله، وكان نحيف الجسم طوالاً خفيف العارضين، وعلى يديه أسلم أهل تلك الجبـال ولذلك أقام بينهم، قال: وأخبرنـي بعض أصحابه أنه استدعاهم قـبل موته بيوم واحد وأوصاهم بتقوى الله وقـال لهم: إني أسافر عنكم غدًا إن شـاء الله وخليفـتي عليكم الله الذي لا إله إلا هو، فلما صلى الـظهر من الغد قبضه الله في آخر سجدة منها، ووجدوا في جانب الغار الذي كان يسكنه قبرًا

محـفوراً عليـه الكفن والحنوط، فغسلـوه وكفنوه وصلوا عليه ودفـنوه به، ثم ذكر الشيخ ابن بطوطة كرامات عديدة له[1].

فهذا العـالم العابد استطاع بخـشوعه وعبـادته المتواصلة أن يؤثر على أهل تلك الجبـال، فاهتدوا إلى الإسـلام لإعجابهم الكبـير بهـذا الشيخ، ولا شك أن الذين يتسابقون إلى الدنيـا ويتنافسون عليها يعجبـهم أن يروا رجلا يعيش في أفكاره في عالم آخر، فيحرم نفسـه في الليل من لذيذ النوم، ويحرم نفسه في النهار من لذيذ الطعام والشراب، في الوقت الذي يغطُّ فيه الآخرون في نومهم ويتمتعون بطعامهم وشرابهم.

فالذين يرون حياة هذا الرجل الزاهد سيتساءلون: ما الذي جعله يحرم نفسه من ملذات الدنيا وهو يملك الغرائز التي يملكها الآخـرون؟ وحينما يعلمون أنه إنما ترك نعيم الدنـيا من أجل أن يسعـد بنعيم الآخـرة الخالد يبدؤون بالتـساؤل عن الحـياة الآخرة ومصير الإنسـان بعد الموت، وهذا يقودهم إلى الإسلام لأنه ليس هناك أي دين على وجه الأرض يستطيع أن يجـيب على هذه التساؤلات إلا الإسلام، وهذا يدفعهم إلى الإيمان بهذا الدين الذي ينقلهم من الجو المادي المحض إلى جو روحاني لا يتنافى مع مطالب الجسم المادية المعتدلة، بل يهذبها وينظمـها حتى تأخذ حجمها اللائق بها.

من مواقف القاضي منذر بن سعيد البلوطي رحمه الله:

قال الحافظ الذهبي: قال الحسن بن مـحمد: قَحَطَ الناس في بعض السنين آخر مدة الناصر، فـأمر القاضي منذر بن سعيـد بالبروز إلى الاستسقـاء بالناس، فصام أيامًا وتأهب، واجتـمع الخلق في مصلى الرَّبَض، وصعد الناصـر في أعلى قصره ليشاهد الجمع فأبطأ منذر ثم خرج راجلا متخشعًا، وقام ليخطب، فلما رأى الحال بكى ونشج وافتـتح خطبته بأن قال: سـلام عليكم، ثم سكت شبه الحسـير، ولم يكن من عادته، فنظر الناس بعضهم إلى بعض لا يدرون ما عراه، ثم اندفع فقال: ﴿ **سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ** ﴾ [الأنعام: ٥٤] استغفروا ربكم وتوبوا

(١) المختار المصون / ٢٦٢ عن كتاب الإعلام للندوي.

إليه وتقربوا بالأعمال الصالحة لديه، فضجَّ الناس بالبكاء، وجأروا بالدعاء والتضرع، وخطب فأبلغ، فلم ينفضَّ القوم حتى نزل غيث عظيم.

واستسقى مرة فقال يهتف بالخلق ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (١٥) إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٦) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ** ﴾ [فاطر: ١٥، ١٦] فهيج الخلق على البكاء.

قال: وسمعت من يذكر أن رسول الناصر جاءه للاستسقاء فقال للرسول: ها أنا سائر، فليت شعري ما الذي يصنعه الخليفة في يومنا هذا؟ فقال: ما رأيته قط أخشع منه في يومه هذا، إنه منفرد بنفسه لابس أخشن الثياب، مفترش التراب، قد علا نحيبه واعترافه بذنوبه، يقول: رب هذه ناصيتي بيدك، أتُراك تعذب الرعية وأنت أحكم الحاكمين وأعدلهم، أن يفوتك مني شيء، فتهلل منذر بن سعيد وقال: يا غلام احمل الممطرة معك[1]، إذا خشع جبار الأرض رحم جبار السماء[2].

فهذا موقف من العالم الرباني منذر بن سعيد البلوطي في الخشية من الله تعالي والخضوع له والرجاء لما عنده من الخير، وقد سبق ذلك استعداد روحي بمواصلة الصيام والتأهب لذلك اليوم بالتقرب إلى الله جل وعلا بالأعمال الصالحة، وفي هذا يبين هذا العالم أن الاستسقاء ليس مجرد الاجتماع للصلاة والدعاء بدون استعداد روحي وتأهب سابق بالإكثار من الأعمال الصالحة والتنزه عن المحرمات والمكروهات، بل إن ذلك أمر مهم في إجابة الدعاء مع حضور القلب مع الله تعالى والخضوع له والتذلل بين يديه.

وفي الخبر الثاني يشير منذر بن سعيد إلى أمر مهم في إجابة الدعاء وهو خشوع الحكام وخضوعهم لله تعالى وإنابتهم إليه وقربهم منه، وقد استبشر حينما علم أن أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر على تلك الحال المذكورة من الخشوع والتذلل لله تعالى، وقوي أمله في إجابة الله تعالى وهطول المطر.

---

(١) الممطرة ثوب من الصوف يتقي به المطر.

(٢) سير أعلام النبلاء ١٦/ ١٧٦.

فهرس المصادر والمراجع

- أسد الغابة فى معرفة الصحـابة/ لعز الدين على الشيباني «ابن الأثير» /الناشر: انتشارات إسماعيليات - طهران.
- الاستـيعاب في أسمـاء الأصحاب / لأبى عمـر يوسف بن عبد البـر النمري/ الناشر/ مصطفى محمد بمصر.
- الإصابة فـي تمييز الصـحابة/ للحـافظ أحمـد بن على الكناني «ابن حـجر» / الناشر: مصطفى محمد بمصر.
- أنساب الأشراف/ لأحمد بن يحيى البلازدي/ الناشر: دار الفكر في لبنان.
- البداية والنهاية/ للحافظ أبي الفداء ابن كثير/ الناشر: دار الكتب العلمية.
- تاريخ الإسلام/ للحافظ الذهبي/ الناشر: دار الكتاب العربي.
- تاريخ بغداد/ للحافظ أحمد الخطيب البغدادي، الناشر: دار الكتاب العربي- بيروت.
- تاريخ دمشق/ للحافظ علي بن الحسن «ابن عساكر»/ الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر.
- تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك) للمؤرخ محمد بن جرير الطبري/ الناشر: دار المعارف بالقاهرة.
- تاريخ المدينة المنورة/ لأبي زيد عمر شبة النميري/ تحقيق فهيم شلتوت.
- جامع الأصـول/ لأبي السعادات المبارك بن مـحمد بن الأثيـر المزري/ الناشر: مكتبة الحلواني ومطبعة الملاح ومكتبة دار البيان.
- جامـع العلوم والحِكَم/ للحافظ عـبد الرحـمن «ابن رجب» الناشـر: مؤسـسة الرسالة - بيروت.
- الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز/ لعمر الخضر الملاء/ الناشر: مؤسسة الرسالة.
- الجرح والتعديل/ للحافظ عبد الرحمن بن أبي حاتم/ الناشر: دار الأمم للطباعة والنشر - بيروت.
- جمع الفوائد/ لمحمد بن محمد بن سليمان/ الناشر: عبد الله بن هاشم اليماني - المدينة المنورة.

- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء/ للحافظ أبى نُعيم الأصفهاني/ الناشر: مكتبة الخانجي ومطبعة السعادة في مصر.
- الدرر الكامنة/ للحافظ أحمد بن على الكناني «ابن حجر»/ الناشر: دار الجيل في بيروت.
- الذيل على طبقات الحنابلة/ للحافظ عبد الرحمن بن أحمد «ابن رجب»/ الناشر: دار المعرفة - بيروت.
- الروضتين في أخبار الدولتين/ لشهاب الدين أبي شامة/ الناشر: مؤسسة الرسالة.
- الزهد/ للإمام أحمد بن حنبل الشيباني/ الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت.
- سنن الترمذي/ للحافظ أبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي/ الناشر: المكتبة الإسلامية.
- سنن أبي داود/ للحافظ أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي/ الناشر: محمد على السيد - حمص.
- سنن الدارمي/ للحافظ عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي/ الناشر: دار الريان - القاهرة، ودار الكتاب العربي - بيروت.
- سنن ابن ماجة/ للحافظ محمد بن يزيد القزويني «ابن ماجة» / الناشر: دار إحياء الكتب العربية.
- سنن النسائي/ للحافظ أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي/ الناشر: المكتبة التجارية الكبرى فى مصر.
- سير أعلام النبلاء/ للحافظ محمد بن أحمد الذهبي الناشر: مؤسسة الرسالة في بيروت.
- سيرة عمر بن عبد العزيز/ لعبد الله بن عبد الحكم/ الناشر: دار العلم للملايين.
- سيرة عمر بن عبد العزيز/ لأبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي/ الناشر: دار الفكر.
- شمائل الرسول ﷺ/ للحافظ ابن كثير/ الناشر: دار القبلة في جدة ومؤسسة علوم القرآن في بيروت.
- صحيح البخاري/ للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري/ الناشر: المطبعة السلفية ومكتبتها في القاهرة.

- صحيح مسلم/ للإمام مسلم بن الحجاج القشيري/ الناشر: دار إحياء التراث العربي.
- صفة الصفوة/ للحافظ أبي الفرج ابن الجوزي/ الناشر: دار المعرفة - بيروت.
- طبقات الحنابلة/ للقاضي محمد بن أبي يعلى/ الناشر: دار المعرفة في بيروت.
- طبقات الشافعية الكبرى/ للحافظ أبي نصر عبد الوهاب السبكى/ الناشر: دار المعرفة في بيروت.
- الطرق الحكمية في السياسة الشرعية/ للعلامة شمس الدين محمد بن أبي بكر الزرعي «ابن القيم»/ الناشر: مكتبة النهضة الحديثة - بمكة المكرمة.
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري/ للحافظ أحمد بن علي الكناني «ابن حجر العسقلاني»/ الناشر: المطبعة السلفية ومكتبتها في مصر.
- الفتح الرباني/ لأحمد عبد الرحمن البنا/ الناشر: دار الحديث في القاهرة.
- القاموس المحيط/ لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزبادي/ الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت.
- كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال/ لعلاء الدين على المتقى البرهانفوري/ الناشر: دائرة المعارف العتمانية في حيدر آباد
- لسان العرب/ لأبي الفضل محمد بن مكرم ابن منظور/ الناشر: دار صادر - بيروت.
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد/ للحافظ على بن أبي بكر الهيثمي/ الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت.
- مجموع فتاوي ابن تيمية/ جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم/ مطابع الرياض.
- المختار المصون من أعلام القرون/ للدكتور محمد بن حسن بن عقيل موسى/ الناشر: دار الأندلس الخضراء - جدة.
- مختصر الشمائل المحمدية/ لأبي عيسى الترمذي اختصار الشيخ محمد ناصر الدين الألباني/ الناشر: المكتبة الإسلامية - عمان.
- مدارج السالكين/ للإمام محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية/ الناشر: مطبعة السنة المحمدية - القاهرة.

- المستدرك على الصحيحين/ للحافظ أبي عبد الله الحاكم النيسابوري/ الناشر: مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب .
- مسند أحمد/ للإمام أحمد بن حنبل الشيباني/ الناشر: المكتب الإسلامي ودار صادر - بيروت.
- مسند الطيالسي/ للحافظ سليمان بن داود بن الجارود/ الناشر: المطبعة المنيرية بالأزهر.
- المسند/ للحافظ أبي بكر عبد الله بن الزبير الحميدي/ الناشر: عالم الكتب - بيروت، مكتبة المثنى - القاهرة.
- المصنف/ للحافظ عبد الرزاق بن همام الصنعاني/ الناشر: المجلس العلمي في الهند.
- المعجم الأوسط/ للحافظ سليمان بن أحمد اللخمي الطبراني/ الناشر: مكتبة المعارف - الرياض.
- معجم البلدان/ لشهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي/ الناشر: دار صادر ودار بيروت - بيروت.
- المعجم الكبير/ للحافظ سليمان بن أحمد اللخمي الطبراني/ الناشر: وزارة الأوقاف - العراق.
- منتخب كنز العمال/ للعلامة على المتقى الهندي/ الناشر: المكتب الإسلامي، دار صادر - بيروت.
- موارد الظمآن/ للحافظ نور الدين على بن أبي بكر الهيثمي/ الناشر: المطبعة السلفية ومكتبتها - القاهرة.
- الموطأ/ للإمام مالك بن أنس / الناشر: دار إحياء التراث العربي.
- النهاية في غريب الحديث والأثر/ للحافظ أبي السعادات «ابن الأثير» الناشر: دار إحياء الكتب العربية.
- الوافي بالوفيات/ لصلاح الدين خليل الصفدي/ الناشر: فرانز شتايز بفيسادن.
- وفيات الأعيان/ لأبي العباس أحمد بن محمد بن خلكان/ الناشر: دار صادر - بيروت.

* * *

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
مواقف وعبر في الورع والعفة والزهد	٧
- نماذج من ورع النبي ﷺ وزهده وخشيته	٩
- من أخبار أبى بكر رضي الله عنه	١٣
- من أخبار عمر رضي الله عنه	١٧
- من أخبار عثمان بن عفان رضي الله عنه	٣٧
- من أخبار علي بن أبي طالب رضي الله عنه	٣٨
- من أخبار أبي عبيدة ومعاذ رضي الله عنهما	٤٤
- من أخبار سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه	٤٦
- من أخبار عبد الله بن مسعود رضي الله عنه	٤٧
- من أخبار أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه	٤٨
- من أخبار المقداد بن عمرو رضي الله عنه	٥٠
- من أخبار خباب بن الأرت رضي الله عنه	٥١
- من أخبار عائشة رضي الله عنها	٥١
- من أخبار زينب بنت جحش رضي الله عنها	٥٤
- من أخبار سلمان الفارسي رضي الله عنه	٥٥
- من أخبار ثابت بن قيس رضي الله عنه	٥٨
- من أخبار عبد الله بن عمر رضي الله عنهما	٥٨
- من أخبار سعيد بن عامر بن حِذْيَم رضي الله عنه	٦٢
- من أخبار أبي سعيد الخدري رضي الله عنه	٦٣
- من أخبار سهيل بن عمرو رضي الله عنه	٦٤

- من أخبار هاشم بن عتبة رضي الله عنه ٦٥
- من أخبار عبد الله بن السعدي رضي الله عنه ٦٦
- من أخبار الأمم الماضية ٦٦
- من أخبار أبي مسلم الخولاني ٦٨
- من أخبار سالم بن عبد الله ٧١
- من أخبار طاوس بن كيسان ٧٢
- من أخبار عبد الملك بن مروان ٧٣
من أخبار أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رحمه الله ٧٣
- خبره مع سليمان بن عبد الملك بمناسبة البرق والرعد ٧٣
- خروجه للنزهة والعبرة في ذلك ٧٣
- خبره مع الغراب وما فيه من العبر ٧٤
- خشيته من العذاب بالريح ٧٥
- خشيته من ارتكاب السيئات بمكة ٧٥
- ورعه عما حُمل على دواب البريد ٧٦
- رده أحد أملاكه من الإقطاع ٧٦
- نماذج من تورعه عن المال العام ٧٧
- من أخبار إبراهيم بن أدهم ٨٠
- من أخبار إياس بن معاوية والقاسم بن ربيعة ٨٢
- من أخبار محمد بن واسع ٨٣
- من أخبار إبراهيم التيمي ٨٩
- من أخبار يونس بن عبيد ٨٩
- من أخبار مالك بن أنس ٩١
- من أخبار محمد بن إدريس الشافعي ٩٢
- من أخبار حجاج بن منهال ٩٢

- من أخبار ابن إدريس وعيسى بن يونس ٩٣
- من أخبار هارون الرشيد ٩٤
- من أخبار وكيع بن الجراح ٩٧
- من أخبار زكريا بن عدي ٩٩
- من أخبار بشر بن الحارث ٩٩
- من أخبار يوسف بن معدان ١٠١
- من أخبار أحمد بن حنبل ١٠٢
- من أخبار سَرِيَّ السَّقطي ١١٠
- من أخبار عبد الرحمن بن أبي حاتم ١١١
- من أخبار أبي عبد الله البخاري ١١٢
- من أخبار أبي جعفر الطيري ١١٧
- من أخبار إبراهيم الحربي ١١٩
- من أخبار حمدون البرذعي مع أبي زرعة ١٢٠
- من أخبار نصر بن علي الأزدي ١٢٠
- من أخبار محمد بن سعيد الكوفي ١٢١
- من أخبار ابن الدجاجي ١٢٢
- من أخبار محمد بن المظفر الحموي ١٢٢
- من أخبار أبي عبد الله الحميدي ١٢٣
- من أخبار أبي إسحاق الشيرازي ١٢٤
- من أخبار أبي الفتح النابلسي ١٢٤
- من أخبار أبي سعد ابن البغدادي ١٢٥
- من أخبار أبي العباس ابن الحطيئة ١٢٥
- من أخبار أبي عبيد ابن سلام ١٢٥
- من أخبار محمد الذهلي ١٢٦

- من أخبار الربيع بن صبيح ١٢٧
- من أخبار أبي ابن شاذان ١٢٧
- موقف في القناعة والأمانة ١٢٨
- من أخبار الوزير ابن هبيرة ١٢٩
- من أخبار أبي عبد الله السعدي ١٣٠
- من مواقف الوزير نظام الملك ١٣١
- من مواقف السلطان نور الدين زنكي ١٣١
توجيهات ومواقف في العمل الصالح ١٣٥
- من مواقف عبد الله بن رواحة رضي الله عنه ١٣٧
- من مواقف سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ١٣٨
- من مواقف أبي بن كعب رضي الله عنه ١٣٩
- من مواقف أبي أمامة رضي الله عنه ١٣٩
- من مواقف ربيعة بن كعب رضي الله عنه ١٤٠
- من مواقف عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ١٤٢
- من مواقف القاسم بن محمد ١٤٢
- من مواقف عبد الله بن عون ١٤٣
- من مواقف سفيان الثوري ١٤٤
- من مواقف بعض المجاهدين ١٤٥
- من مواقف أبي عبد الرحمن الأزدي ١٤٦
- من مواقف أبي جعفر المنصور ١٤٧
- من مواقف أبي عثمان الحيري ١٤٨
- من مواقف هدبة بن خالد ١٥٠
- من مواقف المعتضد بالله ١٥١
- من مواقف الوزير علي بن الجراح ١٥٢

- من مواقف أبي بكر الباقلاني ١٥٣
- من مواقف أحمد الأبار ١٥٥
- من مواقف بقي بن مخلد ١٥٥
- من مواقف ظهير الدين الأهوازي ١٥٦
- من مواقف حسان الخالدي ١٥٧
- من مواقف إبراهيم المقدسي ١٥٨
- من مواقف الوزير جمال الدين محمد بن أبي منصور ١٥٩
- من مواقف السلطان نور الدين ١٦٣
- من مواقف السلطان صلاح الدين ١٦٥
- من مواقف شيخ الإسلام ابن تيمية ١٦٦
- من مواقف أبي الحسين ابن سمعون ١٦٧
توجيهات ومواقف في مجال العبادة ١٦٩
- نماذج من عبادة النبي ﷺ ١٧٢
- من أخبار أبي بكر رضي الله عنه ١٧٥
- من أخبار عمر رضي الله عنه ١٧٥
- من أخبار عثمان رضي الله عنه ١٧٦
- وصف علي لعبادة الصحابة رضي الله عنهم ١٧٧
- من أخبار أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ١٧٨
- من أخبار أبي هريرة رضي الله عنه ١٧٩
- من أخبار شداد بن أوس رضي الله عنه ١٧٩
- من أخبار عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ١٨٠
- من أخبار أنس بن مالك رضي الله عنه ١٨٠
- من أخبار أسامة بن زيد رضي الله عنهما ١٨١
- من أخبار عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ١٨٢

- من أخبار الحسن بن علي رضي الله عنهما ١٨٣
- من أخبار عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما ١٨٣
- من أخبار عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ١٨٥
- من أخبار عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ١٨٥
- من أخبار أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه ١٨٥
- من أخبار مسروق بن الأجدع ١٨٦
- من أخبار الأحنف بن قيس ١٨٦
- من أخبار همام النخعي ١٨٧
- من أخبار سعيد بن المسيب ١٨٧
- من أخبار زيد بن الحارث ١٨٧
- من أخبار أيوب السختياني ١٨٨
- من أخبار سليمان التيمي ١٨٨
- من أخبار أبي العالية وأصحابه ١٨٩
- من أخبار الربيع بن خثيم ١٨٩
- من أخبار أبي حنيفة النعمان ١٨٩
- من أخبار الحسن بن صالح وأخيه ١٩٠
- من أخبار داود الطائي ١٩٠
- من أخبار محمد بن واسع ١٩١
- من أخبار عبيد الله القواريري ١٩١
- من أخبار عبد الله بن عون ١٩٢
- من أخبار أبي عمرو الأوزاعي ١٩٢
- من أخبار سفيان الثوري ١٩٣
- من أخبار سعيد التنوخي ١٩٣
- من أخبار عبد الله بن إدريس ١٩٤

- من أخبار وكيع بن الجراح ١٩٤
- من أخبار الفضيل بن عياض ١٩٥
- من أخبار أحمد بن حرب ١٩٥
- من أخبار أحمد بن حنبل ١٩٦
- من أخبار محمد بن أسلم ١٩٧
- من أخبار أبي عبد الله البخاري ١٩٨
- من أخبار محمد بن نصر ١٩٩
- من أخبار محمد بن خفيف ١٩٩
- من أخبار ابن دقيق العيد وتلميذه ٢٠٠
- من أخبار العابد جلال الدين التبريزي ٢٠١
- من مواقف منذر بن سعيد البلوطي ٢٠٢
- فهرس المصادر والمراجع ٢٠٥
- فهرس الموضوعات ٢٠٩

* * *